الإلحادُ في ضوءِ المَنهج العِلمي

أحمد البياتي

"أنا أريدُ أن أعرفَ الإلهَ الذي خَلَق العالَمَ، أريد أن أعرفَ أفكارَه. وكلُّ ما عدا ذلك مجردُ تفاصيل"
ألبرت آينشتاين

الإهداء الخاص

إلى أحبَّائي
مريم، فاطمة، عباس، إبراهيم
مع الحُب الدائم

الإهداء العام

إلى المؤمِنين ..

إلى المُلحِدين ..

مع التقدير

الإلحاد عاريا
احمد البياتي

مقدمة

تحجر التفكير وانغلاقه لن يغيير الواقع فعجلة التطور والتغيير لن تتوقف والمفروض على الإنسان أن يحاور الجميع بمن فيهم المختلِفين معه في الفِكر الذي يتبناه سواء كان موروثًا أو مكتسبًا لِما في ذلك مِن منافعَ كثيرةٍ أهمُّهَا اكتشافُ مكامِنِ الضعفِ والقوة في فكره، وعليه إلا يحيد عمَّا يراه الأَقربَ للحق والمنطق، ولو خالَفَ ذلك موروثه الثقافي والديني، وكما عليه أن يُفرق بين الدين والثقافة فالكثير من العادات الثقافية أصبحت دينًا بمرور الزمن.

وبناءً على هذا المَنهج والطريق دخلتُ عالَمَ المُلحِدين لعلّي أجِدُ الحقيقةَ أو المنطقَ الأقربَ لها، فلم أكتفِ بالقراءةِ والنقاش، بل ذهبتُ إلى مؤتمراتِهم، وحضرتُ لقاءَاتِهم الأسبوعيةَ، وبحثتُ وتَحققتُ مِن ما يقولونه، وقرأتُ كُتُبَهم المختلفةَ، واطَّلعتُ على حُجَجِهم وطريقةِ تفكيرهم، وكان النِتاج هذا الكتاب الذي بين يديك.

قبْلَ ما يقرُبُ مِن ١٤ بليون سنة حدَثَ الانفجارُ الكبير، وبدأ عالَمٌ جديد بالتكوّن، سنوات وسنوات من التفاعلات والتغيّرات والعملِ الدؤوب بين مكوّنات العالَمِ الجديد المختلفة لتؤدِّيَ إلى النتيجة التي نحن عليها اليوم، نعرفُ اليومَ حول الكون والحياة أكثر بكثيرٍ مما كنا نعرفُ سابقًا، ولكننا على الرغم مِن ذلك لا نملكُ من الحقائق إلا القليلَ والقليل جدًا، "وما أوتيتُم من العمل إلا قليلًا، يقابِلُ هذا النقصَ المعرفيّ الكبير الكثيرُ من الفرضيات والنظريات (العِلم النسبي) التي تحاول أن تجد التفسيراتِ العلميةَ الماديةَ لِما حدَث عبْرَ التاريخ الطويل من الأمور التي لا يمكننا أن نلاحظها.

قد تبرز لدى البعضِ أسئلةٌ مثل كيف عرَفنا أن الانفجارَ حدَث قبل ١٤ بليون سنة؟ وما الفَرق بين الحقائق والنظريات؟ وماهي تلك المجاهيل؟ ستجِد الجوابَ أو ما يدل عليه لاحقًا بين صفحات الكتاب. ولكِن يجب أن تعرف –عزيزي القارئ– إن هذا الكتابَ ليس كتابًا علميًا؛ فالعِلم متغيرٌ وما نعرفه اليومَ من نظرياتِ وفرضيات العِلم النسبي ستتغير بالتأكيد في المستقبل، لذا مَن يقرأ هذا الكتاب بعد عشرين سنة قد يجد بعض النظرياتِ المذكورةِ فيه قد تغيرت وأصبحت الأحفوريّات العلمية، ولكنه سيجد وبكل تأكيد نفس السياقات التي يتبعها الملحدون والمؤمنون.

كما أن هذا الكتاب ليس كتابًا دينيًا؛ فالدِّين تتم مناقشته بعد أن نتجاوز مسألةَ الخالق وإن كنا تكلمنا في بعض الأمور الدينية التي ينتقدها الملحدون، والكتاب الذي بين يديك كتابُ بحثٍ وتدقيق وعرض وتحليل لمفاهيمَ وتعابيرَ اختلطتْ على الكثيرين، هذا الكتابَ لا يُدافع عن الخالق، ولكن يهدف إلى توضيح الموقف الفكري القائم على الاعتقاد بوجود خالقٍ من ورفضه ربط العلم بالإلحاد.

الإلحاد اليومَ يعتمد بشكلٍ أو بآخرَ على مجموعةٍ من النظريات العلمية الحديثة والتي يتم تسويقُها بين الناس بشكلٍ مبسَّط عن طريق مجموعةٍ من الوكالات الإعلامية، وعددٍ من العلماء المُلحِدين أو القريبين من الإلحاد، قد يظن البعض أن الهدفَ من هذا التسويق هو التبشير بالإلحاد أو نشرِ العِلم، ولكنَّ الحقيقةَ أن هذه الوكالاتِ الإعلاميةَ الضخمة تعمل ضِمْنَ مناخٍ رأسمالي يكون فيه الربحُ المادي هو العامل الأساسي، ولا فرقَ لديهم بين الوثائقيات التي تتحدث عن النظريات العلمية أو تلك التي تتناول فنونَ الطبخ أو تلك التي تتناول المواضيعَ الإباحيةَ، إلا بقدْرِ الربح المادي المتحقّق.

أمَّا مِن ناحية العلماء المُلحِدين فإن الهدفَ الواضح هو نشرُ فكرِهم الإلحادي، حيث تقرأ كُتُبًا كاملةً لعلماءَ كبارٍ ليس لها هدفٍ علمي واضح، وإنما الهدف الواضح هو نشر وجهةِ نظر العالِم الخاصة بالدين، أمّا بخصوص الجامعات الراعية لهولاء العلماء فمِن مصحلتِها أن يشتهِر العلماءُ الذين يعملون فيها، حيث سيؤدي ذلك إلى جلْبِ المزيد من الطلبة باعتبار كلام العالم دعايةً مجانيةً للجامعات التي يعملون فيها، ومَن يعيش في أمريكا يعرف تَصارُعَ الجامعاتِ على الطلبة، وحجمَ الأموال التي تُصرَف على الدعاية، وهكذا بالمُحصلة فإن العِلمَ كـ (عِلْم) مظلومٌ ضمْنَ هذه المعادلة التي تَستخدمه كوسيلةٍ لجلب الأموال أو كمَركبٍ لتمرير وجهة نظر المتكلِّم الدينية.

في الفصل الأول من الكتاب حاولتُ إعطاءَ تعاريفَ لبعضِ المصطلحات لغرضِ أن يكون الكتابُ سهلَ الكلمات، وكذلك حاولتُ أن أُبيِّنَ بعض المُغالطات التي قد تُفشِل النقاشَ أو قد تؤدي إلى عدم الخروج بالنتيجة المرجوّة منه، فالنقاش لن يؤدي إلى تغيير القناعات بشكلٍ أني وإنما هو فرصة للاطِّلاع على الفكر المختلف وبعد ذلك يستمر البحث والتدقيق الذي قد يستغرق أيامًا وشهورًا وحتى سنين لصياغة القناعة الشخصية؛ فالنقاشات المثمرةُ البعيدة عن الجدل العقيم محطاتٍ مهمّةً في رحلة الباحث وليست وجهات يستقر عندها ويطمئن.

وقد جاء الفصلُ الثاني ليوضِّح نظريتي التطورِ والانفجار الكبير، وكذا التصميم الذكي، ولم يكن الهدفُ من ذلك هو مناقشة النظريات علميًا بقدْر مناقشةَ علاقتِها بالخالق وبالإلحاد.

أمّا الفصلُ الثالث فقدْ جاء ليوضّح مباني الإلحاد الجديد حيث ناقش كتابيْنِ مهمّين مِن كُتُبِ الإلحاد الجديد وهُما "وهْم الإله" و"الإله النظرية الفاشلة" وتم اختيار الكتاب الأول لشهرته، والكتاب الثاني لأنه يدْحض وجود الخالق في ضوء المنهج العلمي كما يدعي، وبالتالي فإن له علاقة بموضوع الكتاب، ويجب التأكيد على أن مناقشة هذين الكتابين ليست عرضًا مفصلاً لهما ومن يريد التفصيل عليه بقراءتهما.

الفصلُ الرابع والأخير قد احتوى على بعض السِّجالات والنقاشات في مواضيع ذات علاقة بالعلم والإلحاد والدين.

الكتابُ جاء بشكلٍ مختَصرٍ قدْرَ الإمكان ليشكل محطةً متواضعةً من محطات النقاش حول العلم والدين والإلحاد؛ فليس بالإمكان الإحاطةُ بكافة جوانب الموضوع في كتابٍ واحد، وكذلك جاء مختصرًا لمجاراة روح العصر التي لا تتقبل التفصيل المُمل وكثرة الكلام.

الفصل الأول
مصطلحات ومغالَطات

تعريف المصطلحاتُ بشكلٍ دقيقٍ من أهم مفاتيحُ النقاش المُثمر، ولذا جاء تعريف المصطلحات في بداية الكتاب، بعضُ مصطلحاتٌ الخاصة بالمؤلّف ومِن وحي أفكاره، وبعضُها متداولٌ ومعروف، وهي ليست مصطلحاتٍ أو تعريفاتٍ حصريةً أو كاملة، وإنما هي مجرد مفاتيحَ للكتابِ الذي بين يديك، أمَّا المغالطات فهي محاولةُ لتقييم بعض الأخطاء التي نقع فيها أثناء النقاش أو أثناء قراءة حوار:

الإلحاد: هو نفيُّ وجودِ خالقٍ للكون، والادِّعاءُ أن الحياةَ لا مُسبِّبَ لها بدون إعطاء دليلٍ على هذا الادِّعاء. المعنى اللُّغوي للإلحاد هو الانحراف، ولذا إذا وجدنا في كتب التراث أن فلانًا ملحدٌ فلا يعني ذلك أنه يُنكر وجودَ الخالق، وإنما انحرفَ عن مسارٍ معين، النُّفاة هو اللقب الذي كان مستخدمًا سابقًا لوصف الملحدين لأنهم نفوا وجود خالق.

الإلحاد الجديد: هو نفيُّ وجودِ خالقٍ للكون لعدم وجود دليلٍ مادي يَخضعُ للمنهج العلميّ الذي يمكِن الاستدلالُ به على وجود خالق، في هذا الكتاب عندما نتكلم عن الإلحاد فإننا نتكلم غالبًا عن الإلحاد الجديد.

الربوبي: شَخصٌ يؤمِن بوجود خالقٍ، ولكنه لا يعتقد بأن هذا الخالِق هو نفسُه المعبودُ مِن الدياناتِ المختلفة الموجودة.

اللاديني: شَخصٌ يؤمِن بأن الأديانَ صناعةٌ بشرية، وقد يقترب اللاديني من الإلحاد إذا كان لا يعتقد بوجود خالقٍ، أو مِن الربوبية إن كان يعتقد بوجود خالق.

اللا أدري: شخصٌ يقول إن الأدلةَ على وجود خالق من عدمه متساويةٌ، ولذلك لا يستطيع أن يقرر هل هناك إلاهٌ أم لا، تَحامَلَ الكثيرُ من المؤمنين والملحدين على اللاأدريين لأنهم عطَّلوا المنهجَ العقلي في إثبات الخالق أو إنكاره فتركوا التفكير والبحث والتدقيق ورضُوا باللاأدرية.

المؤمِن: هو شَخصٌ يؤمِن بوجود خالقٍ، ويتبّع دينًا من الأديان "الشرائع" الموجودة في العالم.

وممَّا تجدر الإشارةُ إليه أن المصطلحاتِ أعلاه (الإلحاد، الإلحاد الجديد، الربوبي، اللاديني، اللا أدري، المؤمن) هي وجهاتُ نظرٍ دينية خالصة.

المنهج العقليّ المنطقيّ (البرهان العقليّ): المَنهج الذي يعتمد المنطقَ والعقلَ للوصول إلى النتائج، وهو المنهج الذي يتناول القضايا الفلسفيةَ بشكلٍ عامٍ مثل وجود الخالق وغاية الحياة، وكذلك يتناول القضايا غير الفلسفية؛ حيث نستخدمه في الحُكم على نتائج التجارب الحسية، وقد تَشَوَّهَ هذا المنهجُ وأضحى مصطلحًا مشوَّشًا بسبب عدم التفريق بين مسائل الفلسفة ومسائل العِلم، وقد أنكر المنهج العلمي الحالي هذا المنهج بالرغم من أنه الأساس في إلحاد بعض كبار العلماء وإيمان البعض الآخر منهم، وأبقى على الفلسفة الحسية (فلسلفة العلم).

المنهج التجريبيّ الحسيّ (البرهان الماديّ): المنهج الذي يعتمد المشاهَدةَ والتجربةَ للوصول إلى النتائج، وهو المنهج الذي يتناول القضايا الماديةَ، ويشمل مختلَفَ العلومِ التطبيقة مثل الكيمياء والفيزياء، أدواتِه محصورةٌ في الأمور الماديّة فقط.

الحقائق: هي الأمور التي لها أثرٌ ماديّ يمكِن أن نستدل به على حقيقة وجودِها، ويكون هذا الوجود إمَّا متضمِّنا للحقيقة وإمّا دالا عليها مثل مسألة وجود الخالق، حيث إن هناك أثرٌ ماديٌّ ممكن أن نستدل منه على وجود الخالق، وبالتالي يمكن القول أن الخالق حقيقة.

الأوهام: هي الأمور التي ليس لها أثرٌ ماديّ يمكِن أن نستدل به على حقيقة وجودها، والوهْمُ بطبيعة الحال لا يوجد ما يدل عليه مثل سانتاكلوز أو إناء الشاي الذي يدور حول المريخ، حيث لا يوجد أثرٌ ماديٌّ على وجود السانتاكلوز، وبالتالي فهو وَهْم.

العِلم: هو التعامل مع ما يمكِن ملاحظتُه، ومشاهدتُه، أو تصورُّه لوجود أدلةٍ ماديةٍ تدل عليه، فلا قيمة للمنهج العقلي المنطقي أمام المنهج التجريبي الحسي، والعِلم لا يتعامل مع أي تعليلٍ مِن ما وراء الطبيعة لعدم إمكانية إثباته ماديًّا، فأمور ما وراء الطبيعة خارج اختصاصِه وحدوده، والعِلمُ يحاول تفسيرَ طريقة عمل الظواهرِ الحسية مِن حولنا ولا قدرة له أبدًا على تعليل وجودها، فعلى سبيل المثال العِلم قد يفسر كيف حدث الانفجار الكبير ولكن لا يعلل سببَه، فهو يحاول الإجابةَ عن سؤال "كيف" وليس "لماذا.

أقسام العِلم :

عِلمٌ يقينيّ: وهو عِلْم ثابتٌ لا يمكن أن يتغير مهما تطورت أدواتُنا ومهما تطوَّر العِلم، فمثلاً نظرية فيثاغورس هي عِلمٌ يقينيٌ، واحتمال أن تتغيير كنظرية أو يتغير أحد عناصرها احتمالٌ ضعيف جدًا.

عِلمٌ نسبي (عِلم الثغرات): النظرياتِ العلمية التي تتعامل مع تصورات أو توقّعات لكيفية حدوث أمرٍ مُعيَّن استغرق حدوثه ملايين السنين أو لا يتكرر بشكل مستمر بحيث لا يمكننا رؤيتُه أو تجربته فعليًا، ويمكن أن نطلِق عليها العِلم النسبي لأنه اعتمد بشكل كامل على الأدوات المتوفرة حاليًا وعلى التطور العلمي للمرحلة الحالية، ولكن بما أن الأدواتِ في تطورٍ مستمِر والعِلم كذلك فكأننا نقف على حقلٍ من الرمال المتحركة، ولا يمكن التيقن من أن العِلم في المستقبل سيدعم مثل هذه النظرية ويُبقيها أو يرفضها؟

وهذا ينطبق على كافة النظريات التي تحتوي على بعض الثغرات مثل التطور وغيرها، فاحتمال أن يتغير أحد عناصرها كالانتقاء الطبيعي احتمالٌ وارِد جدًا، ففي أقل من قرن مثلاً تغيَّر مفهومُ الانتقاء الطبيعي إلى الانتقاء الطبيعي التراكمي، وظهَرَ مفهوم الجين الأناني وغيره، فعلى الرغم من أن عِلم الثغرات يحتوي على الكثير من الصحة، لكن يبقى الباب مفتوحًا لتغيير النظريات نتيجة لتلكم الثغرات .

العلم الزائف: استخدام العِلم لنفي أو اثبات أمورٍ تقع خارج منهجه وحدوده مثل نفي الخالق.

الاختصاصات غير المتداخلة: مصطلح يراد منه فصل الأمور الميتافيزيقية عن الأمور الطبيعة باعتبارها اختصاصات غير متداخلة، وبالتالي فإن العلم والدين يسيران في خطَّان متوازيان، وهذا الكلام فيه الكثير من

الصحة كما أن فيه الكثير من الخطأ، وخصوصًا عندما يشتمل الدين على خُرافات القرون السابقة حيث يمكن للعلم دحْضها بسهولة.

أدوات العِلم :

أولاً: الأدوات التي يتم استخدامُها للكشف والبحث والتحرّي كالتلسكوبات والمختبرات وغيرها.

ثانيا: المعرفة العلمية المتراكمة عبر السنين التي هي في حالة نموٍ مستمر، وتُبنَى النظرياتُ بناءً على آخر ما توصلت له المعرفةُ العلمية الإنسانية، وبتقدم المعرفة تختلف الاستنتاجات التي قد تكون بُنيتْ على دلائلَ واحدةٍ عندما يتعلق الأمر بالعِلم النسبيّ (عِلم الثغرات).

ثالثا: العنصر الواعي الفعَّال وهو العنصر الذي يوفر الأجواءَ والأدواتِ لإنجاح التجارب المختبرية وغير المختبرية، فلا تجربة تتم أو تنجح بدون وجوده أبدًا على الرغم من أن هذه التجاربَ المفروض أنها تحاكي واقعًا حياتيًّا حدَث بمحض الصدفة وبدون وجود العنصر الواعي الفعال، وهذا العنصر يمثله الإنسانالذي يقوم بالتجربة ويحدد المُدخَلاتِ والظروفَ التي ترافق إجراءَ التجربة ويتابعها بدقة .

التطور: نظريةٌ علمية مُعتبَرة ومبنية على المكتشفات الأُحفورية كعمودٍ فقري لها، والتي تدل على أن الأحياءَ قبل آلاف السنين تختلف عن الأحياء اليوم، وكذلك الكثير من المكتشَفات الحالية كالـ دي إن آي والوراثة .

الإله الشخصي: تصوّرٌ عن الخالق يكون فيه الخالق في علاقةٍ مباشرة ذات طبيعية دكتاتورية ومتسلِّطة مع الإنسان، يكون فيه الإله أشبه بشخصٍ مغرورٍ ومنفعلٍ وحسودٍ وحاقدٍ وقاتلٍ أيضًا.

ولمعرفة معنى الإله الشخصي يمكن مشاهدة فيلم "الخروج" الذي تم إنتاجُه عام ٢٠١٤ والذي يصوِّر فيه الإله على أنه إلهٌ منفعِلٌ حريصٌ على الانتقام من الفرعونيين بأقسى الوسائل لولا تهدئة موسى له بالحكمة أحيانًا وبالصراخ أحيانًا أخرى.

العهد القديم: وهو مجموعةُ الأسفار التي جمعها اليهودُ عبْرَ تاريخِهم، وعددُ الأسفار مختلَفٌ فيه بين الكنيسة الكاثوليكية والأرذوثكية التي تقبل ٤٦ سِفرًا من جهة، والكنائس البروتستانتية التي تقبل ٣٩ سِفرًا فقط من جهة ثانية، مِن هذه الأسفار هناك فقط خمسة أسفار تُنسَب لسيدنا موسى والتي تسمَّى التوارة، وحتى هذه الأسفار الخمسة فيها كلامٌ حول مَن كَتَبها على اعتبار أن فيها وصفًا لكيفية وفاة موسى ومكان دفنِه، ويشكِّل العهدُ القديم الجزءَ الأول من الكتاب المقدَّس لدى المسيحين.

العهد الجديد: وهو الجزء الثاني مِن الكتاب المقدس لدى المسيحين، يتكون من الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى أصحاب السيد المسيح، ثمان أسفار منسوبة إلى تلاميذ المسيح ورسله ، بالإضافة لرسائل القديس بولص التي تشكِّل ما يقرب النِّصفَ من العهد الجديد، ويتكون من ٢٧ سِفرًا.

النظرية النهائية "نظرية كل شيء": تسمَّى أيضا "النظرية الحُلم" وهي النظرية التي مِن المفروض أن تملأ الفراغاتِ في النظريات العلمية الخاصة بالعِلم النسبي وتعطي الإجابة على كل شيء في المستقبل.

الخلـوقيّ: شـخصٌ يعتقد بـأن الإنسـانوبقيةَ الكائنـاتِ خُلِقوا علـى مـا هُـم عليـه ويـرفض أي نـوعٍ مـن انـواع التطور، والخلوقيّ هو شخص مؤمن بوجود خالق.

التطوري: شخص يعتقد بأن الإنسانوبقيةَ الكائناتِ بصحة التطور، والتطوري قد يكون شخص مؤمن أو ملحد.

المغالطات:

لغرضِ تصحيح طُرُقِ التفكير وللابتعاد عن المغالطات التي تجعل أحكامنا غير منطقية ونقاشاتنا عقيمة نحاول أن نوضح بعض الفخاخ التي قد نقع فيها أثناء النقاش أو أثناء قرائتنا لنقاشات السابقين:

- **المغالَطة الأولى: طبقة النقاش**

مغالطةٌ كبيرة يقع فيها المؤمنون والمُلحِدون على حدٍ سواء في نقاشاتهم المختلفة، لتنفرض النقاش الآتي الذي يشترك فيه مسلمٌ ومسيحيٌ وملحدٌ ويهوديٌ، حيث يعترض الملحِد على فكرة قيام المسيح مِن بين الأموات باعتبار أن لا دليل عليه، فيجيبه المسيحي ولكن الله قادرٌ على كل شيء! فيعلِّق المسلِم بأن الله بالطبع قادرٌ على كل شيء ولكن المسيحَ لم يُقتَل وإنما شُبِّه القتل لأصحابه وقد رَفَعه الله إليه، يأتي اليهودي ليقول إن المسيح لم يأتِ لليوم ونحن بانتظاره.

وهكذا يعلق كل طرف على الحوار من وجهة نظره من دون مراعاة لطبقة النقاش، حيث إن الملحد يبحث عن أدلة مادية عن قيام المسيح ولكن المسيحي يعزوا سبب القيام للخالق وهي معجزة وبالتالي كان المفروض أن يتم النقاش في طبقة إثبات الخالق أو نفيه وليس في طبقة تأتي بعد إثبات الخالق أو نفيه وهي المعجزات، أما المسلم فإنه لم يتلفت إلى أن المسيحي لا يؤمن بقرآن المسلمين وإنما حاججه به وبهذا انتقل إلى طبقة متقدمة في الكلام مع المسيحي في حين كان المفروض أن يبدأ معه بطبقة هل القرآن كتاب الله أم لا؟؟ نفس الشيء مع اليهودي.

مثالٌ آخر، يقول محمد عمارة بأنه شرح لنوال السعداوي قضية تقبيل الحَجَر الأسود والتي اعترضتْ عليها وفق منهجٍ عقلي لا نقلي وبدون آياتٍ أو أحاديث، وكان الشرح كالآتي:

"هنالك أحكامٌ فقهية في الإسلام تستند إلى سببٍ أو عِلة معروفة مثل كثيرٍ من قضايا المعاملات، وهنالك أحكامٌ فقهية لا نعرف عِلَّتَها أن الله استأثرها لنفسه مثل سبب كون عددِ ركعات صلاة الظهر أربعًا لا ثلاثًا وقضية الحجر الأسود من النوع الثاني"، انتهى.

قد يعلِّق ملحِد بأن جواب محمد عمارة فيه مغالطة منطقية واضحة إذ قال إنه سيشرح الأمر عقليا وشرحه بالاستناد إلى النقل وضرَبَ مثلاً ولم يستدل عليه بشيء، في حين أن المغالطةَ الحقيقة هي أن الملحِدَ لم يلتفت إلى الأساس الذي اعتمده محمد عمارة واعتمده كأساس لفهم الحوار، وهو أن محمد عمارة لم يكن يناقشه هو كملحِد، وإنما يناقش نوال السعداوي التي لا تقول إنها ملحدة، ولكنها ثائرةٌ على الموروث، وبالتالي فهو عندما يناقشها بمقارنة ببعض الأحكام ببعضها الآخر لأنه يعتقد بأنها توافق على المبدأ بعكس الملحِد الذي يرفض المبدأَ من أساسِه، وبالتالي النقاش لا بُد أن يكون مختلفًا ولا يمكن للملحِد القفز في منتصف النقاش ليعترض على مفرداته من وجهة نظر إلحادية؛ لأننا ببساطة لا نستطيع أن نجزم بأن جواب محمد عمارة سيكون مماثلاً لو كان يناقش الملحِدَ وليس نوال السعداوي.

نفسُ المغالطةِ نجدها عندما نرى ملحِدًا ومسلِمًا يتناقشان في جزئيةٍ إيمانية مثل بعض المعجزات كتحوّل العصا إلى أفعى، فمِثل هذا النقاش يعتبر مغالطة من الأساس، لأن الأساس الذي يستند عليه كل طرفٍ

مختلِفٌ عن الآخر تمامًا والنقاش سيكون عقيمًا، فالنقاش لكي يعطي نتائج إيجابية يجب أن يكون بالتدريج ومِن الأعلى إلى الأسفل، فعندما يتكلم الملحد مع المؤمن فلا قيمة لنقاشهما حول المعجزات، وإنما يجب أن يبدأ النقاش حول وجود الخالق فإذا لم يتوصلا إلى نتيجة فكل ما هو دون الخالقِ كالنبوةِ والمَعاد والمعجزات لن يكون بالإمكان التوصل إلى نتيجةٍ فيه لاختلاف المباني الفكرية لدى كل طرف.

لذا عندما يتناقش الشيعيّ والسُّنّي لا يتناقشان حول المعجزات والخالق والنبوة وإنما فيما دون ذلك ولا يحق للملحِد أن يأتي ليقول إن هذا النقاش فيه مغالطة منطقية لأن الخالق أصلاً غير موجود لأنه ليس طرفًا بالحوار ولو كان طرفًا بالحوار لاختلف الحوار جملة وتفصيلاً.

هذه المغالطة وقَعَ فيها للأسف الأستاذ "سيد القمني" عند مناظرته لأحد الشيوخ في برنامج "أسرار مِن تحت الكوبري" على قناة "القاهرة والناس"، حيث انتقد التحالفَ المسيحي الإسلامي ضد الإلحاد وقال ما نصُّه "لو سأل القسيسُ الشيخَ هل المسيح إله؟ لقال "يا نهارأسود"، ولو سأل الشيخُ القسيسَ هل محمد رسول الله؟ لقال "يا دي المصيبة"، فتسأل سيد القمني هنا "إذًا لماذا اتفقتم على الإلحاد؟"

وهذا مثال واضح للمقصود بهذه المغالطة حيث لم يتلفت السيد القمني إلى طبقة الحوار التي هي حول الخالق، وبالتالي هي أعلى من تفاصيل الأديان وبالتالي اتفاقهم أمر طبيعي وإشكاله على هذا الاتفاق ناتج من عدم إدراكه لطبقة النقاش.

كنتيجةٍ يجب التنويه أنه عند ذِكر آياتٍ قرآنية في هذا الكتاب فإن المخاطَبَ بها ليس الملحِد فالحوارُ مع الملحِد لا يكون بذِكرِ آيات الله، وإنما بالحوار حول وجود الخالق من عدمه.

- **المغالَطة الثانية: الاختصاص**

عندما يتكلم شخصٌ غيرُ مختصٍ في نظريات الفيزياء والأحياء الحديثة التي يجدها في كُتُب العلماء الملحِدين المكتوبة خصيصًا لنشر الإلحاد وليس لتبْيان العلم بحد ذاته فإنه يقع في فخَّيْن:

الفخ الأول: فخ عدمِ إمكانية فهم أبعاد وحدود النظريات، فلا هو فيزيائي ولا أحيائي ولا هو يملك القدراتِ والمختبرات لاختبارها بنفسه، بالتالي سيسلِّم بها تسليمًا كاملاً بكل فروعها وإشكالياتها، وتتحول من احتمال كبير إلى حقيقة مطلقة بكل ما يضاف إليها من توابل.

الفخ الثاني والأخطر: نتيجةً للفخ الأول فهو سيقبَل هذه الكتبَ بشكل كامل بما فيها من دعوة للإلحاد كهدف رئيسي، فهذه الكتب في النهاية إلحادية وليست علمية فهي لا تكتفي بتبيان النظريات بشكل علمي، ولكنها تتضمن وجهة نظر الكاتب الدينية الإلحادية والتي تعمل عملَ طبيبِ التجميل وخبراءِ المكياج لإعطاء أبعادٍ إلحادية للنظريات العلمية، في حين أن العِلم كما هو معلوم "لا أدري" وسيبقى لا أدريًا عندما يتعلق الأمر بالغيبيات وأكثر من ذلك استخدام العلم كمبرر للإلحاد هو نوع من العلم الزائف.

وقد يعترض أحدهم على هذا الكلام بأن يقول "إننا نعرف فوائد الأسبرين أو غيره من الأدوية التي نستخدمها لصداع الرأس، بدون أية معرفة لرموزها الكيميائية أو طريقة صنعها، وأنت تستطيع أن تؤكد للناس فائدة الطائرات، بدون الحاجة لمعرفة تفاصيل قيادتها أو صناعتها، وكذلك نصدق بالعِلم والعلاج الطبي وكلام علماء الكون والفيزيائيين والكيميائيين، بدون أن نكون خبراءَ في أيٍ منها، لأننا نثق في العلم".

والاعتراض أعلاه لا ينتج عن شخصٍ فَهِم العِلمَ وطريقةَ عملِه فلا يوجد شيء اسمه أثِق في العِلم أو أؤمِن بالعِلم، فهذا الكلام العاطفي الشفّاف لا أصل علمي له، الإنسان العلمي يثق في الأدلة ويتبعها، وفي نفس الوقت يفهم محدوديةَ العِلم في الأمور الغيبية، وقِصَر أدواته، فنحن لا نثق في النظريات وإنما نقبَل بها على أنها الاحتمالُ الأقرب للحقيقة بناءً على الأدلة المتواجدة بين أيدينا، وفي نفس الوقت ندرك حجم الثغرات العلمية ونتفهمها، فنحن نفرق بين العِلم اليقيني وهو ما أشار إليه المعترِض أعلاه والعِلم النسبي "عِلم الثغرات" الذي يستغل لإثبات التوجهات الإلحادية ولن يقع الإنسان العلمي في فخ الكتب الإلحادية التي تتمسح بالعِلم النسبي.

- **المغالَطة الثالثة: العودة إلى المربع الأول**

عندما يفكر البعض في أمور الخلْق والكون فإنه يصل إلى نتائجَ معينةٍ، لنقُل مثلاً بضرورة وجود خالق، ولكن عندما يواجه سؤال ديني لا يمكنه الإجابه عليه يعود إلى المربع الأول في بحثِه وينكر وجود الخالق، وهذا خطأ كبيرٌ، فعدم القدرة على الإجابة عن سؤال معيّن لا تعني بأية حال من الأحوال العودةَ إلى المربع الأول وإنما تعني ببساطة عدمَ القدرة على الإجابة على هذا السؤال.

لتقريب الصورة نذكر المحادثةَ أدناه التي غالبًا ما تتكرر مع الكثير من الملحدين والمتشككين في موضوع الخالق، فهو مثلاً وبعد التفكير والتدقيق يتوصل إلى نتيجةٍ مفادُها أن الكونَ الواسع والقوانين الدقيقةَ الحاكمة، والحياةَ والإنسانوالظروفَ المحيطة به لا يمكن أن تأتي مِن اجتماع الملايين من الصُدَف السعيدة (صدفة الانفجار الكبير، صدفة القوانين الدقيقة الحاكمة، صدفة الخلية الأولى، صدفة الأجواء الملائمة، صدفة التطور، صدفة الإنسانالواعي المفكِّر) فاحتمالية أن تأتي كل هذه الأمور بالصدفة تقترب من الصفر، والقبول بهذه الاحتمالية نوعٌ من الانتحار العقلي.

وبالتالي يصل إلى أن هناك خالقًا ومبدِعًا للكون، ولكن يسأل نفسَه مثلاً ما الغاية مِن الخلق؟ وما الغاية من وجودنا في هذا الكون الفسيح؟ وعندما لا يجد جوابًا شافيًا ينسف كل الأسس المنطقية السابقة ويعودإلى المربع الأول! على الرغم من عدم وجود مبرر لربط السؤال بالأسس المنطقية التي قادته إلى الاعتراف بوجود خالق.

- **المغالَطة الرابعة: الحُكم على الفرد بجريرة المشهور!**

هذه المغالَطة غالبًا ما يقع فيها الطائفيون والمتعصبون، وكذلك مَن ابتُلِي بوهْم المعرفة، فمثلاً نجد الملحدَ وأثناء نقاشه مع المؤمِن يعتقد أن المؤمنَ وبمجرد إيمانه بالإسلام أو المسيحية فهو يعتقد بكل كبيرةٍ وصغيرة من المتعارَف عليه بين الناس حول ذلك الدين، بما في ذلك الكثير من الخرافات التي ملأت الكتبَ التراثية وكَتَبها أناسٌ لا معرفة لنا بهم عاشوا قبل مئات السنين نتيجةً لظروفهم الخاصة وثقافة عصرهم التي أنتجت فهْمَهم الخاصَ للنصوص.

وهذه مغالَطة كبرى لأن الصحيحَ أن تَحكم على الفرد واعتقاداته مِن خلال سؤاله وليس من خلال المشهور عن دينِه أو مذهبه.

- **المغالَطة الخامسة: اعتبار آراءِ السابقين حُجةً على الفهم الصحيح**

هذا أمرٌ يعاني منه الكثير ممن يحاول أن يناقش ملحدًا له دراية ببعض كُتُبِ التراث التفسيرية والحديثية و السيرة، حيث يُصر الملحد على صحة التفسير أو الحديث الذي ينقله مِن كُتُبِ التراث وأنه الحقيقة التي لا ريب فيها بالرغم من وجود تفاسير أخرى قد تعطينا وجهة نظر مغايره وعندما تعطيه تفسيرًا أو رأيًا مغايرًا لِما نَقله يرفضه بشدة ويصر على اعتماد التفسير أو الحديث أو الحادثة التي نقلها، هذا الإصرار بالطبع غير ناتجٍ عن اقتناعه بصحة ما ينقله وإنما ناتجٌ عن أن ما ينقله يلائم موقفَه المناهِضَ للدين وهوى نفسه.

وهذا يعني أننا انتقلنا من نقاش المنطق والعقل والحُجج إلى نقاش الهوى وما يلائمه، والنقاش ضمن هذه الظروف مضيعة للوقت، فلا يوجد مبرر يدفع أي إنسانلفرض أفكار الأقدمين على شخص له فيها وجهة نظر، وقد يكون من المفيد في مثل هذه النقاشات أمرانِ: الأول تخبِره بوضوح ومنذ البداية أنك لا ترى ما يراه ابنُ كثيرٍ مثلا في تفسير الآية الفُلانية، وأنك غير ملزَم أصلاً بتفسير فلان لأن تفسيرَه يعبِّر عن رأيه ومقدار اطلاعِه وثقافته الناتجة عن ظروف زمانه فلا هو معصومٌ من الخطأ ولا تفسيره، والأمر ينطبق على جميع كُتُبِ التراث بدون استثناء فهي تعبِّر عن آراء مَن كتَبَها وقد نتفق مع بعض الموجود فيها وقد نختلف مع البعض الآخر بمقدار ما يقترب التفسير من المنطق والقرآنِ نفسِه.

كما وأن على مَن يدَّعي أن تفسير فلان هو الصحيح ويجب أن نتبعَه (لغايةٍ في نفسه) أن يشرح ما هي الأسباب التي دعته لاعتماد تفسير المفسِّر الفلاني باعتباره التفسير الصحيح؟ فمجرد نقلِ الكلام لا يكفي وإنما يجب عليه أن يدافِع عن موقفه ولماذا اعتمد رأيَ فلان وترك بقية الأراء؟ القرآن الكريم بصورة عامة ينتقد الاتباعَ الأعمى للأقدمين، ويصر على أن الإنسانمسؤولٌ عن البحث والاطلاع وتقييم ما وجده جاهزًا بين يديه من التراث، التأكيدَ على الصحة المطلقة للآراء المتطرفة لبعض السابقين أمر أساسي لكل ملحِد أو متعصب ضد دينٍ مِن الأديان؛ لأنه يهوى تلك الآراء التي تصوِّر الأديانَ كما يريدها الملحد أو المتعصب مجرد كذبةٍ مليئة بالخرافات ما يجعل هذا الدينَ أو الفكر فريسةً سهلة للانتقاد.

أمّا آراء المعاصرين فيعتبرها خروجًا عن الدين ومحاولاتٍ تجميليةً لا قيمة لها لأنها تهز إلحادَه أو موقفَه وتُفقِده المادةَ الدسمة التي يمكن انتقادُها بسهولة، فهو يَكره الآراءَ الأكثر قربًا للمنطق التي لا تتناقض مع الدين لأنها تجبره على التفكير بعمق والبحث بعمق لإيجاد أمور تؤكد سلامةَ موقفه السلبي من الدين.

- **المغالَطة السادسة: العنوان والمضمون**

يجب تدقيق المضمون وعدم الاعتماد على العنوان في الحُكم على الأشياء، وهذه إحدى أهم طُرُقِ الاستغفال التي لاحظتُها، فمثلا يأتي أتْبَاع عالمِ دينٍ معيّن ليقولوا إن زعيمَنا وضَعَ الحلولَ الواقعية، ويكون هذا هو العنوان العريض ولكن عند النظر في التفاصيل نجد أن ما تفضَّل به الزعيمُ لم يكن أكثر مِن عباراتٍ رنانة وشعارات لا قيمة لها ولكن الكثيرون لا يكلفون أنفسهم عناء تدقيق وإنما يعتقدون بتطابق المضمون مع

العنوان، فمثلاً في نقاش مع أحد الملحدين المتحمسين قال لي إن العِلم أَثبتَ أن لا وجود للخالق ودليله على ذلك هو كتاب "الإله الفرضية الفاشلة"، وهو بالحقيقة لم يقرأ الكتاب وإنما أعتمد على عنوانه ظنًا منه أن المحتوى يطابق العنوان، وهذا ليس صحيح بالمرة كما سنناقش ذلك بالتفصيل لاحقًا.

لذا فإن قرأتَ في يومٍ من الأيام مقالةً للرد على هذا الكتاب أو غيرهِ فعليك أن تتدقق لتعرف هل هذا الردُّ كافٍ أم أن المقالةَ مجردُ عنوانٍ بلا مضمون؟

- **المغالَطة السابعة: اعتبار المؤمِن عالِمًا بكل شيء**

بعضُ الملحدين يحاولون بدْءَ نقاشٍ مع المؤمِن البسيط الذين يلتقون به في الأسواق والمقاهي وغيرها من الأماكن، حيث يعتبرون هذا المؤمن البسيطَ عالِمَ الزمانِ وفلتةَ الأكوان، فيبادِرون إلى سؤاله بمختلَف أنواع الأسئلة الفلسفية والعلمية والتشريعية والدينية وغيرها، والتي اطلعوا عليها مِن المواقع الداعية للإلحاد والتي تم نقلُها على الأغلب بشكل خاطئ! وعندما لا يجدون الجوابَ أو يخبِرهم المؤمن أنه لم يسمع بهذه الجزئية، أو يخبرهم برأيٍ غيرِ دقيق يمثل ثقافةَ الشارع لا رأيَ الدين، يبادِر الملحدون إلى إعلان انتصارِهم باعتبارهم الأكثر اطلاعًا على دين المؤمن من المؤمن نفسِه، أو باعتبار أن رأيَهم السلبي في الدين صحيح، وكيف لا وقد أيَّدَه عالِم الزمان وفلتة الكوان؟!

وهنا يجب أن ندرك أن الناسَ في غالبيتهم يعرفون عن دينهم ما يحتاجونه من ممارساتٍ يومية لا أكثر، فلا وقت لدى الكثيرين للاطلاع، وهذا أمرٌ طبيعي ولابأس به، ولذا جاء الأمر الإلهي بان تتفقَّهَ طائفةٌ مِن الناس في الدين، وحتى هذه الطائفة المتفقهة ليست على نفس المستوى من الذكاء والاطلاع والتبَّحُر في الآراء المختلفة، ففوق كل ذي عِلمٍ عليم، والخلاصةُ أن هذا النوع من النقاشات يفتقِر إلى الأسس اللازمة لها.

- **المغالَطة الثامنة: المُدخَلات المقبولة شرطٌ لنتائجَ مقبولة**

لا يمكن أن تتوقع جوابًا منطقيًا مقنِعًا عن سؤالٍ افتراضي غير صحيح، مثلاً عندما يعرّف "ريتشارد داوكنز" الإلهَ في كتابه "وهْم الإله" بأنه 'كلمة تدل على خالقٍ مِن عالَم وراء الطبيعة، وشيء جدير بأن نتوجه إليه بالعبادة"، فإذا التزمنا بحدود هذا التعريف الذي وضعه داوكنز أصبح سؤال هل يمكن أن يخلق الخالقُ صخرةً أكبرَ منه حجمًا؟ سؤالاً غبيًا ولا قيمة له؛ لأن الصخرةَ تنتمي إلى العالم المادي، والخالق حسب التعريف ينتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة غير المحدود، وبالتالي فإن القضية ليست قدرةَ الخالق وإنما عدم إمكانية الفعل نفسه لاختلاف طبيعة الأمرين وبالتالي تعريف داوكنز للخالق يتعارض مع الكثير من إشكالاته حول الخالق.

- **المغالَطة التاسعة: تَطابُق المودّة**

وهذه نجدها عند التَطابُقِ في وجهة نظرٍ خاطئة لأمر معين بين طرفين متناقضين لا يجمعهما جامع، مثلاً التطابق في وجهات النظر بين الملحدين والفكر التكفيري المتمثل بداعش والقاعدة؛ حيث اتفق الطرفان على أن الفكر التكفيري هو الممثل الحقيقي للإسلام، أو التطابق الذي أبداه ريتشارد داوكنز وستينجر كما سيأتي ذِكره لاحقًا مع الخلوقيين في رفضهم لمبدأ الاختصاصات غير المتداخلة على اعتبار أنه الموقف الصحيح وكل ما عداه نفاق وكذب.

وهذا التطابق هو تطابق مودَّةٍ ومَصالح لأنه يخدم مصلحة كلا الطرفين، فتأكيدُ الملحدين العرب على أن فهْمَ التكفيريين هو الفهم الصحيح للإسلام هدفه ضرب الإسلام، وتأكيد ريتشارد داوكنز موافقتهَ الخلوقيين على رفضهم مبدأ الاختصاصات غير المتداخلة هدفه ضرب الدين من جذوره، فهذا التطابق ليس تطابقًا فكريًا وإنما هو تطابقٌ بهدف اثبات وجهة نظر الشخص ولو جدليًا.

- **المغالطة العاشرة:الكلام بنكهةٍ علمية:**

الملحِدون الكبار هُم بشكل أو بآخر مقدسون لدى الملحدين؛ لذا يدافع عنهم الملحدون ويبرون أفعالهم بشكل يذكّرنا بموقف الشيوعيين من سِتالين وحتى المسلمين مِن بعض الشخصيات، ولكن الدفاع عن الملحدين الكبار لا يتم عن طريق تقديسهم، ولكن عن طريق إضفاء نكهة علمية لِما يقولونه بمناسبة وغير مناسبة، وبالتالي كل مَن يقف ضدهم وضد أفكارهم هو متخلّف ضد العِلم والتطور، على سبيل المثال أثير موضوعٌ للجدال حول كلام أحد العلماء الملحدين من قوانين الطبيعة مصدرُها الإنسانوليس أمرًا نشأ مع الكون، وهو كلام غير علمي بالمرة رفضه إجماع العلماء الفيزيائيين وسنناقشه بالتفصيل لاحقًا، ولكن المهم في الموضوع أن الملحدين تباروا للدفاع عن هذه المقولة باعتبارها ضمن المنهج العلمي وأطَّروها بأنها فرضية! وأدلَجوها ضمن كلماتٍ مبهرجة وتناسوا أنهم بنقاشهم هذا خالفوا إجماعَ الفيزيائيين وجعلوا من القوانين الطبيعة الحاكمة مجردَ سياقاتٍ وضعها الإنسانفي حين الواقع يؤكد أنها سياقاتٌ يكتشفها الإنسانويحاول اكتشافَ ما لم يُكتشَفه منها.

الملاحظ أن دفاعهم كان عن طريق إضفاء صبغةٍ علمية وليس باستخدام وسائلَ علميةٍ وهو منهج خطير نلاحظه كثيرًا في نقاشات أتباع الإلحاد الجديد، مثال آخر يذكره "آنتوني فلو" في كتابه "هناك إله" حيث يقول إنه عندما أعلن إيمانه بوجود خالق عام ٢٠٠٤ بعد سنين طويلةٍ من إلحاده حيث بيَّن أنه لا يعتقد بأن أصل الحياة قد بدأ بالمادة وحسبْ، اعترَضَ عليه الكثيرون واتهموه بأنه لم يواكِب آخر التطورات العلمية في هذا المجال ولم يقرأ المجلاتِ العلمية التي تكلمت عن إمكانية تولّد الحياة من موادَّ غيرِ حية، يعلِّق "انتوني فلو" على هذه الاعتراضات بقوله إنهم لم ينتبهوا لمغزى كلامي حيث لم يكن مغزى كلامي هذه النظرية أو تلك النظرية، ولكن كان المغزى الأساسي هو التساؤل ما معنى أن يكون الشيء حيًا؟ وما علاقة الحياة بجسم قائم على التفاعلات الكيميائية والجينات، أنا أنظر للموضوع ككُل وليس كتفاصيل. حيث نلاحظ أن الإجابة على فكرته كانت بعيدة كل البعد عن المغزى بالبرغم من النكهة العلمية التي احتوتها.

يجب أن يكون الجدال من جنس الأمر الذي يتم الجدال حوله بعيدًا عن التفرعات والاستخدام الفج لبعض الأمثلة العلمية، عندما نتكلم عن الخالق فنحن نتكلم بشيء أكبر بكثير من تفصيلةٍ هنا أو تفصيلةٍ هناك.

الفصل الثاني
نظريات

قبْلَ الدخولِ في مناقشة بعض النظرياتِ ذاتِ العلاقة بموضوع الكتاب يجب التأكيد على أن عرضَها ليس بهدفٍ علمي وإنما مناقشة النظرية فيما يتعلق بموضوع الإلحاد والخالِق وليس مِن منظورها العلمي البحت، ومعظم ما سيتم طرحُه من أفكار حول النظريات سيرفضه الملحدون بدون تقديم سببٍ مقنِع وذلك لأنه وللأسف الكثير منهم تابعٌ ويكرر ما يقرأ في كُتُب الملحدين، فكل معلومةٍ غيرُ مكتوبة في هذه الكتب لن يعتبرها ذا قيمةٍ لأنه لم يفهم الأصلَ العلمي للموضوع .

نظرية التطور:

نظريةٌ علمية محترَمة تصل إلى مرحلة الجزم بالصحة طبقا للأحفوريات المكتشَفة وعِلم الوراثة وعِلم الأحياء، حيث تقترح هذه النظريةُ أن الكائناتِ الحيةَ تطورت عبر الزمن نتيجةً لأمريْن هُما الانتخاب الطبيعي، والطفرات الوراثية، وحتى نفهم النظريةَ وأبعادَها لا بُد من فهم هذيْن الأمريْن:

الانتخاب (الانتقاء) الطبيعي: عبَّرَ عنه ريتشارد داوكنز في كتابه "صانع الساعات الأعمي" الذي ألَّفَه عام ١٩٨٦ بأنه (عمليات عمياء، غير واعية، وأتوماتيكية اكتُشِفتْ من قِبَل داروين، ونحن ندرك اليومَ أنها التفسير للوجود الهادف ظاهريًا لكل أنواع الحياة، الانتخابُ الطبيعي لا هدف له فهو لا يملك عقلاً ولا عينًا، ولا يخطط للمستقبل، فهو لا يملك رؤية أو مؤشراتٍ أو محددات، وإذا رغِبنا في تشبيه دورِه بدور صانع الساعة فهو صانع ساعةٍ أعمى.

يُستفَاد من تعريف ريتشارد داوكنز أمران مهمّان هُمَا أن داروين لم يأتِ بنظرية التطور كما هو مشهور، وإنما النظرية كانت موجودةً وملاحَظةً قبْلَ داروين، وإنما ما ابتدعه داروين كان آلية التطور أو لنقُل عمودها الفقري وهو الانتخاب الطبيعي والذي حوَّل النظريةَ من نظريةٍ علمية كبقية النظريات الموجودة في الساحة إلى نظريةٍ مشهورة لأنها أصبحت جزءً من النقاش حول وجود الخالق من عدمه، ولهذا السبب بالذات أنا أُدرِجُها ضمن كتابٍ يتحدث عن الإلحاد.

الأمر الآخر أن الانتخابَ الطبيعي أعمى بلا خطةٍ وبلا هدف، ولكن الملحدين يصرون على أنها عملية علمية غير عشوائية، يعني ليست صدفةً على الرغم من أنها بلا هدفٍ وعمياء، ولتوضيح عدم وجود صدفة في الموضوع بيَّنَ ريتشارد داوكنز أنها عملية انتقائية تراكمية، بمعنى أنه عندما يتم انتقاءُ صفةٍ معينة مِن قِبَل الطبيعة نتيجة لتلائمِ الصفة مع الطبيعة فإن هذه الصفةَ تبقى، وبالتالي لا عودة إلى نقطة البداية وإنما يتم البناء على النتيجة الحالية، بناء على ذلك يتم استنتاج أن ما وصل إليه جسم الإنسانليس عشوائيًا ولا صدفة، وإنما نتيجة عمليات استغرقت ملايين السنين يعتمد أحدُها على الآخر.

وطبعا هذا الكلام الإنشائي الجميل لا يُخرِج العمليةَ برمَّتِها من دائرة الصدفة ولو اعترض الملحدون، كما فعل البغدادي مترجِم "وهْم الإله" في أحد اليوتيوبات بكلامٍ إنشائي شعائري ليقول إن الصدفةَ لا تنتِج شيئًا جميلاً وإن التطورَ ليس صدفة، وفي الحقيقة هو صدفةٌ بحتة فالأجواء والبيئة والظروف على الأرض التي تنتقي وتنتخب الصفةَ الملائمة جاءت بالصدفة، وحتى الصفة الملائمة جاءت بالصدفة، فلا ملحد يقول إن الأجواءَ والبيئة والظروف على الأرض جاءت نتيجة مخططٍ وبالتالي هي صدفة، وخصوصًا إذا عَرَفنا أن بعض الكائنات اندثرت بسبب الظروف الجوية الطارئة القاسية، على الرغم من أنها تملك الصفاتِ الأصلحَ والأقوى حتى قيل البقاء للأوفر حظًا وليس للأصلح.

والانتخاب الطبيعي في حد ذاته صدفة فلم يوجِده خالقٌ أو مصمِّم، اعتماد كل مرحلة من مراحل الانتخاب على المرحلة التي تسبقها لا يجعله خارجَ نطاق الصدفة أبدًا فهو وُجِد بالصدفة وتحيط به ظروفٌ وجِدت بالصدفة والصفة القادمة التي ستبنى على الصفات الأتية ستكون بالصدفة أيضًا، ولا بد من إشارةٍ إلى نقطة مهمة لم يذكرها أحد لليوم حسبما أعتقد، وهو أن هناك علاقة متبادلة بين الانتخاب الطبيعي والبيئة المحيطة بمعنى أن البيئةَ تحدد الصفةَ الأقوى والأصلح، والانتخاب الطبيعي يطوِّر الصفاتِ بناءً على متطلبات البيئة، فنتيجة لذلك يمكن القول إن الانتخابَ الأعمى أنتجَ ما يتوافق مع البيئة وليس بسبب أن البيئة ملائمة، وهذه نقطةٌ مهمة جدًا تجعلنا نتساءل إنْ كان الانتخابُ العشوائي الأعمى التراكمي حقيقةً فلماذا لم يعمل في المريخ مثلا؟

الطفرات الوراثية: عبارةٌ عن خللٍ في ترتيب أو تسلسل الشفرة الوراثية التي هي عبارة عن صفٍ طويل من الأحماض النووية، والطفرةُ صدفةٌ مئة بالمئة كما عبَّر ريتشارد داوكنز في كتاب "صانع الساعات الأعمى" الفصل الثاني بقوله "إن الطفراتِ عشوائية، بعكس الانتخاب الطبيعي"، هناك كلامٌ كثير حول إمكانية أن تؤدي الطفراتُ الوراثيةُ إلى بزوغ صفات إيجابية وخصوصًا أن المشاهَد والملاحظ من الطفرات أن أغلبها يؤدي إلى نتائجَ كارثية.

الخطأ الكبير الذي يقع فيه الكثير مِن الذين يناقشون نظريةَ التطور هو أنهم يناقشون التطورَ ذاتَه وهل حدثَ أو لم يحدث، في حقيقة الأمر فإن الأحفورياتِ (الهياكل العظمية) المكتَشَفة تدل على حدوث تغييرٍ في الكائنات الحية وأشكالها عبْرَ الزمن، وهذا لايمكن إنكارُه بأي شكلٍ من الأشكال، والتطورُ في حد ذاتِه لا يعارض الإيمان بوجود خالق، فالأمر الإلهي في القرآن يؤكد على السير في الأرض ومعرفةِ كيف بدأ الخلق، وبالتالي ليس هناك جزمٌ في موضوع الخلق هذا لنقول إن التطور يعارض القرآن، بالعكس القرآن يؤكد أن الله يزيد في الخلقِ ما يشاء ويؤكد أن البشرية ازدادت بسْطة في الجسم بعد قوم نوح، وهكذا فالأمر في الحقيقة مفتوحٌ والعِلم والدين نسبي في هذه الجزئية.

لذا عند نقاش التطور ونتيجة لتحوله إلى موضوع خاص بالإلحاد والإيمان أكثر منه موضوع علمي، يجب أن نناقش ما يمسّ الإلحاد والإيمان وهما الصُّدْفَتانِ اللتانِ تمثلان جناحَيْ التطور المؤدي إلى الإلحاد وهُمَا الطفرات الوراثية والانتخاب الطبيعي وليس التطور بحد ذاته، هذان العاملانِ في نظر الملحدين هما السببَ الرئيسي في انتقال الديناصور ليصبح طيرًا مثلاً، أو انحدار الإنسانوالشمبانزي من القِردة الأُم ،والقِردة

الأُم مِن كائنٍ لا نعرفه علمًا أنه لا يوجد لدينا أيُّ تصورٍأو دليل حسي تجريبي عن كيفية حدوث هذا الانتقال ولا عن الفترة الزمنية التي استغرقها.

والتعليلُ هو أن الانتخاب الطبيعي يستغرق ملايين السنين لينتج نوعًا جديدًا، كنتيجة لكل ما سبق فإن الانتخاب الطبيعي يحل محل الخالق في نظر الملحد، فهو المسؤول عن تطور الأنواع وظهور الإنسانبريقه الحالي ومن حق المؤمن أن يعترض ويقول إن كان الأمر انتخابًا عشوائيًا بلا مصمم ولا خالق فما هو السبب في بروز نوعٍ راقٍ أوحد وهو الإنسان؟ وبالتأكيد لا جواب على ذلك.

الانتخاب الطبيعي هو الميكانيكية الوحيد التي يمكن للعلم أن يقبل بها لتفسير الحياة فبالرغم من احتماليته المعدومه إلا أنه لاقى أكثر من قبولٍ من القوم بوجود قوة ذكية مصصمة في ميزان المنهج العلمي، وبالتالي ليس أمام العلم إلا أن يتقبل فرضية الانتخاب الطبيعي مجبَرًا لا مُخيرًا؛ لأن العِلم مقيَّدٌ بالأدلة الطبيعة التي لا تعتمد على تفاسيرٍلا يمكن لنا مشاهدتها، أليس كذلك؟ ولكن من شاهد الانتخاب الطبيعي؟ من شاهد انتقال نوع إلى نوع آخر بالانتخاب الطبيعي وليس بالصناعي كما في بعض التجارب؟

الجواب لا يوجد ولكن يبقى التعليل عن طريق الانتخاب الطبيعي بمجمله الأقرب للمنهج العلمي بكثير من القول بالتصميم والخالق، بالنتيجة أصبح وجود الإنسانفي ضوء العلم ما هو إلا صدفة، لأنه إذا تم استبعادُ الصدفة ولو للحظه، فسيتم القبولُ بوجود مصممٍ لا وجود له في العالَم المادي الذي يتخذه العِلم مسرحًا له.

الانتخاب الطبيعي والطفرات الوراثية غير مقنِعَيْنِ بالمرة لتطور الحياة على الأرض، ولكن العِلم مضطر لقبولهما لحين إيجاد أو اكتشاف نظرية "كل شيء"، وهكذا تحوَّل العِلُم مِن تجربةٍ وملاحَظةٍ وتدقيق إلى صدفةٍ ورجْمٍ بالغيب في انتظار نظرية "كل شيء". وقدْ يَظن الملحد أن عدم الاقتناع بهذيْن الجناحيْن ناتجٌ عن انحيازي لفكرة وجود الخالق، ولكنني ببساطة أُحيله إلى بيان الـ ٤٠٠ عالِم الذين أبدوا صعوبةَ اقتناعِهم بإمكانية الانتخاب الطبيعي على إنتاج الحياة المتطورة التي نراها، وطالبوا بالمزيد من البحث والتدقيق، هؤلاءِ العلماءُ الذين يحملون على الأقل شهادةَ الدكتوراه في اختصاصات بيولوجية أو كيميائية أو فيزيائية أو رياضية أو هندسية أو غيرها من العلوم الطبيعة كتبوا ما نصُّه:

"نحن نشكك في قدرة الطفرات الوراثية العشوائية والانتخاب الطبيعي على إنتاج التعقيد الحياتي الموجود، ونشجع على المباشرة بفحص دقيق لأدلة الداروينية".

ويمكنك الاطلاع على نسخةٍ محدثة من البيان باللغة الإنكليزية مع أسماءِ العلماء واختصاصاتهم في نهاية الكتاب، عِلمًا بأن عدد العلماء الموقِّعين في زيادة مستمرة، وقد نوقِشَ هذا البيانُ في كتاب "الإله الفرضية الفاشلة" الذي سنناقشه لاحقًا. ولكن كما هو واضح فإن هؤلاء العلماءَ يشككون وبشكلٍ واضح في قدرة جناحَيْ التطور على إنتاج التعقيد الحياتي الذي نراه مِن حولنا، وهذا أمرٌ طبيعي وفطري والقولُ بخلافه مجرد تبجُّحٍ فارغٍ لا قيمة علمية له.

تجربة البِكتريا التطورية:

مِن الجيد أن نذكر إحدى أهم التجارب التي غالبًا ما يؤكد عليها الملحدون في نقاشاتهم عن صحة الانتخاب الطبيعي والطفرات الوراثية في إنتاج الحياة، ودليلهم على ذلك هذه التجربة، هذه التجربة تمت بنوع من أنواع بِكتيريا القولون وهي مستمرة منذ الشهر الثاني من عام ١٩٨٨ وإلى اليوم في جامعة ميتشيغان الأمريكية، يتم الاختبار عن طريق وضع أجيالٍ مِن هذه البِكتريا ضمن ظروفٍ مختلفة، وبالتالي ونتيجةً لتكاثرها السريع تَحدث تغييرات مختلفة نتيجةً لاختلاف الظروف، وهذا دليلٌ على صحة الانتخاب الطبيعي، كذلك عندما تم إحداثُ بعضِ الطفرات الوراثية الصناعية لوحِظَ أنها تؤدي إلى تغييرات مختلفة وهذا دليلٌ على صحة الطفرات الوراثية في إنتاج أجيالٍ مختلفة، على العموم هناك الكثير من الانتقادات وخصوصا أن بعض الطفرات أفرزتْ تشوهاتٍ ويمكن للباحث التوسع.

وإن مقارنة بكتيريا يتم التلاعب بها مختبريا تحت تأثير ومتابعة العنصر الواعي الفعال (الإنسان) بالحياة على الأرض ومحاولة جعل التعقيد الكبير والدقيق الموجود في الإنسانمثلا مشابها لِما يحدث لبكتريا بسيطة أمرٌ لا يمكن حملُه محملَ الجِد، وخصوصًا أن البِكتريا لم تتحول إلى نوعٍ جديد وإنما مجرد تغييرات طفيفة كتحول لون بشرة الإنساننتيجةً لتعرضه للشمس، ولا ننسى دورَ العنصرِ الواعي الفعال في توجيه التجربة، وهنا يمكننا التساؤل إن كانت تجربة البكتريا البسيطة احتاجت إلى العنصر الواعي الفعال فلماذا ننكر وجودَه في الحياة المعقدة والمقصود به المصمِّم الخالق ونفترض أن كل ما حدث كان صدفة؟

راسلتُ المُشرِفَ على التجربة "ريتشارد لينسكي" وكان بيننا الحوارُ التالي:

السؤال الأول: هل تثبِت التجربةُ التي قمتَ بها أن التطورَ حقيقة؟

الجواب: لقد رأينا التطورَ يَحدث في هذه التجربة، لذلك نعم، التجربةُ تثبِت أن التطور من الممكن أن يحدثَ وقد حدَث فعلاً (بالإضافة إلى هذه التجربة هناك تجارب أخرى ومشاهدات تؤكد على التطور)

السؤال الثاني: هل تثبت هذه التجربة أن الحياة تطورت من خليةٍ أولية واحدة؟

الجواب: كلا، التجربة لاتتناول التطور التاريخي، إنها بخصوص مراحل التطور الآنية التي يمكن مشاهدتُها، فالتطور التاريخي يمكن الاطلاع على أدلتِه من خلال الأحفوريات والدراسات المقارنة التي تدل على أن الأحياء البسيطةَ وجِدتْ قبل الأحياء الأكثر تعقيدًا.

السؤال الثالث: هل تقودُنا هذه التجربة إلى الاعتقاد بعالَمٍ بدون خالِق؟

الجواب: العِلم يوفر أدلةً حول العالَم الطبيعي وأدواته، إن الأمر عائدٌ لك ولنظرتك الشخصية للأمور، بما في ذلك الخالق، حيث إنك يمكن أن تقيِّم الأدلةَ العلمية والإيمانية-"انتهى الحوار"-

وكمُحصلةٍ نهائية لموضوع التطور فإن المؤمنَ ليس مِن المفروض أن تكون له أيةُ مشكلةٍ مع التطور، ولكن لدينا مشكلة مع الصدفة التي تم اقتراحُها كآليةٍ لعمل التطور، والاعتقاد بوجود خالق مصمِّم لا يعني بأيةِ حالٍ من الأحوال أن يكون الخلْق جاء في مرحلة واحدة، فالقرآن مثلا يثبت اصطفاءَ سيدِنا آدمَ فمِن بين مَن تم اصطفاؤه؟ وكذا القرآن نفسه يثبت المراحلَ المختلفةَ للخلق ولكن بدون تفصيل وإنما أَمَرنا بالسير في

الأرض والنظر كيف بدأ الخلق، وبالتالي فالباب مفتوح على مصراعيه أمام المسلِم للبحث والتدقيق والاطلاع على عمليات بدءِ الخلق.

الانفجار الكبير

نظريةٌ علمية محترَمة بُنيتْ على أساس بسيطٍ جدًا وهو أن السيد "أدوين هوبل" اكتشَفَ في في الثلاثينيات أو العشرينات من القرن الماضي أن الكون يتوسع، بما معناه أن المسافةَ بين جسميْن في الكون اليومَ هي أكبرُ مِن المسافة قبْلَ يوميْن، وقبْلَ يوميْن كانت أكبرَ منها قبل أسبوعيْن وهكذا، وبالتالي إذا أمكننا معرفة السرعة التي يتوسع بها الكون ومعرفة أبعد نقطة في الكون – وبما أن السرعة هي المسافة على الزمن– فسنتمكنُ وببساطةٍ من معرفة الزمن الذي كان فيه الكونُ كل الكون في نقطة واحدة. انتهى الموضوع وأتمنى أن تكون قد فهمتَ "الانفجار الكبير" بهذه الأسطُر، فنحن لم نرجع إلى ١٤ مليار سنة لنكتشف كيف حدث الانفجار ولا سبيل للتأكد من حدوثِه أصلاً.

ولمزيدٍ من التفصيل لا بُد من الإشارة إلى أن السيد أدوين هوبل أتى وطبقا لمشاهداته بقانون لقياس السرعة، وهذا القانون يعتمد على المسافة، حيث كلما زادت المسافة زادت السرعة، والسرعة تكون حاصلَ ضربِ المسافة في "ثابت هوبل" الذي اختلفت قيمتُه اليوم كثيرا عن قيمتِه أيام هوبل لوجود خطأ في حساباتِه، المهم أصبح لدينا معادلة فيها عنصرين هما السرعة والمسافة.

إذن إذا تمكنا بطريقة أو بأخرى من معرفة أبعاد الكون المنظور وهذا ما حصل (وقد تتغير مسافة الكون المنظور في أي لحظة) سنتمكن من الحصول على السرعة وبما أن السرعة هي المسافة على الزمن فأصبح الحصول على الزمن أمرًا من أبسط ما يكون، وبهذه البساطة حصلنا على عمر الكون الذي هو تقريبا ١٤ بليون سنة، طبعًا هناك بعض الفرضيات التي لا يمكن التأكد من صحتها بالمطلق والتي قد تغيّر مفاهيمَنا في أي لحظة مثل أبعد نقطة مشاهَدة في الكون المنظور والتي تم اعتمادُها في حساب عمر الكون بناء على قوة التليسكوبات والتي قد تتغير بزيادة قوة التلسكوبات .. وهكذا.

خلالَ القرنِ الماضي حدث تغييرٌ كبير جدًا في نظرتنا للكون، وهذا يثبت بطلانَ قولِ بعض الملحدين أن النظرياتِ تتطور ولا تتغير عندما يتم انتقادهم لبنائهم الكثير من الحقائق على فرضيات قد تتغير في أي نقطة، الواقع يثبت العكس، وإن النظرياتِ والأفكارَ العلميةَ التي يعتنقها العِلم لفترة من الفترات قد تصبح أُكذوبةً ومادةً للمزاح والضحك للفترة التي تليها، فمثلا في عام ١٩٢٥ كان السائدُ بين العلماء أن الكون يتكون من مجرةٍ واحدة فقط موجودةٍ منذ الأزل وباقية إلى الأزل، أمّا اليوم فيعتقد العِلم في وجود عددٍ كبير جدًا من المجرات وأن هذا العدد الكبير بدأ بالانفجار الكبير، أي له بداية محددة ومجرتُنا والكونسيؤولانِ إلى النهاية في يوم من الأيام، نلاحظ اختلافًا كبيرًا جدًا لنظرة العلم حول الموضوع، ولكن نظرية الانفجار الكبير وضعت الملحدين في مشكلة وجود بداية، وهذه البداية كما هو حال التطور هل هي صدفة أم هناك مصمِّم؟ وماهو السبب؟

بالنتيجة العِلم يقودنا إلى خيارٍ من اثنيْن إمّا الصدفة وإمّا المصمِّم، وهنا تبقى القضيةُ وجهةَ نظرِ الشخص نفسِه ضمن المنهج العقلي لا المنهج الحسي، طبعًا للهروب من هذه المشكلة اليوم لدينا نظريةٌ جديدة وهي نظرية الأكوان المتعددة التي تقترح أن كوننا الحالي قد أتى مِن كونٍ آخرَ وهكذا فلم يكن هناك كونٌ مِن لا شيء وإنما مِن كونٍ آخر، هذه النظرياتُ بُنيتْ على أمورٍ رياضية بحتة ولم تُبْنَ على تجاربَ مختبريةٍ أو مشاهدات وبالتالي لا يمكننا فعلاً التأكد من وجود أكوانٍ متعددة.

قابلت مؤلِّف كتاب "كَون مِن لا شيء" العالِم الفيزيائي المتواضع الكبير لورانس كراوس في إحدى المؤتمرات الإلحادية في أمريكا وحدثتْ بيننا المراسلة الآتية:

السؤال الأول: نحن لا نستطيع اختبارَ النظريات في المختبرات ولا مشاهدتَها في الطبيعة، ولكنها في نفس الوقت لا تخالف قوانين الفيزياء ولأجل ذلك نعتبرها حقيقة. هل هذا صحيح؟

الجواب: النظرياتُ ليست حقيقةً، ببساطةٍ هي ليست خطأ ولكنها إن توافقت مع المشاهدات فيمكننا أن نعتبرها جزءً من الحقيقة، ولكنها ليست حقيقةً مطلَقة .

السؤال الثاني: هل يمكن أن نقول إن الكون وقوانين الطبيعة الحاكمة كلاهما نشآ معا بالصدفة؟

الجواب: إنها تبدو كذلك بالتأكيد.

السؤال الثالث: أعتقد أن هناك طريقيْن لتفسير نشأة الكون والقوانين الطبيعية الحاكمة وهُمَا الصدفة أو الخالق، هل هذا صحيح؟

الجواب: بالطبع، الشخص لن يستطيع أن يعرف حتى يجرِّب ويحصل على نظرية جيدة، من المحتمَل أن قوانين الطبيعة تتطلب كونًا مشابهًا لكوننا.

السؤال الرابع: عندما يتكلم العالِم عن الإله فإنه يتكلم عن نظرته الشخصيه للإله، وعندما يتكلم العالِم عن دينٍ معيّن فإنه يتكلم عن مشاهداتِه والثقافة الدينية المتبعة في محيطه، وعندما يتكلم العالِم عن اختصاصه العلمي فإنه يتكلم عن حقائقَ، هل هذا صحيح؟

الجواب: أنا لا أستطيع أن أقول ماذا يقصد العلماءُ الآخرون عندما يتكلمون عن الخالق أو عن دينٍ معيّن، عندما يتكلم العلماءُ عن أمورٍ خارج اختصاصهم العلمي فإنهم يتكلمون مِن نفس المنطلَق الذي يتكلم به بقية الناس عن هذه الأمور، بدون أية إضافاتٍ خاصةٍ بسبب طبيعتهم، العلماءُ لهم خبرةٌ في مجال العالَم الطبيعي ضمن اختصاصهم، هذا كل ما هنالك.

السؤال الخامس: العِلم يجيب عن سؤال "كيف"، والدينُ يدعي أنه يجيب عن سؤال "لماذا، هل هذا يجعل العِلمَ اختصاصاتٍ غيرَ مداخلة؟ طبيعة أن العِلم دحضَ بعض الخرافات الثقافية أو الدينية، ولكن أنا هنا أتكلم عن فكرة الخالق بالتحديد.

الجواب: الدين لا يجيب عن سؤال "لماذا، الدين وفَّرَ الإجابةَ قبل حتى أن يتم التساؤل.

السؤال السادس: الدين في عيون الأوروبين يختلف عن الدين في عيون الأمريكان بسبب دور الدين في أوروبا المختلف عن دوره في أمريكا، لذلك معظم العلماء الملاحدة من أوروبا. ماذا تعتقد؟

الجواب: بالتأكيد أوروبا أكثر ابتعادًا عن الدين في الوقت الحالي، ولكنَّ اللاجئين المسلمين يغيرون ذلك.

السؤال السابع: كل شيء في حياتنا مَبنيٌّ على السبب والمسبِّب، لماذا عندما نصل إلى الكون وقوانين الطبيعية نرتضي بأنها مجرد صدفة وأن لا سبب وراءها؟ هل هذا يجعل الملحدين مجرد مؤمنين بعدم وجود خالق بسبب رفضهم للسببية في هذا الموضوع؟

الجواب: الادعاءُ بأن السببية والتفكيرَ المنطقي والمشاهده تمكننا من فهْمِ العالَم ليس مثل الادعاء بأن هناك هدف أو غاية للكون.

السؤال الثامن: الفرضيات تعطينا تصوراتٍ مبنيةً على فهمنا الحالي وأدواتنا الحالية واكتشافاتنا الحالية، بمعنى أننا لا نستطيع القولَ إن هذا تمامًا هو ما حدث لأننا لا نستطيع أن نقول بنفس التجربة في المختبر، يعني إنه السيناريو الأفضل وليس ما حدث فعلاً، هل هذا صحيح؟

الجواب: هذا صحيح في كل العلوم، حتى في العلوم المختبرية، نحن نختبر تفسيراتِنا لأحداثٍ سابقة عن طريق عمل تصورات (تنبؤات) لأحداثٍ مستقبَلية، حيث نتنبأ بالنتائج لأحداث لم تحدثْ كاختبارٍ لهذه الفرضيات، وبناءً على ذلك تعتبر نظرية الانفجار الكبير من أفضل النظريات المختبرَة في الفيزياء... انتهى

تعقيب: بعض الأجوبة لا علاقة لها بالسؤال، ولكن للأمانة لا بُد مِن ذِكرِها كما هي.

العِلم والدين

نظريةُ الانفجارالكبير والتطور لا يتعارضان مع فكرة وجود الخالق، نعم العِلم يتعارض وبشكلٍ حازم مع بعض الخرافات التي لحقت بالدين، مثلاً في العهد القديم يمكن استخراج أن عمر الأرض صغيرٌ جدًا لا يتناسب والمكتشفاتِ العلميةَ، ونعم يتعارض العِلمُ مع الكثير من التفسيرات السخيفة للقرآن الكريم، مثلاً اعتبار الستة أيام التي أنشأ اللهُ فيها الكونَ هي ستةُ أيامٍ مِن أيامنا في حين أن القرآن يعطي مقياسًا مختلفًا لليوم الإلهي عن اليوم الإنساني، وبالتالي فاليوم يُقصَد به حقبةَ الزمنية، العِلم يشذِّب فهْمَنا لآيات الله المُحكَمَات ويوضح الأخطاءَ التي وقع فيها المفسرون السابقون، لا يجوز لرجُلِ الدين أن يقول شيئا مخالِفا للعلم اليقيني؛ لأنه يتعارض مع تفسير فلان أو مع حديثٍ مَروِيٍ عن فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله، فلا بُد من أن يكون الخلل في نسيان فلان أو فلان أو فلان وخصوصا إذا كان غيرَ مسنَدٍ قرآنيا.

في نفس الوقت نعترض على تحميل العِلم النسبي أكثر مما يتحمل، ونعم نعترض مثلما اعترضَ العلماءُ الـ ٤٠٠ وغيرهم على دور الصدفة في إنتاج الحياة المعتقدة لأن القضيةَ أكبرُ بكثير من التطور والانفجار الكبير، الأمر يتعلق بالأسباب التي أوجدت التطورَ والانفجار الكبير، العِلم لا يعطينا الأسبابَ ولا التعليل، وإنما كل ما يمكنه القيام به هو التفسير الظني (العِلم نِسبي) لِما حدَث، وحتى لو تحولت هاتانِ النظريتانِ إلى عِلمٍ يقيني فلا يعني ذلك عدم الحاجة إلى وجود خالق فكما قُلنا إن أقصى ما يمكن للعِلم أن يبيِّنَه لنا هو "كيف حدث الأمر "ولكن ليس "لماذا حدث الأمر"، إذن سيبقى المؤمن يسأل لماذا حدث؟ والجواب سيبقى المسبِّب الأول وهو الخالق.

الأهم من كل هذا أن الحاجةَ إلى خالقٍ تتجاوز مسألتَيْ التطور والانفجار الكبير إلى مسألة القوانين الحاكمة وأصل الحياة، أمّا القوانين الحاكمة فإن إعجازَها يتجاوز مسألةَ وجودِها كقوانين تحكم الكونَ من أقصاه إلى أقصاه إلى مسألة خصائص هذه القوانين من حيث تلاؤمها مع بعضها البعض وعالميتها، حيث

نجدها حيثما يصل إليه إدراكُنا ووعيُنا وأدواتنا وأخيرًا تعاضدها مع بعضها البعض في إنشاء الكون الذي نعيش به، أمّا أصل الحياة فنظرية التطور لا تتطرق إليه من الأصل ولا تشرح لنا كيفية تكوّنِ الخليةِ الأولى، وإنما تقتصر على مدةٍ زمنية قصيرة من حياة الكون والإنسان.

التصميم الذكي أم التصميم الفعال؟

التصميمُ الذكي هو مسمَّىً جديد لِما يُعرَف تاريخيًا ببرهانِ النظم البرهان القائل بضرورة أن يكون للأرض والسماء والإنسان والكائنات خالق ولا يمكن أن يكون وجود الوجود مجرد صدفة عابرة، يحسب للتصميم الذكي بنسخته الحالية أنه لم يعتمد الفلسفةَ والمشاهداتِ العابرة وإنما استند على أدواتٍ علمية من خلال الوقوف على تعقيد بعض المشاهدات وإثبات أنها لا يمكن أن تكون محض صدفة (الانتخاب الطبيعي أو الطفرات العشوائية) وبالتالي يُعزَى هذا التعقيد إلى قوَىً ذكيةٍ عاقلة وهي الاله الخالق، التصميمَ الذكي لا يعتمد الكُتُبَ الدينيةَ لإثبات ادعاءه، ولكن في نفس الوقت لا يمكن اعتباره مادةً علمية يمكن أن تُدرَّس في دروس العلوم بسبب نه لا يقدم تفسيرات تقع ضمن نطاق المنهج العلمي الذي افترض حدودًا للتفكير بما يمكن أن تصل له أدواتنا الحالية.

مِن احتجاجات المعتقدون بالتصميم الذكي، العين البشرية (يحاول الملحِدون الانتقاصَ منها كما سنناقش لاحقًا)، تصميمُ العينِ وموقعُها المهم والحماية المتوفرة لها من الجانب عن طريق التجويف العظمي الذي تستقر فيه كل عينٍ مع وسائدَ شحميةٍ لامتصاص الصدمات، ومِن الأمام الجفون التي تعمل بشكلٍ إرادي ولا إرادي لحمايتها وترطيبها، وتفاصيل العين الدقيقة التي تكشف لنا حجمَ التعقيدِ الموجود، مِن أجزاء العين الشبكية التي تغطي ثُلُثَي كرةِ العين مِن الداخل وهي الجزء الحسي من العين الذي يحتوي على مستقبِلات الضوء، والقَرنية الطبقة الشفافة التي تستقبل الضوءَ، والعدسة التي تعمل على تركيز الضوء وإسقاطه على الشبكية وتتصل بها العضلاتُ الهُدْبية والمشيمية وهي الطبقة الغنيّة بالأوعية الدموية المسؤولة عن تغذية العين وتوفير الأوكسجين لها، وغيرها من عجائب التعقيد الموجود في العين .. حيث يجادِل المؤمنون بنظرية التصميم الذكي في أن أجزاء العين لا يمكن أن تكون تطورت لأن أحدَها مكمِّلٌ للآخر.

وبتعبير آخرَ إن بناءَها تم بشكلٍ متوازٍ وكأنه كان هناك تصميمٌ ليقوم كل جزءٍ بدورٍ محدد، وهذا لا يمكن أن يكون تطورًا وإنما هو تصميم، يجيب الملحِدُ على هذا الكلام بأن المصمِّم يحتاج إلى دليل! وهنا نقع في الفخ الأكبر، لأن الدليل الذي يطالِب به الملحد هو دليلٌ مادي مباشر ويجب التأكيد على كلمة "مباشر" فهو يرفض الأدلةَ الدالةَ على المصمِّم كالتصميم نفسِه، وإنما يريد أن يرى المصمِّمَ نفسَه، ولن ينفع القول إن المصمِّم خارجَ حدودِ الزمان والمكان والمادة.

ولتقريب الكلام نضرب المثَلَ الآتي والأمثال تُضرَب ولا تقاس، عندما تحدُثُ سرقةٌ فنحن نستدل على وجود سارق نتيجةً مثلاً لفقدان بعض الحاجيات وهذا الدليل كافٍ جدًا على وجود سارق، ولكن في حالة الملحد فإنه يقول أحتاج إلى رؤية السارق لأتأكد مِن وجودِه.

وعند محاكمة نظرية التصميم الذكي علميًا فإنها تفشل ليس لضعف الأدلة ولكن لعدم موافقة نتائج التصميم الذكي المقترَحة لقوانين المنهج العلمي التي تتعامل مع الواقع المادي حصرًا، بعبارةٍ أخرى يتم رفض الدعوى ليس لكذب المدَّعي أو لفساد أدلتِه ولكن لأنه لم يتَّبِع الإجراءاتِ القانونيةَ في رفع الدعوى، وهذه نقطةٌ حساسةٌ يجب فهْمُها لكل مَن يريد أن يفهم كيف يعمل المنهج العلمي بشكل إقصائي مع كل الأفكار التي لا تتبع مسارَه.

رفض التصميم الذكي لمجرد أنه لا يُلبي متطلبات المنهج العلمي قد لايكون سبب كافٍ لرفضه، لذا صاحِبُ كتاب "الإله الفرضية الفاشلة" قال إن الكثير من العلماء يعترضون على الدور الكبير الذي تعطيه نظرية التطور للانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية، وقد غفلوا عن التنظيم الذاتي والذي هو يعمل عمل التصميم ولكنه ذاتي بدون الحاجة إلى مصمّم.

قوله هذا لتقليل من مأزق التصميم الذكي حيث حاول أن يستبدله بالتنظيم الذاتي، ولأجل هذا أعطانا مثلاً بسيطًا لا يرقى لِما نتكلم عنه من تعقيد لتجربة تمت تحت سيطرة كاملة من العنصر الواعي الفعال وباستخدام الحاسوب، يعطي المؤلف للتنظيم الذاتي دورًا كبيرًا وخصوصًا في مسألة بدء الحياة حتى ليقول إن دروه يكفي لإبعاد الخالق عن الصورة ولكن ما الدليل على صحة فريضة التنظيم الذاتي أكثر من تجربة الحاسوب؟ هذا مثال لهروب الملحدين من الحقائق على أساس جدلي لغوي بنكهة علمية.

مِن المَخارج الأخرى التي أوجدها الملحدون لمسألة التصميم الذكي وعدم إمكانية نشوء الحياة بالصدفة هي الكائنات الفضائية وأول مَن قال بها حسْبَ علمي هو الدكتور "فرنسيس كريك" الحائز على جائزةِ نوبل نتيجةً لاكتشافه جزيء الـ "دي إن آي – الشفرة الوراثية"، هذا العالِم عندما شاهد دقةَ تصميم الشفرة الوراثية اقتنع بوجود نوعٍ من الكائنات الفضائية التي زرعت هذه الشفرةَ على الأرض، هواضطر لهذا التفسير لأنه بديهيًا لا يمكن أن نعتقد بإمكانية تكوّنِ جزيء الدي أن أي بالصدفة.

وفي كتاب "وهْم الإله" لريتشارد داوكنز نجد إشارتيْنِ واضحتيْن على اعتقاد ريتشارد بذلك أيضًا بالرغم من نفيه ذلك في أحد المؤتمرات بعد ظهور فيديو له يتكلم فيه عن الكائنات، في الفصل الثاني من كتابِه وعند كلامه عن "اللاأدرية" يتكلم عن الحياة خارج الكرة الأرضية ويقول إن هناك آراءً جيدة في اتجاه إثبات ذلك وفي اتجاه رفضِه، في نفس الفصل وتحت عنوان "الأقزام الخضر" يتكلم عن لاأدرية وجود كائنات فضائية، ولكنه يسهِب كثيرًا في تبيان حالهم إن كانوا موجودين وأنهم سيكونون خارقين بمقياسنا وليسوا خارقين للطبيعة، وسيكون حالنا مقارنةً بهم كحالنا اليوم بالعصور المظلمة التي مرت الإنسانيةُ بها، وستكون أدواتهم كمعجزات موسى وهارون.

وهذا دليل واضح أنه يفكر في الأمر بشكلٍ جِدي، وعند جمْعِ كل ما قاله عن الموضوع نخرج بنتيجةٍ مفادُها أنه يميل لرأي الدكتور فرنسيس كريك، ولا بُد من الإشارة إلى أن الكلام عن الكائناتِ الفضائية أمرٌ ذكرته كل الحضارات الإنسانية من سومرية وفرعونية وهي تتشابه إلى حدٍ كبيرٍ مع دعوى الأديان بآدمَ وحواء ككائنات متحضرة، وخصوصًا النظرية الاسلامية التي قد نجد في ثناياها

وجودَ كائناتٍ قبل آدمَ قد أفسدت في الأرض، وآدمُ متعلِّمٌ حيث علَّمَه ربُّه الأسماءَ كلها، وهذا موضوع يحتاج إلى تفصيلٍ ممكن أن يكون في كتابٍ منفصل، ولكن القولَ إن الإنسانيةَ تطورت بشكل تلقائي عليه الكثير من علامات الاستفهام؛ لأننا وحتى اليوم نجد بعض القبائل تعيش حياة بدائيةً جدًا لا تصل إلى مرحلة السومريين مثلاً، فلو كانت الإنسانية تطورت تلقائيًا فأين هؤلاء مِن التطور التلقائي؟ ولذا فهناك عدة آراءٍ تقول إن هناك معلِّما علَّمَ البشريةَ، وهذا ما تشير إليه جميع الحضارات الإنسانية القديمة وكذلك الأديان، فهناك شِبه اتفاقٍ على ذلك وهو مشابه للاعتقاد القائل بالكائنات الفضائية.

المآخذ على التصميم الذكي:

المأخذ الأول: رمي الكرةِ في ملعبِ قوَى خارقةٍ ذكية أوجدت التصميمَ، وهذا يجعله خارج نطاق المنهج العلمي.

المأخذ الثاني: كلمة "الذكي" حيث أصبحت هذه الكلمة لسببٍ أو لآخر دلالة على كمال التصميم، وبالتالي إذا ولد طفل بعاهةٍ خلقيةٍ معيَّنة، أو أصيب طفل بسرطان أدى إلى موته، وكذلك الزلازل والفيضانات وغيرها أدلة على عدم وجود ذكاء، والقضيةَ فوضى وانتخابٌ طبيعي وطفراتٌ عشوائية، وهذه المشكلة حلها القرآن حلاً جذريًا لأن الحياة هي مجرد مرحلةٍ وفيها ابتلاء ونقص في الأموال والثمرات والأنفس وغيرها، وبالتالي إذا فرضنا أن التصميم نظريةٌ صحيحة فإن المصمِّم أخبرنا بأن الغاية من تصميمه لا تقتضي كمالَ التصميم، وإنما تقتضي فعاليةَ التصميم وعمله، ولهذا السبب أصبح من الضروري تغييرَ الكلمةِ من التصميم "الذكي" الذي أثارت كلمة ذكي فيه حفيظة الكثيرين ممن فهموا الذكاء على أنه كمال في التصميم إلى التصميم "الفعال" الذي تعني كلمة فعال فيه أنه يؤدي الحكمة أو الغرض من إيجاده.

المأخذ الثالث: هو الاعتقاد بأن التصميم الذكي أو الفعال يقف بالضد من الإبداع العلمي لأنه عندما يصل إلى مرحلة الاعتقاد بأن التعقيد هو تصميم إلهي أو ذكي فإنه يغلق البابَ على البحوث العلمية لكشف تفاصيل هذا التعقيد، وهذا الأمر واقع غير مُتحقق، وبالتالي هو تخوف لا دليل عليه، فقد يكون مصدر هذا التصور هو النظرة السطحية للأديان وكونه يعطي إجابة جاهزة لكل شيء وهذا ما يفعله بعض رجال الدين عند كلامهم في اختصاصات علمية بعيدًاعن ثقافتهم واطلاعهم وبمناسبة وبغير مناسبة.

المأخذ الرابع: لا يوجد تصميم ذكي من الأصل، وهذا ما أشار إليه "دانييال دينت"أحد فرسان الإلحاد الجديد، وهو يتكلم عن أدوات التفكير، حيث أَدرَج هذه الصور وبيَّن أن الصورة على اليسار هي لبيت النمل الأبيض الاسترالي "الأرضة" والصورة التي على اليمين هي لكنيسة مشهورة،

يريد دانيال دينت أن يقنعنا أن الصورتيْن متشابهتان، وأن الصورة التي على الشمال تبيّن العشوائيةَ الدارونية في نشوء الحياة، ويقارنها مع عمارة الكنيسة التي اعتمدت على العقل والخطوات المتسلسلة على اليمين، وكأنه يريد أن يقول لنا إن بيت النمل لا يحتاج إلى تصميمٍ ذكي، فلا رئيس ولا مهندس ولا تفكير ولا هُم يحزنون، وإنما مجرد عمل عشوائي أنتج لنا هذه العمارةَ، وهذا هو حال الأرض والكون والتطور الأحيائي،



لا نحتاج إلى تصميم ذكي بالرغم من الوجود يظهر لنا كأنه نتج عن التصميم.

الواقع هو أنها مجرد محاولاتٍ أخطأ الكثير منها ونجحت محاولة الأرض، في حين أن مثال بيت النمل يثبت عكس ذلك؛ ففي مجتمع النمل المشار إليه هناك الجنود والعمَّال والمَلِكة وكلٌّ يؤدي دورَه وارتفاع البيت بهذا الشكل ضروري جدًا لحماية المملكة وقت الفيضان، وكذلك هناك عمقٌ لهذا البناء لغرض توفير درجة حرارة معينة لحفظ الطعام وغير ذلك من الأمور الدقيقة التي تؤدي إلى أن لا عشوائيةَ فيه أبدًا، نعم قد يكون الناتج الشكلي ناتجًا عشوائيًا ولكن العمليات التي أدت إليه أبعدُ ما تكون عن العشوائية.

دانيال عندما يسترسل في الكلام عن الموضوع يبيِّن أن النظريةَ الداروينة تعمل من الأسفل إلى الأعلى، أي من البساطة باتجاه التعقيد في حين أن التصميم الذكي يعمل من الأعلى إلى الأسفل، أي أن التعقيد ابتدائي، وهذا الكلام فيه مغالطةٌ كبيرة لأن التعقيد كائنٌ مِن أول يوم في هذا الكون، التعقيد كامِنٌ في أول خلية، في أول شفرة وراثية ولا يوجد في الكون بسيط ليعمل من الأسفل إلى الأعلى.

في النهاية لا بد من الإشارة إلى أن التصميم الذكي فشل علميًاعلى الرغم من أنه أكثر واقعيةً من الصدفة والكائنات الفضائية، والسبب الرئيسي في ذلك هو خروجه عن حدود المنهج العلمي باقتراحه وجود قوَى فوق طبيعية مسؤولة عن التصميم، وهذا أمرٌ يقع خارج حدود المنهج العلمي وضوابطه.

وهكذا نرى أن المنهج العلمي هو الذي يحدد تعاملَنا مع الأدلة مِن حولنا، وطريقة صياغة النظرية وليست الأدلة هي التي تحدد مفاهيمنا وطريقة صياغة النظريات، وهذا نوع من الدكتاتورية في المنهج العلمي، ولابُد من التأكيد على أن الأدلةَ والمشاهداتِ مِن حولنا تدلنا على وجود التصميم الفعال، ولا ينكره أحد على الرغم من أنهم يختلفون على أصله وهل حدث نتيجة مصمِّمٍ أم نتيجة الانتخاب الطبيعي؟ كما بيَّنَ ريتشارد داوكنز في كتابه "وهْم الإله" في الفصل الثالث حيث قال ما نصُّه إن الانتخاب الطبيعي قادرٌ على إنتاج صورةٍ متميزة من التصميم، وهو نفس رأي دانييل دانييت كَوْن الأمر حدث من الأسفل إلى الأعلى.

وهكذا نجد أن الجميع متفقون على وجود التصميم، وهذا أمرٌ منطقي فلولا التصميم والتنظيم لَمَا أمكننا أن نتنبأ بظواهر الخسوف والكسوف التي ستحدث بعد عشرات السنين من يومنا، ولَمَا انتظمت السنةُ الشمسية والقمرية، ولَمَا تم حماية القلب بالقفص الصدري والدماغ بعظام الجمجمة ومجرى التنفس عند الأكل بلسان المزمار وغيرها من الأدلة التي لا يغفلها إلا مكابر، وقد ذكَرَ الفيزيائي "هيو روس" ثلاثا وثلاثين خاصيةً في الكون دالةً على التصميم في كتابه "الخالق والكون" ويمكن للمهتم الاطلاعُ عليها، وبالمحصلة فإن التصميم موجود ولا يمكن إنكاره كما التطور ولكن النقاش في اصل هذا التصميم أو التطور.

الفصل الثالث

موجة الإلحاد الجديدة

قام المُناظِر المؤمِن يقدم أدلتَه على وجود الله مستندًا على أدلة بعضِ المتكلمين من القرون السابقة قائلا: هذا الكون إمّا أن يكون قد أتى بدون سبب، أو قد يكون قد أولَدَ نفسَه بنفسِه، وإمّا أن يكون هناك خالِقٌ ومدبّر للكون، فالقول إنه أتى بدون سبب أمرٌ لا يقول به عاقلٌ، فلا يوجد شيء لا سبب له، وأمّا القول بأن الكونَ قد أولَدَ نفسَه بنفسِه فيشبه القولَ بأن امرأةً تلِد نفسَها بنفسِها وهذا أمرٌ مستحيل، وبالتالي يبقى أمامنا خيارٌ واحد وهو أن للكون خالقًا ومدبّرًا.

بعدَ هذه المقدمة جلس المُناظِرُ المؤمِن ليعتلي المُناظِر الملحد ليقول له وببساطةٍ: ومَن قال لك إن الكونَ يهتم لنظام السببية الذي تتكلم به! أغفلَ المناظِر المؤمن في هذه المناظرة أنه أمام موجةٍ جديدة من الإلحاد تحمل في طياتها الكثيرَ مِن مبادئ الإلحاد القديم، ولكنها مسلَّحةٌ بـ "وهْم المعرفة" فلسفة جديدة استفادت من تجارب الملحدين السابقين وأتت بأجوبة جدليةٍ (وليست علمية) جديدة.

ظهرت الموجةُ الجديدة في أمريكا بين عامَيْ ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ ممثلةً بأربعةِ كُتُبٍ هاجمت بالخصوص الديانةَ المسيحية، وتم اختيار أمريكا لأنها البلد العلماني المتطور الأكثر تديُّنًا (التدين هنا بمعنى الإيمان بالخالق واليوم الآخِر) وللأسف كان لهجمات تنظيم القاعدة التكفيري في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ دورٌ مهم في ظهور هذه الموجة والتي لا يمكن اعتبارُها بأية حالٍ من الأحوال موجةً جديدة، وإنما هي استمرار لموجات إلحادية تظهر باستمرار منذ فَجْر التاريخ الإنساني ولم تتوقف، ولكن ما يميز هذه الموجةَ أنها تعتمد المنهج العلمي في محاربة الأديان وتسفيهها، ولكن حتى هذا التمييز يقِل بريقُه عند اطلاعنا على التاريخ كما سنفصل ذلك لاحقًا.

والكُتُب الأربعة التي مثلت موجةَ الإلحاد الجديد هي:

أولا: (وهْم الإله) – لـ ريتشارد داوكنز، وهو عالِم أحيائي تطوري بريطاني محاضِر بجامعة أُكسفورد، وقد كرَّس حياتَه للكلام في الأديان، ويحاول البعض أن يُلحِق به لقب فليسوف وهو مِن مواليد ١٩٤١.

ثانيا: (رسالة إلى الأُمة المسيحية) – لـ سام هاريس، وهو عالِم أعصاب أمريكي، ويحاول البعض أن يُلحِق باسمِه لقب فيلسوف وهو مِن مواليد ١٩٦٧.

ثالثا: (كسر السحر، الدين كظاهرة طبيعية) – لـ دانيال دينيت، وهو فيلسوف أمريكي مهتم بفلسفة العلم مِن مواليد ١٩٤٢.

رابعا: (الإله ليس عظيما) – لـ كريستوفر هيتشنز، وهو كاتب صحفي بريطاني أمريكي هاجَر إلى أمريكا عام ١٩٨١ وعمِل صحفيًا معظم حياته، له عدة كُتُبٍ غير مشهورة تتناول مواضيعَ سياسية، برَز نجمُه بعد كتابه (ضد الدين) كأحد فرسان الإلحاد الأربعة –كما سمَّاهم ريتشارد داوكنز– مِن مواليد عام ١٩٤٩ وتوفى عام ٢٠١١ بالسرطان .

وللمؤلفين أعلاه عدة كُتُبٍ تتناول مواضيع الدين والإلحاد قبل ٢٠٠٦ ولكن هذه الكتب شكلت البدايةَ الحقيقة لكونها نزلت مجتمِعةً ضمن فترةٍ زمنية متقاربة وبتنسيقٍ واضح بينهم، وحققت أعلى المبيعات في وقت كانت أمريكا لم تفِق مِن هجمات سبتمبر التي اتهم بها الدينُ كمحفِّز أساسي، وكما هو واضح فإن خلفية المؤلفين خلفية متنوعة ولا يجمعهم جامع سوى موقفهم من الدين والإله.

(وهْم الإله – ريتشارد داوكنز)

النسخة المترجمة للعربية

كتابٌ مهم في اعتقادي يناقش الموروثَ والتقاليد بشكل رئيسي مع قليل من التركيز على موضوع الخالق، نتيجةً لذلك وقع الكثيرون في مغالطة "العنوان والمضمون" التي ذكرناها في المغالطات الكبرى، فلا خلاف بالتأكيد على ضرورة تنقيح الموروث والتقاليد التي لا أصل ديني لها، وهذا الأمر قد أناقشه في كتابٍ مستقل لأن هدفي في هذا الكتاب هو مناقشة مسألة الخالق ولن أناقش الموروث والتقاليدَ حتى لا أخلط الحابل بالنابل كما فعل ريتشارد داوكنز في كتابه، ولذا فإنني سأحاول التركيز على ما يختص بالخالق في كتاب "وهْم الإله".

مقدمة وهْم الإله:

يحاول الكاتبُ استعمالَ مفهومِ الانتخاب الطبيعي الذي تكلمنا عنه عند الكلام عن نظرية التطور على الأديان والعادات والتقاليد، وعلى الرغم من قوله "بأن الانتخاب الطبيعي محصور بتفسير العالم الحي ولكنه يستدرك هذه المقولةَ بقوله "إن باستطاعته أن يرفع مستوى الوعي للإدراك" وقد فعل ذلك فعلاً في مواقعَ عدةٍ من كتابه، ولا أستغرب ذلك فالانتخاب الطبيعي هو مجال اختصاصه وعملِه، ولكن لا بُد من التأكيد على أن هذه النظرةَ إلى التاريخ الإنساني نظرةٌ غير علمية، فالواقع يثبت أن لدينا أديانًا مستمرة منذ آلاف السنين، يحاول الملحدون أن يقرروا أن الأديان ابتدأت بعبادة أكثر من إله ومِن ثَم تطورت لعبادة الإله الواحد بالانتقاء الطبيعي، ومِن ثَم ستنتقل لرفض مفهوم الخالق، ولكن هذا كلام غير تاريخي لأن جميع الأديان القديمة لديها إلهٌ واحد مسيطر، وحتى مشركي مكةَ كانوا يعبدون اللهَ الخالقَ الواحد، والأصنام ما هي إلا وسائل للتقرُّب منه، فادّعاءُ الملحدين هذا أمرٌ لا يمكن إثباته علميًا لأنه لا يمكن أن نثبت أن أول إنسان عابدٍ كان يعبد عدة آلهة في نفس الوقت وإنما البديهي أنه بدأ بعبادة إلهٍ واحد، صحيح يُقال إنه كان يعبد الظواهرَ الطبيعةَ لخوفه منها ولكنه مجرد استنتاجٍ غير ناهض وسنتناول هذا الموضوع لاحقًا.

الملاحظة الثانية: كلامُه عن حالاتٍ من الشك والحيْرة التي مر بها، وشكره لزوجته التي كانت عونًا له خلال هذه الحالات، ولنا أن نتساءل هل في العِلم شكٌ وحيْرة أم أن العِلم يمثل الحقيقةَ التي يمكننا أن نثق بها!؟ أثناء حضوري لمؤتمر للملحدين في أمريكا وكان المحاضِر يتكلم عن الأديان وكيف يمكن اختبارُها، وقال إن الإلحاد لا يمكن اختبارُه لأنه شك، فأجبتُه لو كان شكًا لأصبح لا أدريةً وليس إلحادًا.

الملاحظة الثالثة: ذَكَر نقطةً مهمة بيَّنَ فيها أنه من الصعوبة تنظيم الملحدين لأنهم غير معتادين على الانصياع لأي نوعٍ من السُّلُطات الفكرية، فهُم معتادون على التفكير المستقِل، وهذه حقيقة ولكن ما يجمعهم هو موقفهم من الدين، وهذا الذي لم يذكره ريتشارد، وعلى هذا الأساس يحاولون تنظيمَ أنفسِهم سياسيًا واجتماعيًا.

الملاحظة الرابعة: تكلَّمَ داوكنز عن نقطةٍ مهمة ٍوهي سوء اقتباس كلامه ووضعه في غير محله، حيث يقوم المؤمنون باقتباسٍ خاطئ لبعض كلامه ليصبح في صالح توجهاتِهم الدينية، وهنا أنا أتفق تمامًا معه في

ضرورة عدم اقتطاع الكلام خارج النَّص لخدمة فكرة معينة وهذا ما أكدته في كتاب "نبتة ابليس" الذي قمت بتأليفه ونشره العام الماضي.

وهْم الإله – الفصل الأول

أول صفحةٍ من هذا الفصل تحمل ما يمكن تسميته الفيصل بين اعتبار الإلحاد الجديد إلحادًا علميًا أم مجرد وجهة نظر شخصية غير علمية، حيث يتكلم ريتشارد داوكنز عن طفلٍ منكفئٍ على العشب مندهشٍ لِمَا يرى حوله من الأعشاب المتشابكة والحشرات، وينتقل نظرُ الطفلِ فجأة إلى الكون ليفسّر ما ينظر إليه بمصطلحات دينية قادته في آخر المطاف ليكون رجلَ دينٍ يعمل قسًا في مدرسة داوكنز، وكان داوكنز معجبًا به كثيرًا! يعلق داوكنز على هذه التجربة بقوله إنه كان من الممكن أن يمر هو شخصيًا بنفس التجربة ولكنها ستدفعه باتجاه معاكس للدين ليصبح بالنتيجة ملحدًا.

هذه التجربةُ التي يخبرنا بها ريتشارد داوكنز "شيخ الملحدين" والتي قد تنتج وجهتَيْ نظرٍ مختلفتيْن إحداهما مؤمِنة والأخرى ملحِدة تلخِّص المسافةَ بين الإلحاد والإيمان، فالقضية وجهة نظرٍ شخصية وليست وجهةَ نظر علمية.

يبدأ داوكنز هذا الفصلَ بمقولة لأينشتاين يعبّر فيها عن كونه لا يؤمن بإلهٍ شخصي ويحاول أن يثبت بإلحاحٍ عجيب أن آينشتاين ملحدٌ نتيجةً لعدم إيمانه بالإله الشخصي لاعتقاد داوكنز الخاطئ بأن عدم الاعتقاد بـ (بالإله الشخصي) معناه الإلحاد، على الرغم من أن آينشتاين أنكر إلحادَه، ولكن قام ريتشارد داوكنز بالاجتزاء من كلام آينشتاين بما يوافِق هواه وتركَ ما عداه على الرغم من أنه اشتكى من الاجتزاء في مقدمة كتابِه.

استغرق داوكنز مساحاتٍ واسعةً من كتابه ليثبت إلحادَ بعض الشخصيات المهمة عبْرَ التاريخ كالرؤساء الأمريكان وبعضِ أنصار الطبيعية وآينشتاين، وهذا دليلٌ آخر على سطحية الكتاب وبُعدِ العنوان عن المضمون، عِلمًا بأن هذا الدفاعَ المسعور عن إلحاد بعض الشخصيات التاريخية ناتجٌ عن عقدة قلة العدد التي يعاني منها الملحدون، والتي تَظهر هنا وهناك في كتاباتهم ولذا تراهم يحاولون جعل اللاأدريين واللادينيين وحتى الأطفال ملحدين بطبيعتهم أو على الأقل ضمن معسكرهم.

ومِن العجيب أنه يحاول جعْلِ مِن يسمِّيهم "أنصار الطبيعة" ملحدين أيضًا، وتستمر محاولاتُه في إثبات إلحاد بعض الشخصيات حتى الفصل الثاني، ثم ونتيجةً لعدم كفاية الأدلة يقول في الفصل الثاني تحت موضوعٍ فرعي باسم (العلمانية والآباء المؤسسون والدين في أمريكا) ما نصُّه "سواءٌ أكان جفرسون "رئيس أمريكي" وزملاؤه مؤمنين، ألوهيين، لا أدريين، أم ملحدين فهُم بالتأكيد علمانيون لحدٍ كبير، وهنا مِن حق القارئ المطَّلِع أن يتساءل ما دخْل علمانية جفرسون وزملائه بالكلام عن دينِه واعتقادِه؟ فما العلمانية إلا نظامٌ سياسي يقوم على فصل مؤسسات الدولة عن دين أفرادها، وفي نفس الوقت يحمي حريةَ التدين لأفرادها ويحفظ لهم حقوقَهم ويبين لهم واجباتِهم.

وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه في مجال العلمانية أنها نظريةٌ في المعرفة وليست نظريةً في السياسة كما ذهب "مراد وهبة" في كتابه "الأصولية والعلمانية" وأنا أختلِف مع هذا المفهوم؛ فالعلمانية نظريةٌ سياسية

توضح معالم الحُكم الذي يمكن اتباعه لحُكم الشعوب، ولذا في الواقع تطبيقها سياسي مما يجعلها نظريةً في السياسية أكثر منها في المعرفة، ولكن في كل الأحوال يبقى الأمر بعيدًا عن مسألة الايمان بالخالق وبعيدًا كل البعد عن مسألة هل الخالق موجود أم لا! القارئ ذو التفكير الحُر غير المؤدلج وغير المتعصِّب سيتساءل كثيرا وهو يقرأ كتاب "وهْم الإله" هل هذا كتاب يتناول الخالقَ أم مجرد دعاية سمجة للفكر الإلحادي مع اعتراضات على مورثات ثقافية ومجتمعية يعترض عليها المؤمن والملحد على حدٍ سواء!

عندما يحاول اعتبار آينشتاين ملحدًا لكونه غير مؤمن بإلهٍ شخصي، هذا سوءُ فهْمٍ كبير لمفهوم الإله لا يمكن غفرانه لداوكنز، والأدهى منه اعتبار أن كل مَن لا يؤمن بالإله الشخصي ملحد كما نلاحظ ذلك في الفصل الثالث "الدليل على وجود الله" الصفحة ١٠٤ حيث يتناول بالتحليل دراسةً عن آراء أعضاء الجمعية المَلَكية البريطانية عن الدين ويعبِّر المشاركُ في الدراسة عن رأيه في الإله الشخصي على مقياسٍ من سبع درجات، حيث تعبِّر الدرجةُ الأولى عن "عدم الموافقة بشدة" وتدرج إلى الدرجة السابعة التي تعبِّر عن "موافق وبشدة" حيث أشارت الدراسة إلى أن ٣,٣% فقط وافقوا على مفهوم الإله الشخصي، استنتج داوكنز من هذه النتيجة وبشكل مخادِع أن أكثر مِن تسعين بالمئة من العلماء الذين شاركوا بالدراسة ملحدون .. وهذا كذب واضح من ناحيتيْن:

أولاً: مَن لا يؤمن بمصطلح "الإله الشخصي" لا يعني أنه ملحد.

ثانيا: المقياس المستخدَم في الدراسة يتكون من سبع درجات، فَعَلَى أي أساس علمي اعتبرت أن ست درجات منها تمثل علماءَ ملحدين!؟ بالطبع لن تجد جوابًا علميًا.

ثالثًا: الدراسة شلمت ١٠٤٧ عضوًا واشترك فيها فقط ٢٣% أي ما يقرب من ٢٥٠ عضوًا، وتم إجراؤها ما بين ٢٠٠٦ و٢٠٠٦، ولم يوضح لنا داوكنز وغيرُه طريقة إجراء الاستبيان وهو أمر لم يوضحه داوكنز لقرائه، فمثلاً إن كان الاستبيان قد تم إرساله إلى جميع الأعضاء ولم تكن العينة عشوائية فإن النتائج لا يمكن تعميمها وإنما تكون فقط ممثلة لمن قام بالاجابة وذلك لأن التعميم مع نسبة خطأ لا يكون إلا للعينات العشوائيه فقط، بالإضافة إلى أنه إذا كان الاستبيان قد أرسل إلى جميع الأعضاء فمن البديهي أن يجيب أصحاب الموقف المتشدد أما المتذذبين وحتى المؤمنين فلن يهمهم الأمر وهذا معروف من الناحية النفسية في مجال إجراء الاستبيان.

لذا دائمًا ما يفضل أن تكون العينة عشوائية لتجاوز هذا الخلل، وهنا يجب التأكيد على أنه إذا أمكننا اعتبار إجابة ٢٥٠ عالِمًا مؤشِّرا على توجُّهِ العلماء فإن الـ ٤٠٠ عالِم الذين شككوا بالانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية – وأسماؤهم مرفَقَة في نهاية الكتاب– يمثلون أيضًا توجُّهَ العلماء ضد فكرة ريتشارد داوكنز الذي أفنى فيها عمرَه وهي الانتخاب الطبيعي.

نفس الأسلوب غير العلمي استخدَمَه داوكنز في الحُكم على نتائجِ دراسةٍ أخرى قامت بها المجلة العِلمية "الطبيعة" في عام ١٩٩٨ لمجموعة من العلماء الأمريكيين، وكان ٧% منهم يؤمنون بإلهٍ شخصي .. حيث استنتج داوكنز أن البقيةَ ملحدون! وكما بيَّنَا سابقًا فإن عدم الإيمان بإلهٍ شخصي أمرٌ طبيعي ولا يعني الإلحاد بأية حال من الأحوال، ولنستعِن بآينشتاين الذي اتهمه داوكنز بالإلحاد، حيث يرفض آينشتاين

الادعاءاتِ بأنه ملحد في مراتٍ كثيرة كما ورد في كتاب "آينشتاين والدين" الصادر عام ٢٠٠٠ لـ "ماكس جامر" وهو مختص في تاريخ العِلم:

"أنا لستُ ملحدًا، ولا أعتبر نفسي مِن القائلين بوحدة الوجود، نحن في موقف مشابه لموقف طفلٍ صغير يدخل إلى مكتبةٍ مليئة بالكتب المكتوبة بلغات مختلفة، الطفل يعرف أن هناك مَن قام بكتابتها ولكن لا يعرف كيف، الطفل لا يعرف اللغةَ التي كُتِبت بها هذه الكتب ولكن يعتقد أو يشك في وجود نوع من الترتيب ولكنه لا يعرفه، هذا الموقف يشد الإنسان نحو الخالق، نحن نرى الكونَ منظَّما بشكلٍ مثيرٍ للتساؤل وخاضعٍ لمجموعة من القوانين التي نفهمها بشكلٍ بسيطٍ".

وأثناء حديثٍ لآينشتاين أعلن وبصراحة أن الأشخاص الملحدين يجعلونه يشعر بالغضب لأنهم يقتبسون من كلامه ما يدعمون به إلحادهم، آينشتاين رفض الإلحاد بالرغم من رفضه لمفهوم الإله الشخصي، آينشتاين رفض الإلهَ الشخصي المنفعل الذي يفرح برائحة دم الأضاحي، واختار شَعبًا مميزًا دون الشعوب وغيرَها من الأمور، والكثير من المؤمنين يرفضونه، رفضُ الإلهِ الشخصي لا يعني بالتأكيد رفضَ الخالق، وهذا دليل آخر على خداع ريتشارد داوكنز لقارئيه باعتباره كل من لا يؤمن من العلماء بإله شخصي ملحد.

داوكنز في الفصل الأول من كتابه يعطينا تعريفًا للإله تعهَّدَ على نفسه بتبنِّيه في فصول كتابه حيث يقول "إنها كلمة تدل على خالقٍ مِن عالم وراء الطبيعة، وشيء جديربأن نتوجه إليه بالعبادة" وكما نلاحظ فإن هذا التعريف يتناقض مع مصطلح "الإله الشخصي"، وعلى العموم سأقوم شخصيًا في كتابي هذا باستخدام تعريف داوكنز من باب إلزام المقابل بما ألزمَ به نفسَه وسنبيِّن للقارئ كيف أن داوكنز نفسَه وبقيةَ الملحدين لا يلتزمون بهذا التعريف.

وعلى سبيل المثال لا الحصر في الفصل الثاني "فرضية الإله" وفي معرض كلامه عن إمكانية أن يَنفي العِلمُ وجودَ اللهِ يقول في الصفحة ٦١ من النسخة المترجمة إن عدم وجود أدلة علمية على وجود الخالق دفعتْ إلى ظهور مفهوم عدم التداخل بين الدين والعِلم، ويؤكد على أن مفهوم الإله مجرد فرضيةٍ علمية، وهنا مِن حق أي شخص مطَّلِع على معنى الفرضيات العلمية أن يسأل دواكنز: كيف يمكن اعتبار شيء افترضت أنه مِن"عالم ما وراء الطبيعة" فرضيةً علمية؟ وأي منهجٍ علمي يمكنه أن يتعامل مع ما وراء الطبيعة يا سيد داوكنز؟!!

تكلَّمَ في الفصل الأول عما أسماه الحُلم بالنظرية النهائية "نظرية كل شيء، وكلامه كان على لسان عالم الفيزياء "ستيفن وانبرغ" وحسنًا فعَلَ عندما عبَّر عنها بالحُلم لأن ستيفن واينبرغ عبَّر في مقابلة مع داوكنز نفسه بما نصه "ليس من المفروض أن تتم الاستهانة بمشكلة أنه في النهاية لن يكون بإمكاننا تفسير الكون" وقد تكون هذه المقابلة بعد صدور كتابه "وهم الإله".

ومما يثير الاستغرابَ أن الملحدين يأخذون على المؤمنين إيمانهم بالغيب وفي نفس الوقت عندما تسألهم عن بعض الإشكاليات يقولون إن العِلم سيجيب عنها لاحقًا! أليس هذا رجمًا بالغيب مبنيًا على افتراضات غير علمية بالمرة؟ قال داوكنز في الفصل الأول ما نصه "سنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيرات للظواهر غير المفهومة بشكلٍ كاملٍ باستخدام قوانين الطبيعة، ولم يُخبرنا سيد داوكنز أي نظرية علمية استخدمها في

استنتاجه هذا، وهو صعبٌ وبعيدُ الاحتمال كما عبَّر ستيفن واينبرغ، فكيف سيفسر وجود القوانين الطبيعة ومصدرَها؟

تَكثُر في الفصل الأول كما في بقية الفصول الكثير من العبارات الشعاراتية الكلامية التي لا قيمه علمية أو فلسفية لها وإنما مجرد وجهات نظر ضيقة للدين، حيث يقول في الصفحة ٢٢ من النسخة المترجمة: "مِن المسَلَّمات والتي يَقبل بها الجميع تقريبًا في مجتمعنا الإنساني، حتى غير المتدينين، أن الإيمان الديني هو فكرةٌ هشة وضعيفة أمام النقد" ولا أدري هل هذه المسلَّمات بُنيتْ على إحصاءات علميّة معتبر أم هي مجرد أوهامٍ وخرافات في ذهن داوكنز؟ وخصوصًا أن المؤمنين هُم الأغلبية عبْرَ العصور والأوقات ولا يرون أيمانهم فكرة هشّة.

وكذلك حاول فرض رأيه على الفيزيائيين حيث طالبهم بالتوقف عن استعمال كلمة (الله) بمعناها المجازي "كما يعتقد" لأنها خيانةٌ فكرية على أعلى المستويات كما يعبِّر، وهذا الأسلوب في إطلاق وصف الخيانة على مَن يتعامل مع الأمور بأسلوب مختلف يذكِّرني بأسلوب القيادات القمعية التي تَعتبِر كل المقولات التي لا تخدم أفكارَها خيانةً قومية أو وطنية أو أخلاقية أو علمية، وفي حالة داوكنز الذي استخدم تعابيرَ كلامية بعيدةً عن العِلم وأدواته مثل "كل جملة تقطر بالجبن الفكري والأخلاقي"، في سبيل التأثير على قارئيه بلاغيًا استخدم فرضية "لو" غير العلمية في كلامه كما في فرضيته عن ماذا ستكون ردة فعل المجتمع الدولي لو برَّر نظام الفصل العنصري السابق في جنوب إفريقيا أفعاله تبريرًا دينيًا، وكذلك في تحويله الحروب الجارية في العراق وغيرها إلى حروبٍ دينية وليس حروبا إقليمية وعالمية هدفُها السيطرة على مصادر الثروة وبسط النفوذ مستغلةً في ذلك أبشعَ استغلالٍ الخلافَ الطائفي القائم منذ مئات السنين، ولا أعرف لماذا تَناسَى مجازرَ الملحدين في كوريا والاتحاد السوفيتي والصين وغيرها؟ اللهمَّ إلا إذا كانوا لا يمثلون الإلحاد الصحيح!

الكثير من الكلام الشعاراتي الذي لا قيمة له ولن أضيع وقت القارئ في سرد الأمثلة لأنه في كل الأحوال ليس له علاقة بإثبات أو نفي وجود الخالق.

لم أجد في هذا الفصل أيَّ كلامٍ علمي له علاقة بوجود الخالق من عدمه، فهو يتكلم حول أمور ثقافية وسياسية ووجهات نظرٍ شخصية حول أحداثٍ كثيرة مثل بعض قرارات المحاكم في أمريكا والرسوم المسيئة لرسول الإسلام ورد فعل بعض قليلي الثقافة من المسلمين وغيرها.

الفصل الثاني – فرضية الإله

يبدأ الكاتب هذا الفصلَ بمقولة "رالف والدو إيمرسون" دينُ زمنٍ ما هو التسلية الأدبية للزمن الذي يليه"، هذه المقولة لا تحتاج كثيرًا من الوقت لنثبت عدم صحتها، فالتاريخ الإنساني المكتوب بدأ منذ اكتشاف الكتابة قبل ما يقرب ٥٥٠٠ سنة، والحضارة الإنسانية المتمثلة في الإنسان الذكي المزارِع يعود تاريخ ظهورها إلى ما يقرب من ٨٠٠٠ سنة، ولدينا لليوم أديان تعود إلى أحقابٍ بعيدة جدًا، وبالتالي هناك أديان لم تتحول إلى التسلية الأدبية لأوقات طويلة من التاريخ إلا إذا كان الفاصل الزمني الذي يتكلم عنه رالف يتجاوز التاريخ الإنساني، نعم هناك بعض الأمور التي تجاوَزَها البشر مثل بعض الديانات المتعددة نتيجةً لتثقيف الأنبياء وعملِهم، حيث أن الموحدين يؤمنون بإرسال الكثير من الرّسُل عبْرَ التاريخ الإنساني منذ آدمَ الذي يُعتبَر

مرحلةَ انتقالٍ من الإنسان الوحشي إلى الإنسان المسؤول، كما يذهب البعض، وهو المستخلَف لدى المؤمنين مِن قِبَل الخالق.

وبالتالي فإن التوحيدَ هو صفةٌ ملازِمة للإنسان، نعم الخرافات التي ارتبطت بالأديان نتيجةً لموروث ثقافي يمكن أن تنطبق عليها هذه العبارة، أنا ناقشتُ مرةً أحدَ الملحدين وقال بالحرف إنه ألحَدَ بسبب أن أُمَّه عندما مات أبوه رفضت أن تدفنَه لأنها تؤمن بأن المسيح سيُرجعه للحياة، فأجبتُه هذا قد يكون ناتجًا عن صدمة أو قلة فهْمٍ أو موروثٍ ثقافي أو أشياء أخرى، ولكن في كل الأحوال هو ليس سببًا كافيًا لتُلحِد.

يَذكر الكاتبُ في بداية هذا الفصل مقارنة بين الإله في العهد القديم والعهد الجديد، وهذا أمرٌ حقيقيٌ وواضحٌ حيث إن هناك فرقًا كبيرةً بحيث لا يمكن اعتبار إلهِ العهد القديم نفسِه إلهَ العهدِ الجديد، ولكن للأسف ونتيجة لقصور الكاتب وعدم اطلاعه على القرآن كما الكثير غيره من الملحدين أعتقد أن القرآن ما هو إلا امتدادٌ أو نسخة مقلّدة من العهد القديم، وهذا خلاف الواقع حيث أن القرآن يختلف اختلافًا كبيرًا عن العهد القديم من ناحية الفكر والفلسفة والنظرة إلى آلية وتفاصيل قصص الأنبياء وغيرها، ولكن الواضح وكما عبَّر داوكنز أن اطلاعَه على الأديان ناتجٌ عن محيطه وليس عن تدقيقٍ وتمحيص، وبالتالي لا أتوقع منه نظرةً منصفةً للقرأن أو أي دين آخر خارج عن محيطه وبيئته التي نشأ بها.

يَفترِض الكاتب في هذا الفصل أن الأديان ظهرت متعددة الآلهة، وهذا ادعاءٌ يصعب إثباتُه وقد يستحيل أن نثبت أول إنسان بدأ بالعبادة قد عبد عدة آلهةٍ في يوم واحد، وهذا الكلام من وجهة نظر الملحدين، أمّا مِن وجهة نظر المؤمنين فإن الإنسان الأول الذكي المستخلَف كان مسلِما لله موحدًا وهوآدم، طبعًا من وجهة نظر منصفة لا يمكن إثبات أيٍ مِن وجهتَيْ النظر السابقتين، فلا يمكن القول إن الأديان بدأت متعددة، ولا يمكن القول إن الأديان بدأت موحدة لأنه ببساطة هناك فجوةٌ زمنية بين تاريخ اكتشاف الكتابة وبين تاريخ ظهور الحضارة، ولكن ببساطة لا يمكن أن نقول إن أول شخص بدأ بعبادة إله عبد عدة آلهه في يوم واحد.

كما أننا لا يمكننا أن نفهم بشكل كامل وجهةَ نظرِ الحضارات الأولى كالبابلية والمصرية الفرعونية بخصوص الأديان وتَبَايُنِها بين أفراد المجتمع نتيجةً لضياع الكثير من وثائقِ ذلك الزمان، والذي وصل إلينا قد يكون محصورًا في الطبقات الغنية الحاكمة التي كان لها القابلية على الكتابة والتوثيق، وكذلك نتيجةً لاختلاف فهْمِنا لما هو مكتوب في الألواح الواصلة إلينا وكذلك لقلة المعلومات في هذه الألواح واحتمالية الخطأ الكبير في الترجمة كما بين عالم سبيط النيلي في كلامه عن ملحمة كلكامش، علَى سبيل المثال نحن لليوم نشاهد وجودَ سوءِ فهْمٍ كبير واتهاماتٍ متبادلة بين مختلف الأديان والمذاهب كما عبَّر داوكنز في هذا الفصل عندما ذكَرَ الهندوسَ، والهندوسُ معروفون بتعدد الآلهة ولكن بيَّنَ داوكنز أنهم يعتقدون في الإله الواحد (براهما الخالق) وهذا سوءُ فهْمٍ حاصلٍ بين أقوامٍ يعيشون في وقتنا الحاضر حيث نلاحظ خلطًا واضحًا لمواقفَ سياسية وثقافية وتراثية وغيرها من الأمور التي ينتقدها داوكنز ظنًا منه أنه ينتقد الدين، فما بالك بأقوامٍ عاشوا قبل آلاف السنين لا نعرف ثقافتَهم ولا التنوعَ الديني الذي كان سائدًا بينهم.

ولتوضيح الموضوع بشكل أكبر: في المسيحية القديس بولص كتَبَ أكثر مِن نصف العهد الجديد وهو لم يرَ المسيحَ في حياته، وظهرت كتاباتُه بعد المسيح بحوالَيْ ستين سنة، وهناك الكثير من الكلام حول مدى

مطابقة أفكار القديس بولص لأفكار المسيح وتعاليمه، حتى أن المسيحية اليوم تُنسَب إلى بولص أكثر مِن المسيح نفسِه، وهذا هو السبب الذي جعل صاحب كتاب "الشخصيات الأكثرَ تأثيرًا في التاريخ" إلى وضع السيدَ المسيحَ في المرتبة الثالثة، وسيدَنا محمدًا في المرتبة الأولى على الرغم من أن أَتباع المسيح أكثر عددًا من أَتباع سيدِنا محمد لأنه بيَّن أن رسول الإسلام كان هو المحرك للإسلام في حين اأن بولص هو المحرك الأساسي للمسيحيه فهو الذي أوجد عقائدها وكتبها وبينها.

مغزى الفكرة أن مدة الستين سنة الفاصلة بين المسيح وبولص كانت سببًا كافيًا لنستفهم عن مدى فهْم القديس بولص لأفكار المسيح، فكيف بمدى فهْمِنا لأفكار الأقوام الذين عاشوا قبلنا بآلاف السنين، وهذا المعنى ذَكَره أيضًا ريتشارد داوكنز في الفصل الثالث من كتابه، حيث تكلم عن طُرُق كتابة العهد الجديد ومَن كَتَبه وهل كان متحيزًا أم لا، ومَن نَسَخه وكيف عرف عن الموضوع الذي كَتَبه وغيرها من الأسئلة التي يهدف منها إلى التشكيك في المعلومات الواردة فيه، وإنْ كان الأمر كذلك فمِن حقنا أن نشكك في المعلومات الواردة في الألواح القديمة وأن نطرح نفس الأسئلة.

ومما يثير الاستغرابَ أن داوكنز في هذا الفصل الصفحة ٣٧ وهو يتكلم عن تعددية الآلهة وهل أسماء الآلهة القديمة للحضارات المختلفة هي أسماءُ لنفس الإله مثلا "فينوس" هو اسمٌ آخر لـ "أفروديت" أم إلهٌ مختلف؟ يقول (ولكن مَن الذي يهتم بهذا؟ الحياة أقصر مِن أن ننفقها لمعرفة الفَرق بين أبناء الخيال هؤلاء) وهذا كلامٌ صحيح فالحياة قصيرة ولكن بما أنه ليس لديك وقتٌ لتبحث وتعرف فليس مِن حقك أن تحكم في هذا الموضوع، وليس مِن حقك أن تحدد أن التعدد هو الأصل وليس التوحيد، لنقُلْ ببساطةٍ لا نعرف، فهذا هو الأسلوب العلمي وليس الهروب لنقول مَن يهتم، وأنت مؤلِّف كتابٍ يتكلم عن الآلهة.

أيضًا يذكر في الصفحة ٣٨ أنه يهاجم كل الآلهة، أي نوعٍ من الآلهة، ولكن يأتي ليقول في الصفحة ٤٠ "مالم أحدد نوع الدين فإن الدين المسيحي هو المقصود، ليس لشيء إلا كونه مألوفًا لدي أكثر من غيره". وهذا الكلام مشكلة لأنه يحاول أن يطبق فهْمَه للمسيحية على كافة الأديان، والأكثر من ذلك أنه يبرر بذلك بقوله في نفس الصفحة "الفروق لا تهم بقدر التشابهات بين الديانات الثلاثة" ويقول في مكان آخر "إن الأديان الثلاثة يمكن اعتبارها دينًا واحدًا. وهكذا نجد أنفسنا أمام فرضيات ضخمة يفرضها هذا الرجُل في كتابه ولا نعرف مَن قال له إنها صحيحة، و المألوف لديه دينٌ واحد فقط من الأديان وهو المسيحية؟

ومِن المغالَطات التي يحملها الكتاب هو اعتبار الديانات التوحيدية متمثلة بالديانات إبراهيمية فقط بالرغم من أنه قال في مكان سابق إنه حتى الهندوسية يمكن اعتبارها ديانة توحيدية، وهذا الخطأ شائع في الحقيقة، التوحيدُ في نظر المؤمنين هو أول دينٍ اعتنقه الإنسان المفكر وهو دينُ آدمَ، وبالتالي لا يمكن أن نقول إن الأديان التوحيدية أصلها إبراهيمي خصوصًا أنه من ناحية منطقية فإن آدم وإبراهيمَ متساويان علميًا من حيث أنه لا توجد أدلة مادية على وجودهما وسنتكلم عن ذلك لاحقًا. بالتالي تأكيد داوكنز على نسبة الأديان التوحيدية إلى إبراهيم هدفُه اعتبار أن الدين التوحيدي قد ظهر لاحقًا على يد إبراهيم وأن تعدد الآلهة هو الأصل.

في هذا الفصل يقترح داوكنز أن وجود الله هو نظرية علمية، وهذا تناقضٌ مع تعريفه للخالق الذي ألزم به نفسَه باعتباره قوةً ما ورائية والعِلم لا يمكن أن يتعامل مع الأمور الماورائية كما هو معروف، ونجد في هذا الفصل جدول لاحتمالية وجود خالق من عدمه مكونًا من سبع درجات، الدرجة الأولى "مؤمن تمامًا والدرجة السابعة "ملحد تمامًا، المفاجِئ في الأمر أنه يصنف نفسه ضمن المرتبة السادسة والتي تعني أن هناك احتمالاً ضعيفًا لوجود خالق!! شخصٌ يؤلِّف كتابا عنوانه "وهْم الإله" ومِن ثَم يقول لنا إنه يعتقد في وجود احتمالٍ ضعيفٍ أكبر من الصفر في وجود خالق، أمرُ ذو دلالةٍ واضحة أن الموضوع ليس علميا أو لنقُلْ ليس من العلم اليقيني وإنما من العِلم النسبي، ولذا لا يستطيع داوكنز أن يجزم بعدم وجود إله، ولا يستطيع أن يعتبره فرضيةً علمية يمكن إثبات فشلِها كما يدَّعي، ولو كان الأمر كذلك لكان المفروض أن يصنف نفسَه ضمن المرتبة السابعة.

إبريقٌ الشاي من الأوهام والأمثلة المضحكة التي يرددها الملحدون ويحاولون في بعض الأحيان تغييرَ الكلام مع إبقاء المعنى ليظهروا أنفسَهم كمفكرين، وببساطةٍ فإن المَثل يقترح وجودَ جسمٍ معيَّنٍ كإبريق شاي يدور حول كوكبٍ بعيد أو خلفه، بحيث لا يمكن لتلسكوباتنا أن تراه، بالتالي إذا جاء أحدهم وقال هناك إبريق شاي فلا يمكن لأحد أن ينفيه لأن أدواته (تلسكوباته في هذه الحالة) لا يمكن أن تصل لمكان الأبريق ولا يمكن لأحد أن يثبته أيضًا لنفس السبب، الملحد يقول إن حال الخالق كحال إبريق الشاي لا يمكن إثباته ولا يمكن نفيه، هذه المقاربة من أغبى المقاربات، فهذا الشخص وأمثاله لا يفرِّقون بين الحقائق والأوهام التي ذكرناها في فصل المصطلحات، ولذا وقعوا في هذه الأمثلة الكارثية التي تُظهِر مدى النظرة السطحية التي يملكونها لمفهوم الخالق، وبطبيعة الحال مَن يملك مثل هذه النظرة لأهمية الخالق ومكانته فإن مصيرَه الإلحاد ولكن ليكن منصفًا ولا يقول لنا إن إلحادَه مبنيٌّ على أسسٍ علمية، وإنما ليكن صريحًا ويقول هذا فهْمي وتلك نظرتي للخالق.

إبريقُ الشاي ذُكِر في هذا الفصل مع أمثلة أخرى مثل بابا نويل (سانتا كلوز) وغيرها، ولا أعرف كيف يمكن مقارنة هذه الأمثلة السطحية بالخالق وآثارِه؟ فأمثلتُهم لا أثر لها ولا سبب أمّا الخالق فالموضوع مختلف تمامًا، وقد طرحتُ السؤالَ على أحد علماء الفيزياء في أحد المؤتمرات الإلحادية الذي شبَّهَ الإله بسبعِ بقراتٍ قادراتٍ على الكتابة باللاتينية في مزرعة في مكان ناءٍ لا يمكن أن نصل إليه "نفس المثال ولكن بكلمات مختلفة"

فقلتُ له لماذا أؤمن أصلاً بوجود هذه البقرات؟ وما الدليل على وجودها؟ ويمكن أن نسأل نفس السؤال لكافة الأمثلة المشابهة، فقال لا سبب هناك، وكذا الخالق، فقلتُ له غير صحيح، إيماني بالخالق له ألفُ سببٍ وسبب فهذا الكون والحياة وقوانين الطبيعة وغيرها الكثير من الأدلة على وجود قوَى خارقة، ولكن ما الدليل على البقرات أو إبريق الشاي؟ فبُهِتَ بالحقيقة، وهذا ناتجٌ عن أمرٍ بيَّنَه آينشتاين حيث قال "رَجلُ العِلم ضعيفٌ في الفلسفة".

مِن الإشكاليات التي يرددها الملحدون كثيرًا كالببغاء هو ما ذَكَره داوكنز في الصفحة ٥٥ من هذا الفصل، وهي أن مسؤولية البرهان على وجود خالقٍ تقع على عاتق المؤمِن وليس الملحد"، وفي حقيقة الحال

إن مسؤولية البرهان مسؤولية فردية، فكل شخصٍ مسؤولٌ عن البحث وإيجاد جوابٍ لهذه المسألة المهمة التي هي جزءٌ من فطرته، فحتى الملحد لولا فطرته لما بحث الموضوع وأنكره، فلا يوجد إنسانٌ لا يسأل نفسه هذا السؤال وهذه هي الفطرة، طبعًا الاعتقاد في وجود خالقٍ من عدمه أمر آخر.

ولا بُد من التأكيد مرةً ثانية أن كتاب "وهْم الإله" يهاجم الكثيرَ من الظواهر الاجتماعية والثقافية، والكثيرُ مِن المؤمنين في الشرق والغرب لديهم نفس المشكلة مع هذه الظواهر ويقفون بالضد منها، ولكن أن يتم اتخاذ هذه الظواهر وسيلةً لمحاربة الأديان فهذا ما لا يقرُّه شخصٌ عاقلٌ فضلاً عن شخصٍ يدَّعي أن كلامَه مبنيٌّ على أسسٍ علمية.

في هذا الفصل تكلَّم عن تجربة الدعاء وسنتكلم عنها لاحقًا بالتفصيل.

ومن الأمور المهمة في هذا الفصل صفحة ٨٦، أنه تكلم عن المؤمنين الذين يَقبلون بنظرية التطور وبدل أن يمدح تفهمهم لنظريته وموقفهم الإيجابي منها نجده يتخذ موقفًا متشددًا منهم لا يختلف كثيرًا عن موقف الملحدين تجاه المعتدلين إسلاميًا، فمثلاً غالبًا ما يستشهد الملحدون بأفعال القاعدة وداعش ويعتبرونهم الممثلَ الحقيقي للإسلام بينما بقية المسلمين مجرد منافقين أومغفلين، نفس الموقف يتكرر حيث نجد داوكنز يرى أن البابا يوحنا بولس الثاني منافقًا نتيجة لأنه كَتَب رسالةً يدعم فيها الداروينية، نعم اتهمه بالنفاق وأنه يفضّل عليه متطرفًا صادقًا، وهذه إحدى المغالطات الكبرى التي تكلمنا عنها سابقًا.

ومِن حقنا التساؤل لماذا اتهم داوكنز البابا بالنفاق لمجرد أنه وافق على نظرية التطور أو قَبِلَها أو شيء من هذا القبيل؟ لماذا يُصر الملحدون على اعتبار الدواعش هُم المسلمون الحقيقيون وغيرهم مِن المعتدلين مجردَ مرقّعين أو مغفلين أو منافقين؟؟ السبب واضح جدًا وهو أن المتطرفين يساهمون بشكلٍ كبيرٍ في زيادة القناعة لديهم بصحة موقفهم من الدين، أمّا المعتدلون فإنهم يزيدون من شكهم وضياعهم الفكري لذا تراهم يفضلون المتطرفين ويعتبرونهم هُم الصادقين وما دونَهم منافقون ومرقّعون، فالسبب نفسي بالدرجة الأولى وليس علميا، بالإضافة إلى أن داوكنز لا ينظر إلى نظرية التطور كنظرية علمية ولكن كأداة لنفي الإيمان، وبالتالي لا يستوعب وجود مؤمن يقبل بالنظرية، يوافق داوكنز على ما ذهب إليه أحد زملائه عندما بيَّنَ أن طبيعية الخلاف الحقيقة هي ليست بين التطوريين والخلوقيين وإنما هي حرب -لاحِظْ تعبير حرب- بين العقلانية والغيبيَّة باعتبار أن الدين غيبيّ والعِلم عقلاني كما يدّعي.

ومِن الجميل أن يعترف داوكنز في هذا الفصل بأن الخلوقيين أمثاله (متفقين معه) لا يعترفون بمبدأ الاختصاصات غير المتداخلة، وهذا التطابق الفكري في موضوعٍ معينٍ للأسف لا يعترف به الملحدون العرب عندما تبين لهم أن موقفهم من الدين هو كموقف الدواعش والقاعدة والتكفيريين نتيجة لتطابق المودة الذي تكلمنا عنه في المغالطات.

الفصل الثالث – الدليل على وجود الخالق

يَعرض داوكنز في هذا الفصل بعضَ الأدلة على وجود خالقٍ منها الأدلة الفلسفية، أو الأدلة العرفانية المتمثلةَ في الأحلام أو التجارب الشخصية، ولابد من التنويه إلى أن أي دليلٍ عرفاني لا يصح أن يعتبَر دليلاً على وجود الخالق لأنه إنْ صَحَّ فهو دليلٌ فردي شخصي لا قيمة حقيقة له بين الناس ولا يمكن اعتباره

حجة عليهم، وهذا ما غفل عنه ريتشارد داوكنز فلا يمكنه أن يعرض أدلة الكتب المقدسة وهو لا يؤمن بوجود خالق فالاعتقاد بالخالق يأتي أولاً ومن ثَمَّ يتم البحث في الكتب المقدسة لتبيان منطقيتها ومنطقية الأدلة التي تسوقها، الكتب المقدسة غالبًا ما يكون بها معلوماتٍ عن صفات الخالق وأوامرِه ونواهيه، الإيمان بالخالق هو أول المراحل قبل الكتب والرسُل، وإغفال هذه النقطة يدخلنا في نقاشٍ عقيمٍ لا أول له ولا آخر وهو ليس دليلاً على وجود خالق من الأصل فكيف يؤمن شخصٌ بالخالق لأن فلانًا مِن الناس يؤمن به؟

توضيح آخر لنفس النقطة:

رسول الإسلام كما يدعو الإنسان لم يأمرهم بالصلاة والزكاة في أول الأمر لأن هذه الأمور تأتي بعد الإيمان، فكان العمل الأول له في مكة هو دعوة الناس إلى الإسلام وتبيان الأسباب المنطقية لدعوته، ولذا بعد أن قبِل الناس بالدعوة وآمنوا بوجود خالق انتقل الأمر إلى تبيان عبادتهم ومعاملاتهم، والأدلة التي قدَّمها الرسول على وجود خالق أدلة فهمها الناس ولم تكن بالضرورة من القرآن الكريم، تمام كما روي عن سبب إسلام سيدنا الحمزة وقوله أن يسير في الليل وينظر ويعتقد بوجود خالق، وكذا الأعرابي الذي قال البعْرة تدل على البَعِير والاثر يدل على المسير أفلا يدل ذلك الكون على الخالق القدير، حيث لم يأت هؤلاء وقالوا للرسول أعطنا أدلة على وجود خالق، وإنما هم توصلوا لوجود الخالق بمشاهدتهم وكان الرسول مصدر اطمئنان لهم، ونفس الحال مع سيدنا ابراهيم الذي بحث وأيقن بوجود الخالق حتى قبل أن يصبح نبيًا مرسلاً.

الفصل الرابع – لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود خالق؟

في هذا الفصل لم يقدِّم ريتشارد داوكنز شيئًا جديدًا أكثر من كلامٍ فلسفي أشبهَ ما يكون بالنحيب حول أن الانتخابَ الطبيعي ليس صدفة، على اعتبار أن احتمالية أن الكون نشأ من الصدفة هو احتمال ضئيل لا يمكن أن يضعه الإنسان العاقل ضمْنَ اعتباراتِه، وبالتالي هو يريد أن يبعد صفةَ الصدفةِ عن الانتخاب الطبيعي، ولكنه خلَطَ بشكلٍ عجيب بين الكون والتطور، فنظرية التطور نظرية بيولوجية لدينا مشاهدات حسيه عليها بينما الكون أمر آخر، هذا إذا كنا نريد أن نتكلم بشكل علمي وليس بشكل فلسفي، ولكنه حاول وبدون أي سندٍ علمي أن يطبق مفهوم الانتخاب الطبيعي على الكون كله.

الأدلة التي قدمها داوكنز ليثبت أن الانتخاب الطبيعي ليس صدفةً هو نقله لكلام روائي اسمه "دوغلاس آدم"– لاحظ روائي وليس عالم – حيث قرأ هذا الروائي كتابَيْ ريتشارد داوكنز "الجين الأناني" و"صانع الساعات الأعمى" واقتنعـ حيث إن اقتناع الروائي هو الدليل الذي يقدمه داوكنز لمقلديه ومرديه على صحة ادعائه، ولا أعرف ما المطلوب من القارئ الحر أن يفعل؟ هل عليه أن يقتنع بكلام آدم دوغلاس بدون أن يطَّلِع على الأدلة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأنا أفضِّل أن أتبع الأربعمائة دكتور الذين لم يقنِعهم الانتخاب الطبيعي على أن أتبع رأي الروائي آدم دوغلاس. آدم دوغلاس توفِّي عام ٢٠٠١ وكتاب ريتشارد داوكنزصدر عام ٢٠٠٦ وبالبرغم من أن داوكنز يعتقد بأن الموت هو النهاية، يقول عن آدم دوغلاس في الفصل إنه يتمنى لو أن كتاب "وهْم الإله" سيضحِكُه!! كيف يضحكه وأين، هذه لا يعرفها إلا الراسخون في الإلحاد.

كذلك وليثبت أن الانتخاب الطبيعي ليس صدفة أتى بمقولةٍ للفيلسوف دانييال دانييت يقول فيها "فكرة الحاجة لأشياءَ معقدةٍ ذكية لعمل أشياءَ أقل تعقيدًا، ادعوا هذا نظرية الخلق المنزّل، لم نرَ أبداً رُمحًا يصنع

صانع رماح، ما يريد أن يقوله دانييت أنه من الصعوبة أن نقتنع بأن التصميم الذي نراه في الأشياء جاء من لا شيء (انتخاب طبيعي)، لأننا تعودنا أن التصميم غالبًا ما ينتج عن مصمم أكثر تعقيدًا.

وبالتالي وحسب الفيلسوف دانييت فإن المشكلة ال ٤٠٠ دكتور الذين لم تقنعهم فرضية الانتخاب الطبيعي ليست في قلة الأدلة والاحتمالية الضعيفة وتعارض الموضوع مع المنطق وإنما لأنها فقط أمر لم نعتدْه. هذا التبسيط لأمر معقد يراد منا قبوله بلا أدلة أمر غير مقبول والأدهى أن يستعين عالم مثل داوكنز مختص في الانتخاب الطبيعي بفيلسوف ليثبت أن الانتخاب الطبيعي حقيقة. ويعلق داوكنز على هذه المقولة بقوله "إن اكتشاف داروين لعملية فعالة تناقض الحدس بشكل كامل يجعل مساهمتَه في الأفكار الإنسانية ثوريةً بشكل كبير ومشحونةً بطاقة هائلة لرفع مستوى الوعي، ولا أدري هل نحن بصدد مناقشة إسهامات داروين في هذا الفصل أم بصدد اثبات فعالية التصميم الذكي؟.

يعلم المطَّلِعون أن مِن الأفكار التي تستخدم للكلام عن احتمالية أن الكون أتى من الصدفة فكرة القرد اللامتناهية، والتي تقول لو أن قردًا يطبع على آله كاتبة بشكل عشوائي ولمدة غير محدودة سينتج وبشكل شِبه مؤكد نصًا معيّنًا مثل أعمال شكسبير، وهذا بالفعل ما حدث، حيث إن الكون الواسع احتوى على محاولات عدة لا نهاية لها وكلها عشوائية بلا غاية، وأحد هذه المحاولات أنتجت الأرض، لو سألتَ أيَّ عالِم رياضيات لقال إن هناك احتماليةً لحدوث ذلك أكبر من الصفر، الشخص غير العلمي وغير المطَّلِع قد يقتنع بهذا الهراء ويقول بما أن هناك عددًا كبيرًا جدًا من الكواكب فاحتمال نشوء الحياة وتطور الإنسان والأجواء المثالية في الأرض بالصدفة بدون وجود خالق أمرٌ محتمَل، لتوضيح الفكرة بشكل افضل نذكرها على شكل خطوات كألاتي:

أولا: تقترح الفكرة زمنًا لا محدودًا (لا مُتَنَاهٍ)، وهذا أمر غير موجود على أرض الواقع وإنما مجرد مصطلحٍ رياضي.

ثانيا: الفكرة احتماليًا ممكنة ولكن واقعيًا مستحيلة، وهنا يكمن الفرْقُ بين المختص في الرياضيات البحتة والشخصِ الذي يتعامل مع الواقع باستخدام الرياضيات.

لتوضيح الأمر بشكل أفضل: الاحتماليةُ تساوي إمكانية حدوثِ الحدثِ على عدد مرات المحاولة، فمثلاً إذا كان هناك كيسٌ يحتوي على كُرَتيْنِ إحداهما بيضاء والأخرى سوداء فإن احتمالية أن أسحبَ الكرةَ البيضاء أولاً تساوي ½ أي ٥٠%، ولكن إذا كان لدينا كيسان فإن احتمالية أن أسحبَ الكرةَ البيضاء من كلا الكيسيْن أولا ستكون مساويةً إلى حاصل ضرب احتمالية أن أسحبَ الكرةَ البيضاء أولاً من الكيس الأول مضروبة في احتمالية أن أسحب الكرةَ البيضاءَ أولاً من الكيس الثاني، وبالتالي الاحتمالية ستكون

$$1/2X1/2 = 1/4$$

أي ستكون خمسة وعشرين بالمئة، هذا إذا كان الاحتمالان لا يعتمد أحدهما على الآخر، أي أنهما مستقلان، أمّا إذا كانا غيرَ مستقليْن فالموضوع مختلف، الآن لنَعُد ونحسب احتمالية أن يقوم القرد بطباعة كلمة واحدة فقط وليس أعمال شكسبير –تنازُلا مِنّا وحُبّا في ريتشارد داوكنز– ولتكن الكلمة هي "شكسبير"

ونعطي للقرد لوحةَ مفاتيح فيها سبعةٌ وعشرون حرفًا، بالتالي ستكون احتمالية كل حرف من الحروف الستة هي

$$\frac{1}{27}$$

وبالتالي فإن الاحتمالية ستساوي

$$\frac{1}{27}\times\frac{1}{27}\times\frac{1}{27}\times\frac{1}{27}\times\frac{1}{27}\times\frac{1}{27}=0.00000003=3/1000،000،000$$

بمعنىً آخرَ إن إمكانية حدوث الأمر هو ٣ من أصل مليار محاولة، وهذه النسبة قليلة بالرغم من التنازل الذي قدَّمناه، ولكن لو سألتَ عالِمَ الرياضيات حول إمكانية تحقق هذه الاحتمالية لأجاب بإمكانيتِها لأنه يتكلم بالأرقام لا بالواقع، ولكن لو سألتَ أيَّ عالِمٍ في الهندسة أو في العلوم التطبيقية لقال إن مثل هذه النسبة مستحيلةُ الحصول وتهمَل، ونِسَب أكبر منها بكثير تهمَل ولا نعيرها أيَّ اهتمام، كما لا بُد من ملاحظة أن هذه التجربةَ بسيطةٌ وذاتُ اتجاهٍ واحد ولا يمكن مقارنتُها بتعقيد الكون والحياة والتطور وغيرها من الأمور التي يُراد أن نصدق أنها محض صدفةٍ أو قوَىً عمياء.

وفي محاولة لزيادة هذه الاحتماليةَ قام داوكنز بافتراض أنه عند حدوث طفرة ملائمة فإنه يتم البناءُ عليها بشكلٍ تراكمي كما بينَّا سابقًا عند الكلام عن نظرية التطور، وهكذا ولكن تبقى الاحتماليةُ قليلةً وقليلة جدًا، وقد قَبِلَ داوكنز هذه الاحتمالية الضئيلةَ وقال عنها إنها تحطم اقتراح نظرية التصميم لملء الفراغات! وهذا كلام عجيب وكأن القضيةَ مجرد معاندةٍ وصراع دِيَكة .. أقبلُ بالنسبة الضئيلة لأنني لا أحب فكرةِ الخالق، وهذه النسبة الضئيلة تحطم نظرية التصميم، وإذا كان الأمر كذلك والقضية ليست منهجًا علميًا فمِن حق المؤمن أن يقول إن التصميم وإنْ كانت نسبتُه قليلةً فإنه يحطم فرضية الانتخاب الطبيعي! بعيدًا عن الاحتمالات فقد تم إجراء هذه التجربة بشكل عملي من قِبَل طلاب جامعة بليماوث الأمريكية باستخدام قردة حقيقية، والنتائج كانت كارثيةً حيث لم تنتِج سوى خمسِ صفحات مكونة من حرفٍ واحد فقط.

نرجع إلى الفصل الرابع من كتاب "وهْم الإله" والذي يحاول انتقادَ التعقيدِ غير القابل للاختزال بكلامٍ إنشائي، حيث أجاب بجواب جدلي لا علمي عن تساؤل كيف تطورت العين وأجزائها تعمل بشكل متكامل بحيث لو انتفى أي جزءٍ لما عملت العين، حيث قال "مريضة ماء العين المعتِم التي رفعت عدسة عينها جراحيا لا تستطيع رؤية صورة واضحة بدون نظارات ولكنها ترى ما يكفي لتفادي الاصطدام بشجرة أو الوقوع من حافة جبل، وكما هو واضح فالرد لا يشرح لنا كيف تطورت أجزاء العين الواحدة تلو الأخرى أو بشكل متوازٍ أو بأي شكل آخر مع الأدلة المنطقية العلمية ليقنع به صاحب التساؤل بطريقة علمية وإنما كان الجواب جدليًا لا رائحة للعلم فيه وهذا الجواب للأسف صادر من شخص أفنَى حياتَه في الكلام عن التطور وآلياته كما يدعي، ولكن الواضح أنه أفنى حياته في الجدال حول الخالق حتى أصبحت اجوبته جدالية أكثر منها علمية.

الفصل الخامس – جذور الدين

في هذا الفصل يحاول داوكنز التعرفَ على أسباب وجود الدين، حيث تخبط ذاتَ اليمينِ وذات الشمال وخصوصا أنه يتكلم في مجالٍ خارج اختصاصه الأكاديمي، اعترف عن عجز العِلم في معرفة أسباب أمور سطحية مثل ظاهرة "التنميل" حيث تقوم بعض أنواع الطيور بإدخال النمل في ريشها ويقول لا أحد يعرف بالضبط الغايةَ من التنميل، على الرغم من وجود عشرات النظريات والمفروض أنه يستخدم نفس المنطق عند الإشارة إلى بدء الحياة وغيرها من الأمور بدل أن يعد مريديه بنظرية "كل شيءٍ" كما أوضحنا سابقًا.

على العموم يمكن اختصار الفصل بأنه محاولة لإثبات أن للدين أسبابًا عديدة منها أسباب نفسية، وأسباب سياسية، وأسباب اجتماعية، وأسباب ثقافية، وأسباب عسكرية، وحتى أسباب غريزية، حيث نَقَل عن عالمٍ اسمُه "بلوم" في الصفحة ١٨٢ أن البشر لديهم صفةٌ طبيعية من صلب الدماغ تؤمِّن تأهيلاً طبيعيًا لتقبُّل الأفكار الدينية –وهذه هي الفطرة–وبالتالي فإنه يعتقد بأن الدين ناتجٌ عَرَضي لهذه الأسباب، لكن هنا ممكن لشخص أن يختلف معه ويقول لا يمكن علميا تحديد مَن ناتج مَن، هل الدين ناتجٌ عن هذه الأسباب؟ أم هذه الأسباب هي ظواهرُ وعوارض ومتطلباتٌ للدين؟ فمثلا القرآن احتوى على شرائعَ مجتمعيةٍ ووصايا أخلاقيةٍ وقتالية وأوامرَ ماليةٍ وقوانين للتوريث وأمورٍ نفسية وغيرِها، والنتيجة أن هذه الظواهر أو المتطلبات لم تنتجِ الإسلامَ وإنما الإسلام أنتَجَها أو وضعها ضمن اعتباراته.

أما إذا فرضنا أنه يتكلم عن بدايات الأديان فإنه أيضًا لا يستطيع الجزمَ إلا إذا كان لديه موقفٌ مسبَّق من الدين ويعتبره أفيونًا أو وهْمًا فستكون وجهة نظره أن الدين ناتجٌ عرَضي لِمَا سبق، بالنتيجة ادعاءه أن الدين ناتج عرضي للأسباب المذكورة سابقًا أي أن الدين أمر اخترعه الإنسان أمرٌ لا يمكن إثباته؛ لأنه ببساطة الأمر كلمةٍ مقابِلَ كلمة، فهذا يقول إن الدين نَزَل مع الإنسان بظواهره ومتطلباته التي تتلاءَم مع احتياجات الإنسان وفطرته، وهذا يقول إن الدين كان مرحلة متأخرة عن مرحلة ظهور الإنسان بشكله الحالي، وبالتالي من باب الإنصاف نقول إن القضيةَ متعادلةٌ والدين له تأثيراتٌ وفوائدُ كبيرة ضمن كافة المجالات لا يمكن إنكارها لكل منصف فهو كان العونَ والأملَ للإنسان عبْرَ التاريخ.

يحاول داوكنز وكما مهَّدَ في المقدمة أن يأتي بمفهوم الانتخاب الطبيعي الذي اعترض عليه وعلى قدراته الـ ٤٠٠ عالِم، ويجعله منظومةً ضخمة تخطط للمستقبل وتملك استراتيجة واضحة وليس منظومةً عشوائية تَراكمية، فمثلاً يقول في الصفحة ١٨٣ ما نصُّه "إن الانتخاب الطبيعي قد شكَّل عقولَنا لفعل ذلك –القدرة على البقاء– بشكل فعال وسريع، فهل يمكن أن تخدمنا مثنويتنا وغائيتنا لهذا الهدف؟". بعبارة أخرى يحاول أن يقول إن رغبتنا في وجود غاية للكون وفرقٍ بين الروح والمادة (المثنوية) هي أمرٌ أوجده الانتخاب الطبيعي في الإنسان لأنه أمرٌ يساعده على على البقاء والاستمرار!

وبصراحة قد يجد قارئ كتاب "وهْم الإله" نفسه في بعض الأحيان قارئا لروايةٍّخيال علمي مبنية على أوهامٌ وفرضيات لا سبيل إلى إثباتها على أرض الواقع فمن ذا الذي يستطيع أن يثبت أن الانتخاب الطبيعي شكل عقولنا لفعل ذلك والاعتقاد به، وكذلك يقول في نفس الصفحة: "الأشياء الحية ليست مصممةً ولكن الانتخاب الطبيعي الدارويني أعطاها صفاتِ المبدأ التصميمي"! كنتيجة لكلامه نستنتج أن الانتخاب الطبيعي العشوائي

التراكمي يعطي ويشكل وله غاية وهدف! الفائدة الوحيدة من هذا الكلام أن داوكنز يعترف بوجود صفاتٍ تصميمة للأشياء الحية وهذا أمر ينكره الكثير من الملحدين.

الأكثرُ مِن هذا أنه يقول في ١٨٥ "بالنتيجة فإن الانتخاب الطبيعي شكل العقلَ ليمكنه من استعمال المبدأ الغائي كطريق مختصر، نحن مبرمجون تركيبيًا لنسب الغايات للكائنات التي يهمنا تصرفهًا. يعني إضافة ميزة أخرى للانتخاب الطبيعي وهي برمجة الإنسان، المشكلة في هذا الكلام أن الانتخاب الطبيعي مِن الممكن أن يعمل على تطوير عضوٍ من أعضاء الجسم على المستوى البعيد بحيث يتبنى هذا العضوُ الظروفَ المحيطة بالكائن، فالتطور ما هو إلا عمليةُ تَبَنٍّ للظروف، ولكن أن يبرمج الأفكار ويشكل العقولَ ليعطيها قدرةً على فهْمِ الظواهر بطريقة غائية مما يساهم في بقائها فهذا أمرٌ لا يفعله إلا مصمِّمٌ ولا يمكن نِسبتُه لقوَىً عمياءَ غيرِ مدركةٍ ولو حَرَص داوكنز على ذلك من خلال كتابِه "الجين الأناني".

الفصل السادس – منشأ الأخلاق

يتكلم في هذا الفصل عن مَنشأ الأخلاق وهل منشأها الأديان؟ جاء هذا الفصل كأغلب فصول الكتاب لا علاقة له بوجود الخالق من عدمه، حيث يبدأ المؤلِّفُ بسرد مجموعة من الرسائل ذات النفَس التهجمي والكلمات البذيئة التي وصلته محاولا الإيحاءَ أن المؤمنين ليسوا ذوي أخلاق، وأن الدين ليس هو منشأ الأخلاق، طبعًا لم يذكر لنا داوكنز عددَ الرسائل ذاتِ النفَس الطيب والأخلاق العالية التي وصلته من المؤمنين ولم يخبرنا بنسبة هذا وذاك، لأن الهدف ليس الموضوعيةَ والإنصاف وإنما التركيز على ما يدعم وجهة نظره.

ببساطةٍ يمكن أن نقول إن الأخلاق أمرٌ يعود إلى الإنسان وتربيتِه وثقافته، وهو أمر يستشعر الإنسان جمالَه بغض النظر عن دينِه فهو أمرٌ فطري وبديهي، والأديان تتلاءم وتنسجم مع فطرة الإنسان وبديهيات الكون فهُمَا أمرانِ مترابطان هذا من ناحية، ومِن ناحيةٍ أخرى ليس كل مؤمنٍ بالضرورة خلوقًا، فالإيمان شيء والأخلاق شيء آخر، وفي نفس الوقت لا يمكن إنكار إسهامات الأديان في تقويم التوجه الأخلاقي للإنسان عبر التاريخ وبخلافه لما كان هناك حدود لأفعال الإنسان وتصرفاته، اليوم الدول المتقدمة لديها قوانين صارمة للمجرمين والقَتَلة والمشتغلين بالدعارة والمتاجرين بالمخدارات، وهذا أمر اتفقت ودَعَتْ إليه الأديان من زمنٍ بعيد ... ومحاولة اعتبار جميع المؤمنين على مستوَىً واحدٍ من الثقافة والأخلاق وحتى الإيمان كلامٌ لا قيمة علمية له ولا يستحق أن نتكلم عنه كثيرا. ونفس الشيء بالنسبة للملحدين. الدين وضح المبادئ العامة للاخلاق في زمان كان البعض يعيش فيه كالوحوش بلا قيم ولا مبادئ.

الفصل السابع – الكتاب (الصالح) وأخلاقيات روح العصر المتغيرة

استمرارًا للفصل السابق يتناول داوكنز في هذا الفصل بعضَ الأمور المذكورة في العهد القديم والعهد الجديد مؤكدًا أن الدين ليس من الممكن أن يكون مصدرًا للأخلاق، للأسف وبسبب ما بيَّنَه داوكنز في بداية كتابه وهو أن ثقافته واطلاعه مسيحية، لذا فإنه لم يذكر شيئًا عن القرآن، وقد ينتقد أحدهم داوكنز بقوله كيف يحاكم داوكنز الأديانَ السماويةَ وهو لا يعرف ولا ينقل وجهة نظر الدين الثاني من ناحية العدد والتأثير عالميا وهو الاسلام؟!

ومِن القصص التي تناوَلَها قصص تسكير ابنتَيْ سيدِنا نوح لأبيهما لغرض ممارسة الجنس معه كما ذكرت في العهد القديم، وقصة أن سيدنا هارون هو مَن صَنَع العِجلَ لقوم سيدنا موسى، وغيرها من القصص التي قد يكفي لردِّها السؤالُ عن وجهة النظر القرآنية في الموضوع، وهذا أمر مهم يجب الانتباه إليه حيث يقع الكثير من الملحدين وحتى من المسلمين في خطأ القول إن القصص في القرآن ما هي إلا نسخةٌ من العهد القديم والعهد الجديد. وهذا كلام بعيد عن الصحة؛ فالعنوان هو فقط المتشابه أمّا الغاية والتفاصيل فمختلفة تماما، ولأجل هذا بعثَ اللهُ سيدَنا محمدا؛ و إلا لو كانت القصص متشابه تمامًا فما الداعي لأرساله؟

بعدَأن أَنهَى داوكنز كلامَه عن العهد القديم انتقل إلى العهد الجديد، وهنا يذكر ما نصُّه "إن المسيحَ لم يأخذ أخلاقياتِه من الكتاب المقدس، بل ابتعدَ عنه كثيرًا". وهذا إشكالٌ يجب أن يجيب عليه المسيحيون أنفسهم على اعتبار أنهم يعتبرون العهدَ القديم كتابا سماويا كاملَ الأهلية ومتمِّما للعهد الجديد. المسلمون متفقون مع داوكنز حيث ليس من المعقول أن يكون العهد القديم والجديد من مصدر واحد فالإسلام يعتقد أن السيد المسيح جاء مصحِّحا للانحراف الفكري الذي حصل لدى المجتمع اليهودي، وبالتالي من الطبيعي أن تكون أخلاقياتُه مختلفة.

ينتقد داوكنزعقوقَ المسيح مع والدتِه في العهد الجديد، وكذلك دعوتَه لأصدقائه أن يتركوا أهلَهم، وطبعا مرةً ثانية لو كان مطَّلِعا على وجهة النظر الإسلامية لاختلَفَ الموضوعُ لأن الإسلامَ ردَّ على جزئية عقوق المسيح لوالدتِه وكونِه كان بَارًّا بها، وكذلك بالنسبة لترك الأهل فإن القرآن بيَّنَ ضرورةَ أن يصاحِبَ الفردُ المسلِم أهلَه في الدنيا على الرغم من الاختلاف العقائدي معهم، وهذا أمر طبيعي لأن المرسلين يصححون ما اختلط والتبَسَ على الناس من رسالات الرسَل السابقين لهم. و من الأمور التي يذكرها الذنْبُ المتأصل في الإنسان نتيجة لخطيئة سيدنا آدم كما يعتقد المسيحيون حيث تخلَّصَ الناس منه بصلب المسيح، والإسلام نفى هذه الجزئية بمقولة لاتزر وازرة وزرة أخرى، بشكل أو بآخر اتفق داوكنز في هذا الفصل مع النظرية القرآنية في النظره إلى مفردات العهد القديم والجديد.

ذكر هتلر وستالين وأفعالَهما كنموذجيْن ملحديْن، وهنا نجد تخبطًا فاضحًا فعلى الرغم من تأكيده أن هتلر مشكوكٌ في إلحاده إلا أنه بيَّن أن مسألة الإلحاد والتدين ليست مهمة بالنسبة لشخص شرير كما أنه ليس هناك دليلٌ على أن الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الأشياء الشريرة! وإذا كان الأمر بهذه البساطة فمِن الممكن أن نطبق هذا الكلام على الدين أيضًا ونقول إن بريد الكراهية الذي يصل إليه ليس له علاقة بالدين وإنما راجع إلى الشخص نفسه، من ناحية أخرى إذا كان داوكنز مقتنعا بكلامه فلا أعرف لماذا خصص قِسمًا من هذا الفصل لإثبات أن إلحاد هتلر كان مشكوكا فيه وأنه تأثر بتربيته ونشأته المسيحية؟؟ تناقضٌ واضح.

نسيَ ريتشارد داوكنزأن منعَ أي مظهر من مظاهر التدين في الاتحاد السوفيتي على يد ستالين الملحد لم يكن نتيجة دراسات علمية أو نتيجة عقدة نفسية لستالين، وإنما ناتج عن فهْم يشترك فيه جميع الملحدين باعتبار المؤمنين مجرد جهلة والدين وسيلة لتركيع المجتمعات واقتيادها كالقطعان، كذلك يتغافل داوكنز وبشكل مفضوح عن الكلام عن ستالين في هذا الفصل ويؤكد على أصول هتلر المسيحية، في حين هو يقول

إن الشر والطيبة لا علاقة لهما بالإلحادأو التدين!!! على العموم أفعال ستالين هي نتيجة طبيعة لإلحاده، وإيمانِه بأن الدين هو أفيون قاتل للشعوب كما عبَّر لينين في رسالة كتبها عام ١٩١٣ بقوله: "أي فكرة دينية، كل إله ولو كان صغيرًا، هو قذارة لا توصف، قذارة من أخطر الأنواع والطاعون الأكثر فتكًا، طبعا أكاد أجزم أن كل ملحد من الملحدين المتعصبين سيوافق على هذه المقولة للينين وبشدة، ولنا أن نتصور ماذا سيحصل لو سيطر هؤلاء المتعصبون على الحكم في أي بلد، ولماذا نذهب بعيدًا؟ لنشاهِد ما فعله لينين نفسه عندما سيطر على الحكم:

- فبعدَ يومٍ واحدٍ من سيطرة الثورة البلشفية على الحُكم عام ١٩١٧، أصدر المرسومَ الأول الذي كَتَبه لينين بيده والذي يقتضي بمصادرة جميع الأراضي التابعة للكنيسة والرهبان.
- بعد شهر من الثورة البلشفية صدر مرسومٌ يقضي بحرمان الكنيسة الأرثوذكسية من كافة ممتلكاتها.
- بعد شهر وأسبوع واحد من الثورة البلشفية تم إغلاق جميع الأديرة.
- بعد شهر وأسبوعين تم إلغاء الزواج المسيحي واستبداله بالزواج المدني.
- في الشهر الثاني من عام ١٩١٨ أي بعد ما يقرب الأربعة أشهر على الثورة البلشفية أصدر لينين مرسومًا بفصل الدين عن الدولة، قد يعتقد العلمانيون أن هذا أمر طبيعي وهو أمر طبيعي فعلاً في الدول العلمانية وليس في الدول التي يقودها ملحدون لأن الأمور ستكون أكثر بشاعةً كما سنرى، لأن مقصد لينين ومِن بعدَه ستالين ليس فصل الدين عن الدولة وإنما فصل الدين عن الإنسان وبالقوة إن تطلب الأمر، ولا نستغرب مثل هذه القرارات ممن يعتبر الدين طاعونًا ومدمرًا للبشرية، حيث قام لينين بالقبض على الآلاف من المؤمنين مِن القسيسين والرهبان والراهبان ونقلهم إلى معسكرات العمل (سجون خاصة) ليعملوا فيها بالقوة وذلك أمر طبيعي لدى الملحد الذي يعتقد أن الدين مجرد وهمٍ وما يقوم به هؤلاء تضليل للناس فمِن الأفضل للبشرية أن يتم استغلالها في أمور أفضل ولو بالقوة، ومَن لا يستطيع العملَ يكون مصيره رصاصة في الرأس فهو لا يستحق أن تَصرف عليه الدولةُ أكثر من ثمن الرصاصة ليحيا المجتمع الحر بأمان وسلام، وهذا حدث في المانيا حيث كان يتم حرق وقتل الكبار في السن والمعوقين والمنغوليين تحت القاعدة الداروينية المعروفة البقاء للأصلح، وبالطبع تطور الأمر بالانتخاب الطبيعي حتى أصبح تعليم الأطفال الدينَ جريمةً عام ١٩٢٧ يحاسَب عليها بالسجن عشر سنوات (رقم الفقرة في القانون ٥٨-١٠) وأصبحت حرية الصلاة لله مسموحة إذا كان مَن يسمع الصلاة الله فقط!

قد يقول قائلٌ إن لينين وساتلين وماوتسي تونغ وكاسترو وغيرَهم ليسوا ملحدين وإنما هم شيوعيون، وهذا كلام غير واقعي لأن محاربتهم للدين كانت مبنيةً على أساس فكرهم الإلحادي وليس الشيوعي، كارل ماركس وهو أب الشيوعية لم يقُل سوى مقولته المشهورة "الدين أفيون الشعوب" وركَّزَ في حياته على الاقتصاد وكان يعتقد أن بتحقيق المساواة سيتم ترك الدين، وبالتالي لم يكن من أهداف الشيوعية جبر الناس على ترك التدين وغلق الكنائس وما إلى ذلك، ولا بد من التأكيد على ضرورة فهْمِ الفرق بين دولة يقودها ملحد ودولةٍ يقودها

علماني؛ حيث إن الدستور الأمريكي بالرغم من إقراره بفصل الدين عن الدولة إلا أنه في نفس الوقت يقر بضرورة احترام جميع المؤسسات الدينية واحترام حرية أفرادها بممارسة تعاليمهم وشعائرهم بكل حرية، فالدولة التي يقودها الملحد يكون هدفها الأساسي طمسَ الدين وإلغاءَه من حياة مواطنيها وليس مجرد مَن يستغل الدين لتحقيق منافعَ معينةٍ.

وعلى الرغم من كل هذا قد يقول قائلٌ إن أعمال ستالين ولينين كانت بهدف سياسي وليس نتيجة موقفهما الإلحادي، وهذا الكلام يمكن الإجابة عليه ببساطة عن طريق دراسة واقع الحكومات الدكتاتورية التي على الرغم من عدم إيمانها إلا أنها لم تصطدم بالمؤمنين إلا عندما يقف المؤمنون بالضد من مشروعها السياسي كما في العراق في عهد صدام حسين وفي ليبيا في عهد معمر القذافي وفي سوريا كذلك، ولم يؤدِّ ذلك في كل الأحوال إلى محاولة عزل الدين عن الناس وإنما إلى عزل الدين ورجاله عن السلطة، وهذا يثبت أن ما حدث في الاتحاد السوفيتي هو نتيجة الموقف الإلحادي للينين وستالين.

للأسف يصرف الملحدون الكثيرَ من الجهد والوقت في محاولة فاشلة لإبعاد أفعال ستالين عن إلحاده فتارةً يقولون هو نزعَ الملكيةَ الفردية من الجميع سواءٌ أكانوا مؤمنين أم غير مؤمنين، وهذا أمر واضح باعتباره شيوعيا، فببساطةٍ يمكننا معرفة سبب موقفه من الملكية الفردية ولكن لا يمكننا فهم موقفه من الدين بعيدًا عن إلحاده وإيمانه بأن الدين وأتْبَاعَه مجرد حمقى لا فائدة تترجى منهم وهذا هو الدافع من وراء حربِه الواضحة ضد الدين والمتدينين، وخصوصًا إذا علمنا أن الشيوعيةَ في حد ذاتها لا علاقة لها بالدين، وحتى أكون أكثر وضوحًا فإنني بالتأكيد لا أقول إن جميع الملحدين لديهم التوجه الستاليني اللينيني ولكن يجب الاعتراف بأن تصرفاتِ القادة المحلدين الإجرامية ك ستالين لم تكن لتحدث لولا إلحاده فهذا الموقف العدائي تجاه الدين لم يكن نتيجة للشيوعية ولم ينتج لأسباب سياسية أيضًا.

بعد أن ينتهي داوكنزمن محاولاته لإثبات أن هتلر كان مسيحيًا على الرغم من إقراره بأن الشر والطيبة لا يتعلقان بكون الشخص ملحدًا أو مسيحيًا، يريد وبشكلٍ بهلواني أن يقلب الطاولة على المؤمنين مرةً أخرى في نهاية الفصل متناسيًا كل الدماء التي أسالَها الملحدون ليقول: " نحن نبرر قتل بعضِنا البعض من خلال الإشارة إلى كتابات قديمة–يقصد الكتبَ السماوية–، مَن كان يعتقد بأن شيئا مأساويا كهذا يمكن أن يحدث؟" ولا أدري أيَّ إشاراتٍ في كُتُبٍ قديمة اتَّبَعها ستالين ولينين وغيرهما؟ وأي إشارات يتبعها الملحدون وهُم يتهمون كافة المؤمنين بالجهل والتخلف وقلة البصيرة وغير ذلك؟؟

آخر سطر في هذا الفصل أكد داوكنز على أمر مهم قد ناقشته مرات عديدة وهو لو كانت الإنسانيةُ ملحدةً فهل سنجد مَن يضحي في سبيل القيم والمبادئ؟، هل سنجد مَن هو مستعد لأن يستشهد في سبيل الحرية والشرف والوطن والآخرين؟ هل سنجد ملحدا مستعدا أن يعطي فرصتَه العشوائيةَ في الحياة والتي بنهايتها ينتهي كل شيء لفائدة شخص آخر؟ أجاب داوكنز في نهاية هذا الفصل بشكلٍ واضحٍ حيث قال: "مَن ذا الذي سيَخرج للحرب بسبب عدم الإيمان بشيء ما؟" وكأن الحروب لا سبب لها سوى الإيمان بشيء وليس للحروب أهداف منها الدفاع عن النفس والدفاع عن الحقوق المشروعة، داوكنز ونتيجة لموقفه المتطرف من الدين لا يرى شرًا في عالم إلا ويرى الدين المحرك الأساسي له.

الفصل الثامن – ما هي مشكلة الدين؟ ما سبب كل هذه العدوانية؟

يستمر مسلسل الكلام في هذا الفصل عن كل شيء ما عدا مسألةَ وجودِ الخالق من عدمه! حيث يتكلم عن أن إيمان المؤمنين ناتج عن قراءة كُتُبِهم المقدسة فقط وكأنهم لا يفكرون فيما حولهم من ظواهر، وإنما فقط هم آمنوا لأجل كتابٍ وجدوه، وهذه نظرة سطحية واضحه لإيمان المؤمنين.

دواكنز في كلامه يعبر عن أنه يؤمن بالأدلة وهذه الأدلة تعني الحقيقةَ بالنسبة له، ويضيف أنه يؤمن بالتطور لأن الأدلة تشير له فهو حقيقة وسينقلب ضدها بين ليلةٍ وضحاها عندما تظهر أدلة ضدها! الخطأ الذي وقع فيه داوكنز في هذه الكلمات هو قوله "أؤمن بالأدلة" والمفروض يقول "أنا أقبل الأدلة" وذلك لأن القضية ليست مسألة إيمان من عدمه وإنما هي تجربة وملاحظة، ولكن هو اضطر لأن يقول "أؤمن" لأن لا مشاهدة حقيقية على التطور بالشكل الذي يدعيه وينظِّر له بمعنى لا يمكن أن نقوم بتجربة مختبرية تثبت أن خليةً معينة نشاهدها تتطور عن طريق الانتخاب الطبيعي لتصبح إنسانًا عاقلاً، وبالتالي هي مجرد تصورٍ وتوقُّع لِمَا حدث في ضوء المعطيات والمكتشفات ولكن هل يمكن أن نثبت أن التطورَ حدث بدون تدخلٍ إلهي أو أنه مجرد فعلٍ عشوائي؟

الخطأ الثاني الذي وقع فيه دوكنز هو اعتباره التخمينات العلمية بناءً على المكتشفات والأدوات حقائقَ، وفي الحقيقة هي ليست حقائقَ وإنما دلائل تشير إلى موضوع معين ويتم فهْم هذه الدلائل عن طريقين الطريق الأول هو مقدار العلم والمعرفة التي لدينا، والثاني الأدوات التي نستخدمها. وكلا الأمرين قابلٌ للتطور فالعِلم النسبي يتطور باستمرار، ولذا لدينا نظريات يضرب أحدها الآخر بمقدار ١٨٠ درجة كما أشرنا سابقا، ولذا تعابير مثل أؤمن بالعلم والحقائق ليست تعابير صحيحية عندما نتكلم عن العِلم النسبي.

يبيِّن داوكنز في هذا الفصل أن عداءَه للدين سببه التطرف الديني لأنه يقوم على الإساءة للمشاريع العلمية بشكل متواصل وأنه يعلمنا أن لا نغير رأينا ولا يريد لنا أن نتعلم المعلومات المثيرة المتوفرة. كلام داوكنز هذا يتعارض مع ما ذكره في الفصل الثاني صفحة ٧٠ من النسخة العربية التي هاجم فيها المؤمنين الذين لا مشكلة عندهم مع نظرية التطور كالبابا يوحنا بولس الثاني الذي وصفه بالمنافِق كما ترجمَه مترجم الكتاب أو المهرطق كما كتبَه داوكنز في النسخة الأصلية، وأن الخلاف الحقيقي هو بين العقلانية والغيبية– كما يظن وفي حقيقة الأمر الدين ليس غيبيا كما سنوضح– حيث سمى مَن يؤمن بالتطور مِن المؤمنين بالمتملقين، وهنا أشعر بأن داوكنز لا يعرف ما يريد وإنما حاله حال الزوج الغاضب الذي يلوم زوجتَه على كل شيء، فلو وجد غبارًا على الطاولة صرخ عليها وإنْ مسحت الغبارَ أيضًا صرخ عليها بحُجة أنه كتبَ عليه رقم هاتفٍ مهم، وهكذا إن كان المؤمن يقر بالتطور فهو منافق، وإن كان يقف ضده فهو يقف ضد العِلم وهذا سبب عدائه.

أكثر من ذلك يقول داوكنز إن الاعتدال الديني يفتح الباب للتطرف حيث يعلل ذلك بقوله إن جو الإيمان الديني المعتدل هو المناخ الذي يزدهر فيه التطرف، وهكذا وببساطة يصبح الدين هو الهدف ولا أجد فرقا كبيرا بين كلام داوكنز هذا ورسالة لينين عام ١٩١٣واعتباره الدين عبارة عن طاعون، وأنا متأكد أن ستالين

وهتلر وغيرهما لديهم نفس الفكر إزاء المؤمنين فعدم الثقة بالمؤمن موجودة لدى داوكنز بغض النظر عن موقفه من العلم.

وفي الحقيقة إن الملحد في العالم العربي يملك نفس وجهة النظر تجاه الدين حيث يعتبره سببا لعدم التفكير وتجميد العقل ويقبل بأي تفسير أكل عليه الزمان وشرب وبدون أن يفكر في التفسيرات الأخرى أو يطلع عليها وذلك ضمن قادة تطابق المودّة على الرغم من أن القرآن يدعو المسلمين إلى المسير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق ويدعوهم للقراءة، والأمثلة كثيرة في هذا المجال. أمّا على الواقع العملي فالمسلمون في أوروبا وأمريكا وبقية المؤمنين هُم في الطليعة، والملحدون أقلية على كل الأحوال، ووجود كم متطرف ضد بعض النظريات العلمية كالتطور قد يكون ناتجًا عن موقف مَن يؤمن بالتطور من الدين وهو موقف غير علمي دفعَ بعض المؤمنين لاتخاذ موقفٍ متخوف من نظرية أواثنتين وليس من العلم بشكل عام، وبالطبع لكل فعل رد فعل وبغض النظر عن الأسباب فهُم قلة ولا يمكن أن نقول بشكل علمي إن كل المؤمنين متطرفون ولديهم موقف غير إيجابي من العلوم، فمثل هذا القول ينُمُّ تعصب القائل وجهلِه.

وليثبت داوكنز وجهة نظره نجده يستعين بكلمات بعض الأمريكان المتعصبين، وهذا أمر لا يستحق أن يرد عليه ما دام لا يوفر إحصائياتٍ علميةً دقيقة حول عدد المتطرفين والمعتدلين في أمريكا.

يدافع داوكنز في هذا الفصل عن الإجهاض والمثلية الجنسية وبالطبع جميع الملحدين العرب لديهم نفس الموقف، والسبب أن الأديان حرمت هذه الأمور ولو أن الأديان أباحتها لاعترضوا عليها أيضًا وقالوا أي إله يَقبل بالإجهاض والشذوذ!؟ على العموم لا يهمني موقفُه من هذه الأمور لأن لا علاقة له بجزئية وجود خالق من عدمها ولكن لابُد من الإشارة إلى أن موقف الملحدين من هذه الأمور ناتجٌ بسبب موقف الدين منها ولذلك هُم تبنوها كجزءٍ من رفضهم للدين، ولو أن الدين أقر الإجهاض والمثلية لرأيت الملحدين أول مَن يعارضها على اعتبار أن الإجهاض قتلٌ لنفس بشرية، وأن المثلية هي أمر شاذ عن الطبيعة الإنسانية، ما أحِب أن أذكره أيضًا أنه يقارن بين حالات الإعدام والإجهاض ويقول إنه ربما سينال المحكومون بالإعدام بعضَ الرحمة إنْ أخبروا القضاةَ بأنهم كانوا في يوم من الأيام بويضة، هذه المقارنة سخيفة ولا أعرف بأي منطق كتبها فما علاقة عملية إجهاض طفلٍ لم يولدْ بعدُ قد يكبر ويصبح عالِمًا كآينشتأين أو حتى مجرما كأسامةَ بنِ لادن بإنسان مجرم حُكِم عليه بالإعدام؟ مثل هذا التساؤل لن يجيب عليه إلا الراسخون في الإلحاد.

يثير داوكنز في هذا الفصل أمرًا مهمًا وأنا أتفق فيه معه تمامًا، عن أن وصف المجرم أسامة بن لادن بـ الشرير هو محاولة للتهرب من الإجابة الصريحة لسؤال مهم جدًا، والإجابه كما يراها داوكنز هو أن ابن لادن يؤمن بحقيقة القرآن حرفيًا. طبعًا أنا أتفق مع الجزء وهو أن تسمية ابن لادن بالشرير فقط أمرٌ غير كافٍ بالمرة، وإنما على المسلِم أن يوضح لماذا هو شرير؟ وهل هو يوافق القرآن حرفيًا أم لا؟

وهنا أنا أختلف مع داوكنز حول أنه يطبق القرآن حرفيًا كما يدعي، ودليلي على ذلك هو كتاب "نبتة إبليس" الذي ألَّفتُه ليبيّن لأمثال ريتشارد داوكنز خطأَ نظرتِهم وأن الخلل ليس في الدين أو الإسلام أو القرآن وإنما في طريقة فهْم المتشددين، وأمَّا ماذهب إليه داوكنز في هذا الفصل بأنه علينا أن نلوم الدينَ نفسه وليس

التطرف الديني فهو ناتج عن كسل داوكنز وعدم رغبته في فهْم مباني الإرهاب والمتطرفين، وفي فهمه السطحي للدين حيث يظن أن هذا كذاك وذاك كهذا، وهذا هو الاتجاه الأعم والأغلب عند الملحدين فكلهم يعتبرون أنفسهم أعلَمَ من المؤمنين بأديانهم.

يقول "سام هاريس": "المتدين المعتدل هو مزيج من المعرفة العلمانية والجهل بأصول الدين" وهكذا الكثير من الملحدين العرب حيث غالبا ما يتحججون بانتقائهم آياتٍ قرآنية يفهمونها بشكل خاطئ نتيجة الاجتزاء الذي يقومون به ويقولون هذا هو الفهم الصحيح والذي غالبًا ما يكون مشابهًا لفهم المتطرفين كداعش والقاعدة، وينقلونٍ من الأحاديث أسوأ ما فيها ومن السيرة أسوأها، وبما يتلاءم مع إيمانهم الإلحادي حيث تتوقف عقولهم عن أي فهم معتدل لهذه الآيات أوحتى أن يكونوا منصفين بنقل الأحاديث والروايات التي تناقض ما ينقلونه من ضعاف الروايات حتى قال أحدهم متهكمًا خذوا دينكم عن الملاحدة، فالحق الحق أقول لكم إنهم وحدهم مَن يعرف مَن يمثل الإسلام" ..!

قد يكون هذا الفصل أكثر فصلٍ تكلم فيه داوكنز عن الإسلام، ولكنه لم يستخدم أفكاره لقلة معرفته بالإسلام ولكنه استعان بأفكارأناسٍ آخرين وطبعًا الكلام لم يكن عن الخالق من عدمه وإنما عن التكفير والإرهاب. من بين من نقل عنهم "باتريك سكاديو" مدير وكالة الدراسات الإسلامية والمسيحية في لندن، هذا الشخص منتمٍ إلى الديانة المسيحية –من أبٍ هندوسي وأُمٍ مسلِمة– ويتَّهَم بأنه مِن المتعصبين ضد الدين الإسلامي، كوكتيل من التناقض؛ داوكنز الملحد يستعين بكلمات شخص مسيحي معروف تطرفه ضد الإسلام في كتاب يتكلم عن "وهْم الإله" ليعبر عن وجهة نظره في تعاليم الإسلام وليس عن وجود الأخلاق من عدمه!!

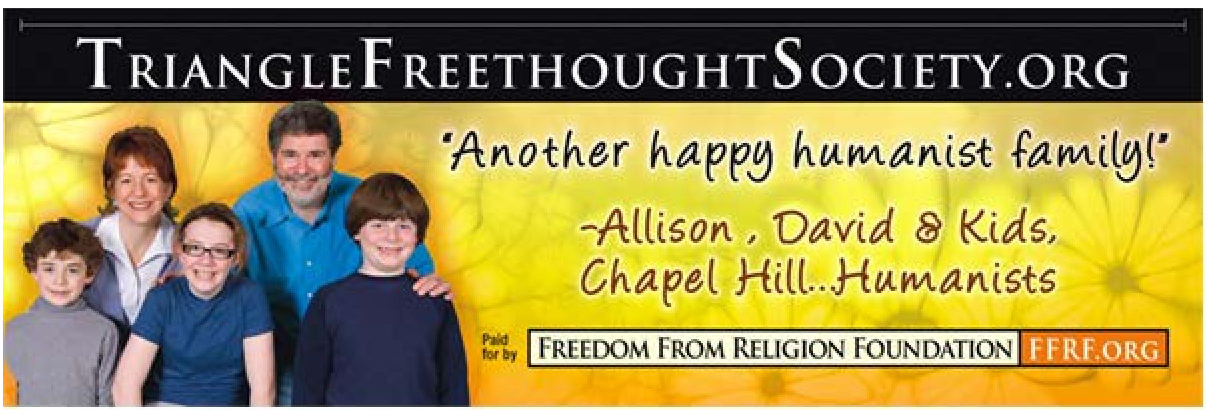
المهم يتكلم السيد باتريك عن ما يسميه الخليط من آيات الجهاد والسلام في القرآن فيقول: "لو أردتَ السلام فستجد آيات السلام، ولو أردتَ الجهاد فستجد آيات الجهاد" ويُعيد نفس الشبهة القائلة بأن القرآن المَكي أكثر رأفةً ورحمةً من القرآن المَدني في حين أن آيات لا إكراه في الدين وضرورة البر والقسط مع المخالفين كلها ضمن الفترة المدنية، وقد أشبَع كتاب" نبتة إبليس" هذه النقطة بحثًا وتفصيلاً وهي نقطة بصراحة مبتذلة وسخيفة، ويستعين بكلمات جماعة متطرفة اسمها "الغرباء" في لندن ليثبت وجهة نظره ولا أعرف لماذا لا يستعين بكلمات جماعة معتدلة لتدحض وجهة نظره؟ أو على الأقل ومن باب الإنصاف ينقل وجهات النظر المختلفة.

الفصل التاسع – الطفولة (الانتهاك والهرب من الدين)

كالعادة لا بُد وأن يضع الملحدون بعض المقبِّلات والتوابل في كلامهم عن الإله، وإنْ كان كتاب "وهْم الإله" كله مقبلات وتوابل، ومِن هذه المقبلات قضية الأطفال وانتمائهم الديني وهل يجب أن نسميهم مسلمين أم مسيحين أم ملحدين أم لا أدريين أم لا شيء؟ فالطفل مهما يكن اسمه أو ما يُكنَى به فإنه سيختار طريقه بعد البلوغ، ولو كانت الأفكار تورث لكان الشعب العراقي اليوم ذا أغلبيةٍ شيوعية؛ حيث إن جيل الستينيات في العراق كان جيلاً شيوعيًا، ولكن وكما هو واضح أن الأطفال يكون لهم رأيهم في الدين والسياسية وغيرها، وهذا الرأي قد يتأثر بالمحيط ولكنه مستقل وسنناقش هذا الموضوع لاحقًا.

ولكن ما يمكن أن نقوله ونؤكد عليه أنه كما أن مِن حق الأب الملحد أن يدرس وينقل لأبنائه اعتقاده فكذا مِن حق الأب المؤمن وبالنتيجة يختار الأطفال ما يريدون عندما يكبرون، أمّا مسألة تسمية هذا الطفل ملحدا أو مؤمنا فلا قيمة فعلية لها على المستوى البعيد وخصوصًا في وقتنا الحاضر وقت سهولة الوصول إلى المعلومة، ممكن في العصور السابقة ونتيجة لصعوبة تداول المعلومات والسفر يمكن القول بالقوالب الجاهزة، ولكن التاريخ يخبرنا أنه حتى في ذلك الوقت كانت هنالك الاختلافات والنقاشات والتحولات الدينية والثقافية وغيرها.

من الطريف أن إحدى أكبر المنظمات الإلحادية في أمريكا وهي منظمة "الحرية من الدين" تنشر صورًا فيها أطفال ورضَّع وتقول إنهم ملحدون وقد التقيتُ السيدةَ "آني غايلور" مديرة المنظمة في مؤتمر إلحادي في بترسبورغ في ولاية بنسلفانيا وسألتُها عن هذه الصور وكيف يتم وصف الأطفال بالملحدين فقالت ما نصه "إنه شيء جميل أن نصور العائلة بكاملها وقد بانت سعادتها نتيجة لموقفها الإلحادي"!! وهو أمر مضحك كيف يقبلون هذا الأمر على أتباعهم ويستنكرونه على المؤمنين؟



البعض يقول إن التعليم الديني والإيمان بالمقدس ورجال الدين سببُ تخلفِ المنطقة العربية مثلاً، طبعًا هذا الكلام يتم دحضه ببساطة عند النظر إلى خارطة العالم وبالخصوص في دول العالم الثالث لنجدها متوزعة في كل العالم أوروبا الشرقية، آسيا، إفريقيا، أمريكا الجنوبية، أمريكا الوسطى، فتخلُّف الدول ناتج عن تخلف المؤسسة الحاكمة، وكنتيجة لذلك يتخلف النظام الاقتصادي والتعليمي والعمراني وكل شيء بما في ذلك النظام الديني. فتخلُّف رجالِ المؤسسة الدينية هو نتيجة وليس سببًا عِلمًا بأنه وإنْ ظهر رجلُ دينٍ معتدل ومثقف فسيصفه الملحدون بأنه منافق ومرقَّع، لأنهم يلعبون على الحبليْن إن كان متخلفًا فهو عز الطلب ويركزون عليه ليثبتوا وجهة نظرهم ويعتبرونه الممثل الحقيقي للدين، وإن كان مثقفًا ومعتدلاً فإنه منافق ومرقَّع ولا قيمة حقيقية لكلامه سوى التجميل لِمَا لا يمكن تجميله.

الفصل العاشر: الفجوة المهمة جدًا

هذا الفصل يشير إلى نقطةٍ مهمة وهي الأثر الروحي للدين، وطبعًا يعالج داوكنز هذا الأمر بنظرته السطحية المعهودة حيث يشبه الدين في هذا الفصل بالصديق غير الحقيقي الذي يتخيله الطفل في صغره

ويقول ما نصه "في اعتقادي أن الصديق التخيلي له علاقة مباشرة بالأديان" وهذا الاعتقاد لا يستحق أن نقف عنده طويلاً ولكن هذا الاعتقاد مهم من حيث إنه يوضح لنا تصور داوكنز السطحي لمفهوم الإله وأنه لا يفرق بين الأوهام كالصديق التخيلي للأطفال أو سانتاكلوز أوإناء الشاي الصيني الذي يدور حول القمر، وبين الحقائق التي يقودنا إليها الواقع، فعندما تحدث سرقة مثلاً لا ننتظر أن نرى السارق لنعرف أن مَن قام بالسرقة هو السارق، وإنما ما دل على وجوده هو السرقة فوجود السارق هو حقيقة وإنْ كنا لا نراه.

أجتمِعُ أسبوعيًا مع مجموعة من الملحدين الذين يناقشون كل أسبوع فكرةً، وصادَفَ أنهم تكلموا عن السعادة في أحد الأسابيع وتم الاقتباس من كلام "مارتن سليجمان"–عالِم نفس أمريكي ورئيس سابق لمنظمة علماء النفس، يعمل مدرِّسًا في جامعة بنسلفانيا الأمريكية –بيَّن فيه أنه يمكن القول إن هناك ثلاثة أنواع من السعادة يمكن أن يحصل عليها الإنسان في حياته:

النوع الأول: الحياة البهيجة – حيث يحصل بها الإنسان على أكبر قدرٍ ممكن من البهجة عن طريق التسوق والسفر وحتى المخدرات وعن طريق إيجاد طُرُقٍ مختلفة للحصول على أكبر فائدة وبهجة ممكنة من هذه الأمور، المشكلة أن هذا النوع من السعادة وقتي ويفقد طعمَه وقيمته بمرور الزمن .

النوع الثاني: الحياة الجيدة – وهذا النوع يتحقق عندما نقوم بعمل نحبه أو قراءة كتاب مشوق حيث يمر الوقت دون أن نشعر به، ولكن على الرغم من عدم شعورنا بالوقت الذي نقضيه فإننا نشعر بسعادة حقيقة. مشكلة هذا النوع من السعادة انها معزولة عن حياتنا الفعلية فقد تكون مجرد لحظات استراحة.

النوع الثالث: الحياة ذات المعنى – هذه الحياة نحصل عليها عندما يكون لحياتنا معنى أبعد وأكبر من مصلحتنا الشخصية وحياتنا اليومية.

ووضح مارتن سليجمان الحقيقة يمكن أن نحصل عليها من النوع الثالث حصرًا.

تَنَاقَشَ أفراد المجموعة حول مايمكن أن يعطي للحياة معنى حقيقي بحيث نتجاوز به السعادة الوقتية ولحظات الاستراحة؟ المشكلة هي كيف يمكن أن يكون للحياة معنى والملحد يعتقد أن الحياة بلا معنى ومجرد صدفة؟ صدفة الانفجار الكبير، صدفة الأرض، صدفة الحياة وصدفة التطور، والأهم من كل ذلك لا عدالة في الحياة، عشوائية كاملة حيث لا عدل ولا مساواة!

وانتهى الحوار بدون التوصل إلى إجابة مقنعة ولكن داوكنز في كتابه كان أكثر جرأة حيث اعترف بهذه المشكلة وقال ما نصه "حتى لو أننا قدمنا تنازلاً كبيرًا وحتى لو تبين بشكل حاسم أن الإيمان بوجود الله ضروري وأساسي للاستقرار النفسي والعاطفي، وحتى لو أن كل الملحدين مصابون بقلق انتحاري بسبب الشعور بالفراغ الكوني فلن يعتبر أي مما سبق وبأي شكل مهما كان صغيرًا دليلاً على أن الإيمان الديني حقيقي".

وهذا اعترافٌ صريح بأهمية الدين وجماله والقيمة التي يعطيها للحياة، فالإنسان بدون الدين والإله والعدالة الموعودة سيكون كل شيء في الحياة عنده ممزوجًا بطعم العبث والظلم واللامعنى، أما قول داوكنز فإن ذلك لن يساهم في كون الدين حقيقة وهذا أمر متوقع منه، وكيف لا وهو يشبه الإله بالطفل التخيلي ساعةً وبإناء الشاي ساعةً أخرى؟ ما يجعل الحياة جميلة وذات معنى هو حقيقة وجود الخالق ولن يساهم فهم داوكنز

السطحي لدين بانتفاء هذه الحقيقة، وفي حقيقة الأمر أن كل من يفهم ويتصور الخالق بنفس سطحية فهم داوكنز بالطبع سيكون ملحدًا، الحياة ذات المعنى التي يشير مارتن سليجمان إليها لا نجدها إلا مع الله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) سورة طه.

أوغست كونت (عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي شهير عاش في القرن التاسع عشر) قبل داوكنز بكثير تنبه لأهمية الدين في حياة الناس حتى أنه اعتبره ضروريًا ولا بد منه بالرغم من عدم قناعته بالأديان، وهذا الاعتقاد دفعه لتأسيس دين أسماه الدين الانساني ليوفر الأجواء الإيجابية على الصعيد الاجتماعي والنفسي التي يوفرها الدين لغير المؤمنين.

(وهْم الإله – الخاتمة)

مررنا وبشكلٍ سريع على كتاب "وهْم الإله " والهدف من هذه العرض السريع هو نقل نموذج عن كُتُبِ الملحدين وطريقة تفكيرهم وتعاملهم مع الموضوع، ريتشارد داوكنز عالِمَ أحياء لم يناقش في هذا الكتاب اختصاصَه العلمي وإنما نقل لنا وجهة نظره الشخصية وأعتقدُ أن الكتاب لم يناقش مفردة الخالق بشكل جِدي وإنما ركّز كثيرًا على أمور ثقافية وتقاليدَ اجتماعيةٍ وقانونية لبعض البلدان وانتقد تصرفاتٍ وأفكارًا قد يقوم بها بعض المؤمنين، ولكن في نفس الوقت ينتقدها مؤمنون أخرين وبالتالي فإنها لا تعتبر دليلاً ذا قيمةٍ لمسألة وجود الخالق من عدمه، فالكتابُ ليس كتابًا علميًا بل هو كتابٌ نثري لاحظنا فيه معالمَ أو أفكارا يلتف حولها الكثير من الملحدين منها:

أولا – الموقف من المؤمنين المعتدلين حيث يتم اعتبارهم منافقين أو جهلة .

ثانيا – التضخيم اللا مبرَّر لمسألة الأطفال وتعليمهم.

ثالثا – اعتبار أن الدين يُعطي إجاباتٍ جاهزةً مقدسة ويمنع التفكير ويحجِّمه وقد يكون بعض رجال الدين هم السبب في هذه النظرة للدين.

رابعا – عُقَدة النقص، حيث يحاول معظم الملحدين جعْلَ بعضِ الشخصيات المهمة عبر التاريخ شخصياتٍ ملحدةً كما فعل داوكنز مع آينشتاين، وكذا يحاول بعض الملحدين العرب فعْلَ نفسِ الشيء مع الدكتور فرج فودة، والدكتور علي الوردي.

خامسا – الفهم السطحي للدين ومسألة الخالق.

سادسا – التأكيد والاقتباس من أفكار المتطرفين والمجرمين واعتبارهم الممثل الرسمي للدين وأصحاب الماركة التجارية المعترَف بها رسميا في عالم الملحدين .

سابعا – الموقف من الإجهاض والمثلية، علمًا ان هذا الموقف نتيجة لموقف الأديان من هذين الأمرين ولو كان موقف الأديان إيجابًا لكان موقف الملحدون سلبيًا.

ثامنا– الإيمان الغيبي بالنظرية النهائية (نظرية كل شيء) وأنها ستأتي في يوم من الأيام لا محالة.

وغيرها من المتشابهات التي يجتمع حولها أغلب الملحدين، هذا التشابه في المواقف بين الملحدين يتجاوز مسألة الخالق بكثير يعطينا صلاحية لتسمية الإلحاد "دينًا بالاعتماد على مرتكزات الملحدين أنفسهم، وكدليل على ذلك العبارة التي استخدمها داوكنز في مقدمة كتابه على لسان "روبرت بايرسنك" التي تنص على الآتي

"عندما يعاني شخصٌ واحد من الوهم يسمَّى جنونًا، وعندما يعاني مجموعة من الأشخاص من نفس الوهم يسمَّى دينًا.

فهذا النَّص ينطبق تماما على الكثير من مواقف الملحدين المتشابهة والتي لا تتجاوز الأوهام وخصوصًا ان لا علاقة لها بوجود خالق من عدمه، مَن يقرأ هذا الكتاب بدقة سيخرج بنتيجةٍ مفادُها أن الإلحاد وجهة نظر غير علمية، وإنما وجهة نظر دينية شخصية تجمع الأشخاص حول مواقف محددةٍ وهو يحمل ملامح الدين حسب التعريف أعلاه، كذلك ممكن أن نستخدم ما ورد في الفصل الثالث من كتاب "وهْم الإله" على لسان "سام هاريس" كدليل على أن الإلحاد ليس فقط وجهة نظر دينية وإنما دين متكامل حيث قال "نحن نملك أسماءَ للأشخاص الذين يؤمنون (يعتقدون) بأشياءَ معينةٍ بلا سندٍ عقلي، عندما يكون هذا الإيمان شائعًا بين مجموعة من الناس نسميهم متدينين وبخلافه يمكن تسميتُهم غاضبين أو متوهمين".

قد يعترض بعض الملحدين على طريقة الاستنتاج أعلاه ولكن للأسف أنا أضطر أن ألزم المقابل بما ألزم به نفسَه عندما يكون كلامه مجرد كلام إنشائي بلا قاعدة علمية يستند عليها. ومن هذا الباب وكدليلٍ ثالث نذكر لقاء ريتشارد داوكنز مع إذاعة الـ بي بي سي حيث سأله المقدِّمُ السؤالَ الآتي: "ماهو الشيء الذي تؤمن به ولا تملك دليلاً عليه؟" فأجاب ما نصُّه: "جوابي سيكون حول الداروينية لأنها اختصاصي، الداروينية مختصة بالحياة على سطح الأرض، ولكن أنا أؤمن أن كل الذكاء وكل الإبداع، وكل التصميم في أي مكان في الكون هو نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للانتقاء الطبيعي الدارويني بمعنى أن التصميم آتٍ بشكل متأخر للكون بعد فترة من التطور الدارويني. التصميم لا يمكن أن يتقدم على التطور، وبالتالي لا يمكن أن يكون الميزة الأساسية". ويمكن متابعة نص اللقاء على موقع مؤسسة ريتشارد داوكنز

http://old.richarddawkins.net/articles/67-what-do-you-believe-to-be-true-but-cannot-prove

Richard Dawkins: Well, my response was about Darwinism, which is my own field. Darwinism is the explanation for life on this planet, but I believe that all intelligence, all creativity, and all design anywhere in the universe is the direct or indirect product of Darwinian natural selection. It follows that design comes late in the universe, after a period of Darwinian evolution. Design cannot precede evolution and therefore cannot underlie the universe. That was my response.


The Richard Dawkins Foundation
FOR REASON AND SCIENCE

NEWS

Home | RDF Productions | Content & Discussion | Events | Store | About | Donate

This site is not maintained. Click here for the new website of Richard Dawkins.

What do you believe to be true but cannot prove?

By RICHARD DAWKINS - BBC

Added: Tuesday, 09 May 2006 at 7:00 PM

From Edge.org

Aired: Sunday, January 9. 2005 0900-1000

What do you believe to be true but cannot prove? And what kind of problem does that pose to Scientists? Professor Richard Dawkins joins us for that and we invite your thoughts on the subject.

Google™ Custom Search | Search

Sign in | Register

RDFRS US:
The mission of the Richard Dawkins Foundation for Reason and Science is to support scientific education, critical thinking and evidence-based understanding of the natural world in the quest to overcome religious fundamentalism, superstition, intolerance and suffering.

ما يهمنا مِن هذا الحوار هو أن عالم بيولوجي يتحدث عن الكون ولا يتحدث بمنطق علمي وإنما بمنطق أنا أؤمن وبدون دليل وبالطبع لا يملك دليلاً على ما يقوله لأنه بعيد كل البعد عن اختصاصه، لذا كتاب ريتشارد داوكنز "وهْم الإله" ينطبق عليه قول ديفيد هيوم: "إنْ وضَعنا أيدينا على أي كتاب من اللاهوت أو مدرسة الميتافيزيقيا، مثلا دعونا نسأل، هل يحتوي الكتاب على منطق مجرد يتناول العدد أو الكمية؟ الجواب سيكون كلا، هل يحتوي الكتاب على أي منطق تجريبي يتناول الواقعية والوجود؟ الجواب سيكون كلا . ألقوه في النار إذاً لأنه لا يحتوي سوى على السفسطة والوهم ".

الإله الفرضية الفاشلة – فيكتور ستينجر

النسخة المترجمة للعربية

تناقش أحدهم مع ملحد وبيَّن له إن العلم لا يمكن أن ينفي وجود الله؛ لأن الله كما عبَّر عنه داوكنز أمرٌ يفوق الطبيعيةَ، والعِلمُ يتناول الأمور الطبيعية المادية، فأرسَل له رابطًا لكتاب "الإله الفرضية الفاشلة". الواضح أن الملحد لم يقرأ الكتاب حيث اعتقد أن الكتاب يثبت علميًا أن الخالق فرضية عملية فاشلة واستنتج ذلك من العنوان الذي أخذه كحقيقة مطلَقة، حيث وقع ضحيةً لمغالَطة العنوان والمضمون. وبما أن الكتاب الذي بين يديك يناقش الإلحاد من وجهة نظر علمية لذا كان من الواجب مراجعة كتاب "الإله الفرضية الفاشلة"، لا بد من التأكيد على أن المراجعة هي مجرد عرض سريع ولا تغني عن قراءة الكتاب كاملاً لمن يريد التوسع.

في بداية الكتاب يضع المترجِمُ لائحةَ مطالَبات لِمَا أسماه "الحزب الحُر اللاديني "وأجد من الضروري إدراج بعض هذه المطالبات مع التعليق عليها:

المَطلب الأول:العملُ وبلا هوادة، من أجل فصل الدين عن كل الشؤون الزمنية، أي عن السياسية والتعليم والحياة العائلية ... الخ .

السياق العام لهذا الهدف يعطيك نفَسًا علمانيًا وقد تكون التجربة العلمانية في إدارة الدولة هي الأكثر نجاحًا في الدول متعددة الأديان ولا بأس بذلك ولكن تصطدم بعبارة فصل الدين عن الحياة العائلية، فماذا يقصدون بذلك؟ والأهم كيف يتم ذلك؟ هل نتبع الأسلوب السوفييتي بتجريم تعليم الطفل مبادئ الدين من قِبَلِ أبويه؟ ومَن يفعلها يسجن؟ والأهم مِن ذلك ما المقصود بإلى آخره "الخ"؟ ماذا يريدون أكثر؟؟ وأي قمع للحريات سيستخدمونه تحت شعار فصل الدين؟

المَطلب الثاني: فضحُ مدى انحراف رجال الدين في سلوكهم عن الجوهر الأساسي للدين، مع الأخذ في الاعتبار أن الأديان كانت السبب الرئيسي في التفرقة وأن الهدف الأسمى هو توحيد قوى الشعب المبعثرة.

والحقيقة أن اعتبار جميع رجال الدين منحرفين كلامٌ غير منطقي بالمرة وكلام لا يمكن من الأصل التأكد منه ولا يستحق مناقشته، الإنسان الحُر يتساءل عن سبب التعميم، ولا سبب معقول غير الإلحاد لهذه النظرة المتطرفة لرجال الدين والإلحاد كما ذكرنا إنما هو دين، أو في أحسن الأحوال وجهة نظر دينية وبالتالي التحاسد بين رجالٍ دينيين مختلفين أمرٌ طبيعي، هذه النظرة التعميمية للآخر على أساس أنه منحرف وسببٌ للفرقة هي بدايةٌ لتقسيم المجتمع وإيجاد مشاكلَ إضافية في مجتمعات مليئة بالمشاكل كالمجتمعات العربية أمر مثير لشكوك من أطراف تدَّعي أنها تعمل لخدمة المجتمع ورِفعتِه.

هل لهذه النظرة آثارٌ سلبية كآثار التكفيريين الذي يُفجِّرون أنفسَهم؟ بالتأكيد لا ولكنها تبقى مُضرةً لأنها تساهم في التفرقة وشيوع التباغض بين أبناء المجتمع الواحد، أمَّا مسألة أن الأديان كانت هي السبب الرئيسي في التفرقة فكلام لا قيمة له فلدينا الاتحاد السوفييتي الذي حارب الأديانَ بكل قوته

وتفرَّق بعد ذلك، ولدينا الولايات المتحدة التي بقيت متحدة كدولةٍ عُظمَى على الرغم من سيطرة اليمين المتطرف على بعض المفاصل فيها، فالاستنتاج من هذه التجارب التاريخية أن الشعوب تتفرق عند قمع الحريات ومنها حرية العبادة التي بعكس المطلب الأول الداعي إلى فصل الدين عن العائلة وإلى آخره وبعكس المطلب الثاني الذي يعمم بأن جميع رجال الدين منحرفون، وأسباب تفرُّقِ الشعوب كثيرةٌ منها الجوع واللعب على المشاعر الإنسانية واستقطابها طائفيا وغيرها ولكن الدين كدين لا علاقة له بالموضوع.

المَطلب الثالث: عقدُ اجتماعات عامة بهدف تعريف الناس بأحدث الأفكار العلمية والاجتماعية.

من حقنا أن نتساءل ما هي الخلفية العلمية لهولاء بحيث يمنكهم تعريف الناس بالأفكار العلمية والاجتماعية وماهي الطرق التي يتبعونها؟ بالطبع سيتم انتقاء الأفكار التي تناسب توجهاتِهم الإلحاديةَ فهُم ليسوا بعلماءَ وليس لهم قدرة على اختبار النظريات وتمحيصها، وإنما فقط يرددون ما يقوله بعض العلماء الملحدين. وكمثالٍ على هذا المطلب ما تقوم به جماعةٌ تُعرَف بـ"مشروع الترجمة العراقي" من ترجمة لوثائقيات وكُتُبٍ الكثير منها تدعم الألحاد وذلك بسبب اعتقادهم أن الدين هو سبب المآسي الحاصلة وبالتالي انحرف المشروع من غير قصد -كما أعتقد- ليخدم أجندة الإلحاد والعمل على نشرَه وليس أجنده العلم ونشره، والمفروض على أقل تقدير ومن باب الإنصاف أن يترجموا الكتبَ ذاتَ التوجهِ الآخر مثل "هناك إله" لأنتوني فلو وغيرها، فأي ثقافةٍ ووعي يمكن نشره عن طريق تطبيق ثقافة اللون الواحد؟

لنرجع إلى مطالب الحزب الحر اللاديني التي يتفق عليها أغلب الملحدين اليوم ويشعرون بضرورتها ولكن المفاجأة في هذا أن المطالب صدرت عام ١٩٢٩ في العراق! أي قبل ما يقارب القرن وقبل ظهور موجة الإلحاد الجديد والانفجار الكبير والانتقاء الطبيعي التراكمي، وقبل داوكنز وقبل حتى أن نعرف أن الكون له حدود أبعد من مجموعتنا الشمسية، وقبل الحروب الأهلية الدينية في البلدان العربية، وقبل الهوة الشاسعة بين الغرب والشرق، وقبل الاستقطاب المذهبي الحاصل اليوم.

بعبارة أخرى إن التطور العلمي الانفجاري الذي حصل خلال الفترة السابقة لم يغيّر من عقلية الإلحاد وفهمِه للدين فلا يدَّعي أحدهم انه ألحدَ نتيجة الاكتشافات العلمية الحديثة أو شيء من هذا القبيل وإن كان يعتقد ذلك فهو مخدوع؛ لأن الأمر لا علاقة له بالعِلم وإنما الإلحاد هو موقف من الدين، الإلحاد الجديد قد يمكن اعتباره أقل رُقيًا وتقدما من الناحية المنطقية من توجّهٍ مشابِه ظهر في بدايات القرن الماضي وبالخصوص عام ١٩٢٢ وسمي بـ "حلقة فيننًا حيث أثرت هذه الحركة الفلسفية في الكثيرين وكانت تدعو إلى اعتماد المنهج التجريبي الحسي في الوصول إلى الحقائق، وتعتبر جميع المناهج الأخرى كمنهج البرهان العقلي أمورًا بلا معنى، ولكنها كانت تهاجم الإلحاد أيضًا وتصفه بأنه أيضًا بلا قيمة أو معنى، لأنه ينفي أمرًا غير موجود أصلاً! وهذا الرقي في المفهوم مهم لأنه لا يخلق العداءَ الذي تخلقه موجة الإلحاد الجديد بين أفراد المجتمع.

لنرجع للمطالبات حيث تأسَّفَ المترجِم لعدم نجاحها ويعلل السبب في ذلك بوقوف رجال الدين في وجهها! ولا أعرف ماذا كان يتوقع أن يكون موقف رجال الدين من مطالباتٍ تهاجمهم في العموم وتصفهم بالجهل

والتخلف وتطالب بفصل مقدساتهم حتى عن الحياة العائلية على طريقة لينين وستالين على الأغلب على اعتبار أن المطالب جاءت بعد الثورة البلشفية، مثل هكذا أسلوب متطرف وعنصري ومتحامل بالطبع سيقف رجال الدين ومَن يؤيدهم ضده ولن يكتب له النجاح فلا داعٍ للتأسُّف لأن النتيجةَ محسومةٌ ولا سبيل لنجاحها بالعكس هذا الفكر المتطرف يقوم بإضافة مشاكل نحن في غِنى عنها ويقسم المجتمع أكثر مما هو مقسَّم، ومثاله ما يقوم به أحمد القبانجي صاحب دين الوجدان الذي يهاجم الأديان أكثر مما يركز على توضيح معالم دينه الوجداني، وهنا تكمن المشكلة حيث إن هذا الدور سيؤدي إلى بروز تيارٍ متعالٍ وحاقدٍ على أفراد المجتمع المتديين لأنه يعتقد أن دين المجتمع هو السبب بكل مشاكله وليس سوء النظام السياسي والاقتصادي والتعليمي، وكنتيجة لهذا النوع من التفكير كتب أحد الملحدين المصريين ما نصه "لإعادة بعث الأمة المصرية لابد من قتل معظم الشعب بأفظع الطرق والتمثيل بجثثهم حتى يرتعد البقية وإلغاء الدين واللغة العربية بالقوة" هذه النظرة الخاطئة للواقع ومشاكله لن تساهم في تطور المجتمع ومداواة جراحه بأي شكل من الأشكال.

مقدمة كتاب "الإله الفرضية الفاشلة" .

تتكون مقدمة الكتاب من عشر صفحاتٍ تقريبا، وهي مقدمة طويلة تم تناول الكثير من المواضيع منها العدالة الإلهية حيث إن مسألة العدالة الإلهية تشكل أحد مرتكزات الإلحاد ولكن لن يناقشها هذ الكتاب لأن الكتاب يتناول الإلحاد من منظور المنهج العلمي، ولكن باختصار بُنيت المقدمة على أمرين يشترك فيهما الملحدون وهما سوء الظن بالدين، واعتبار الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) واحدةً لها نفس الأدوات والأفكار، وهذه مغالطة بالتأكيد وقع القرآن ضحية لها نتيجةً لترجمة وشيوع أفكار العهد القديم والعهد الجديد في الغرب على حساب القرآن.

الكتاب ينتقد المقولة التي انتقدها داوكنز وهي أن الدين والعِلم اختصاصاتٌ غير متداخلة، وبما أن المؤلف يسعى إلى محاكمة الخالق واعتباره فرضية علمية خاطئة فمِن الطبيعي أن يُهاجم ويرفض هذه المقولةَ في المقدمة، أشار كذلك إلى استبيان عام ١٩٩٨وأن ٧% فقط من العلماء يؤمنون بالإله الشخصي وهذا أمرٌ طبيعيٌ في ظل مفهوم الإله الشخصي الذي يرفضه كل إنسان عاقل، ومن الغريب أن المؤلف عندما يتكلم عن الفترات التي سبقت ميلاد المسيح لا يُسميها قبل الميلاد، وإنما قبل الحقبة الشائعة! انظر إلى أين وصل التطرف بالملحدين؟ حتى التعابير التي لا قيمة فعلية لها تزعجهم .

ولغرضِ إثبات خطأ فرضية الإله يلجأ المؤلف إلى فرض فرضيّات ليتمكن من اختبارها تجريبًا أو عن طريق الملاحظة، فاعتمد المؤلف في فرضيته على وجهة نظره الشخصية للخالق، وهي وجهة نظر شخصٍ ملحدٍ رافضٍ للإله، مما يجعل الفرضية على أقل تقدير لا تمثل وجهة نظر المؤمنين فهو يحاكم فكرته عن الإله لا فكرة المؤمنين. يبين المؤلف ان مفهومالإله غير معرف بشكل كامل بين الأديان الثلاثة وهذا أمر طبيعي فلو اتفقت الأديان لَمَا كان هناك داعٍ لإرسال سيدنا عيسى أو سيدنا محمد بعد إرسال موسى وإنزال شريعته، وبين الكاتبُ أن العلمَ يتأتى عن طريق المشاهدات الموضوعية بالعين وبالآلة وبناء النماذج لوصف هذه المشاهدات واعتبار النماذج صحيحة إذا اتفقت مع المشاهدات، وبالتالي بَنَى كتابَه على قناعة أن الخالق

يمكن الاستدلال عليه بطرُقٍ علمية لأن لله دورًا مركزيًا في الحياة والكون، ولـلآن الكلام جميل ولا بأس به، ولكنه يضيف عبارة "إنْ كان الله موجودًا، لابُد أن يظهر في مكان ما ضمن فراغات أو أخطاء النماذج العلمية".

المشكلة في هذه العبارة أنه لم يوضح لنا كيف يظهر؟ يظهر جسدًا؟ يظهر خيالاً؟ قانونًا؟ أم كيف؟ لنعتبر هذا الظهور دليلاً على وجوده، ولكن بما أنه يقول في نفس الصفحة إن الفجواتِ أو الفراغاتِ في العلم والتي عجز العلم عن إيجاد "تفسير" لها ليست استدلالاً علميًا كافيًا لوجود الخالق فهذا قد يعني أنه يريد من الله أن يَظهر له كشيء مادي أو كسر لقانون طبيعي بناءً على رغبته أو شيء من هذا القبيل، لأن الأدلة على وجود قوة خالقة عاقلة كأصل للحياة والقوانين والتنظيم والتصميم لا يعتبرها المؤلف أدلة كافية، وهذا قد يعني أنه يبحث عن الإله المادي الذي يمكنه رؤيته، وربما المؤلف يتصور الإله كرجل مُسِن مع لحية كبيرة وكرش كبير كما تصوره بعض الأفلام.

وقد أقر بهذا عندما قال في الصفحات اللاحقة ما نصه "لعله سيظهر في استكشافٍ فضائي مستقبلي أو في تجربةٍ ما في معجل جسيمات ضخم"! وبقوله هذا تتضح مخالفة فريضته للإله لفرضية المؤمنين بالإله. على الرغم من ادعاءه البحث عن هذا الإله المادي فإنه لا يخفي عُقدتَه الشخصية من الخالق الذي يعتقد به المؤمنون ليقول ما نصه "وإن حدث هذا الأمر فإن هذا الإله ليس الخالق المزعوم!" وهذا يشير إلى ما يواجهه الملحد نتيجة لمفهومه الخاطئ عن الإله، فدينُهم الإلحادي يصور لهم الخالق بشكل مزعج ومرعب ومريض جدًا بحيث يحاولون بكل ما يستطيعون من قوة وإدراك ومعلومات نفيَ وجودِه ليناموا بهدوء.

كما يجب التأكيد على كلمةً استخدمها المؤلف في المقدمة وهي عجز العلم عن إيجاد تفسير وليس إيجاد مصدر أو سبب لأن العلم قام أو قعد لن يقدم أكثر من تفسير لمشاهدات مثلاً كيف تدور الأرض حول الشمس وحول نفسها؟ أما المصدر أو السبب مثلاً لماذا تدور الأرض حول الشمس وحول نفسها؟ فلا يمكن للعلم أن يجيب عليه لا اليوم ولا غدًا ولا بعد مليون سنة لأنه خارج اختصاصه.

بعد كل هذا يبين الكاتب أن مبدأ كتابه هو إخضاع العمليات غير المادية للاختبار باستخدام طرق اختبار مادية!! الملحدون المطَّلِعون يعرفون أن المنهج العلمي يتبع المشاهداتِ القائمةَ على أساس التجربة، وبالتالي هُم يعرفون أن لا تجربة يُمكن أن نقيمها على الأمور غير المادية، والمؤلف أدرك هذا الأمر ولذا رفض كل رأيٍ علمي قد يعارض منهجه وقال بالنَّص "البيانات العلنية لبعض العلماء والمنظمات الوطنية بأن العلم لا يملك ما يفعله مع غير المادي هو أمر ينافي الوقائع"! وسنلاحظ لاحقًا أن مؤلف هذا الكتاب "فيكتور ستينغر" سيخالف في مواقعَ كثيرةٍ آراءَ بقيةِ العلماء لإثبات دينه الإلحادي حتى لو أدى ذلك إلى مخالفته لآراء العلماء العلمية.

يتكلم المؤلف عن فجوات العلم وعجزه في الكثير من المفاصل العلمية وبدلاً من الاعتراف بذلك وبكل تواضع فإنه يُحيل هذه الفجوات إلى المؤمنين متَّهِمًا الخالقَ بأنه إله الفجوات! وهو يذهب كما ذهب داوكنز في الحلم بالنظرية النهائية حيث يقول إنه يوما ما سيتم ملء هذه الفراغات بطُرق معقولة، الكلام الشاعري حول المستقبل والنظرية النهائية ماهي إلا وسيلة لنَقْلِ مشكلاتهم الحالية والمتمثلة في الفجوات العلمية إلى

المستقبل، وبالتالي لا حاجة لأن نشغل أنفسنا كثيرًا بهذه الثغرات؛ لأن العالم المخلِّص سيأتي يومًا في المستقبل ويحلها ويثبت أن الدين الإلحادي هو الصحيح.

وعلى الرغم من سخافة الاتكال على المستقبل وبناء الاستنتاجات عليه، فإن "انستيفن واينبرغ" عالم الفيزياء الفائز بجائزة نوبل الذي نَسب داوكنز النظريةَ النهائية (الحلم) له قال في حوارٍ تليفزيوني مع داوكنز" "إنه ليس من الصحيح أن نقلل من حجم المشكلة التي نحن فيها وأننا في النهاية قد لا يكون بإمكاننا أن نفسر العالم، وأن هناك مجموعة من القوانين الطبيعية التي لن نتمكن من فهمها ولا تحويلها إلى معادلات رياضية وسيبقى السؤال لماذا قوانين الطبيعية على هذه الحال وليس على حال مختلف". بالطبع الملحد سيرمي بهذا الكلام عرض الحائط على الرغم من أنه صادر عن عالمٍ فيزيائي ملحد وسيظل يكرر سنملأ الفراغاتِ يوما حتى يثبت إلحاده.

الفصل الأول – نماذج وطرائق

هذا الفصل بَدَا لي غيرَ منظم، فمِن بابٍ هو يتكلم في منهجية كتابه، ومِن بابٍ يقفز فجأة إلى الفلسفة، الكاتب يقول في هذا الفصل ما معناه أن فتح شخص أي صفحة عشوائية من القرآن أو العهد القديم ويقرأ لوهلةٍ فلن يستغرقه الأمر طويلاً أن يجد قولاً أو فعلاً لله متضاربًا مع تصورات الشخص نفسه للخير والطيبة، عبارة مقاربة كتبها سام هاريسن في أحد كتبه وهي" تقريبًا في كل صفحة في القرآن فيها توجيه للمسلمين باحتقار غيرهم" هذه العبارة اقتبسها "بيل ماهر" مقدم البرنامج الأمريكي المشهورعند لقائه النائب الأمريكي المسلم كيث أليسن فكان جواب كيث أن هذا كلام سخيف وغير صحيح، وذكر له عدة أمثله من القرآن تثبت كذب هذا الادعاء فسأله بيل إذن من أين يأتي الإرهابيون؟ فأجابه كيث من الاجتزاء وإخراج الآيات عن نصوصها وأنهم يستخدمون الدين لخدمة مصالحهم السياسية.

لم يكلف مؤلف الكتاب نفسه ولا بيل ماهر ولا سام هيرسن أنفسهم للاطلاع بشكل فعلي على القرآن قبل إطلاق هذه الأحكام الخاطئة وغير الواقعية بالمرة، ولا أعرف كم مرةً فتحوا فيها القرآن ليجدوا ما يدعون؟ ولا أعرف على أي منهجٍ علمي يقول عند فتح أي صفحة بشكل عشوائي في القرآن سيجد فيه ما يخالف تصوراتِ الخير أو الطيبة، وما هي هذه التصورات أصلاً؟ وما هي حدودها؟

كرر المؤلف في هذا الفصل رفضه وعدم اقتناعه برؤية الكثير من العلماء وهي أن العلم لا يتعامل مع الأمور اللامادية أو الفوق طبيعية، وهذا أمر متفق عليه كما أشار هو بقوله "معظم الجمعيات العلمية الوطنية والمنظمات المؤيدة للعلم قد أصدرت بياناتٍ تؤكد أن العلم يقتصر على تناول العمليات والظواهر الطبيعية؛ فمثلاً أعلنت الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة أن العلم هو طريقة لمعرفة العالم الطبيعي وهو يقتصر على تفسير العالم الطبيعي من خلال أسباب طبيعية".

رجاءً عزيزي القارئ تَذَكَّرْ هذا التعريفَ لأنه سيساعد في فهم طبيعة النزاع الذي يجري في المحاكم الأمريكية حول التصميم الذكي لاحقًا، رفض الكاتبُ هذا التعريف رفضًا تامًا لسببيْن: السبب الأول أن هذا التوجه يعارض فكرة كتابه وينسفها، وبالتالي إن قبِلَ بهذا التعريف فلا قيمة لكتابه، والسبب الثاني هو اعتقاده أن مثل هذا المنهج يقدم خدمة للمؤمنين ويحصن إيمانهم من مطرقة العلم. لا السبب الأول ولا السبب الثاني يمكن اعتبارهما أسبابًا علمية ناهضة وإنما مجرد أسبابٍ لخدمة فكره الإلحادي ومنهجه الجدلي.

نقَلَ في هذا الفصل بعضَ الأدلة الفلسفية التي في اعتقاده أنها تدحض فكرة الخالق وقد حشرها حشرًا فلا علاقة لها بموضوع كتابه فهي ليست أدلة علمية ولا بأس بأن نذكرها مع التعليق عليها:

أولا– معضلة الشر:

"إنْ كان الله موجودًا، فالله يتوافق مع الشر.

صفات الله لا تتوافق مع الشر.

لهذا، فالله ليس ولا يمكن وجوده".

انتهى

وحتى نجيب على الإشكالية أعلاه يجب أن نستعين بنظرة الدين باعتباره المعرِّف بالخالق وصفاته وسيكون جوابي من وجهة نظر قرآنية، والجواب هو ببساطة لا يوجد شيء اسمه شر، فالشر والخير متساويان، والحياة في فلسفة القرآن مجرد تجربةٍ يمر بها الإنسان وهو ممتحن في الخيرات كما هو الحال في الابتلاءات، فالخيرات والابتلاءات متساوية كما بيَّنَ في سورة الأعراف "وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"﴿١٦٨﴾ وكذلك ما جاء في سورة الملك الآية الثانية (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴿٢﴾

فالشر أو كما يسميه القرآن السيئات هي مجرد أداةٍ للتمحيص والاختبار وهذا هو هدف الحياة، وهذا الأمر ينطبق على الزلازل والبراكين وغيرها من الكوارث الطبيعية، فالمعترِض عليها وعلى هدفها عليه أن يعترض على الموت والشيخوخة والأمراض وغيرها من الأمور التي تقتل الإنسانَ، وإذا كان يعتبر الزلازل والبراكين خللاً في النظام العام فعليه كذلك أن يعتبر الموتَ والزيادة في العمر والأمراضَ خللا في النظام، ولكنه لا يعتبرها كذلك لأنه يقر بالقوانين الحاكمة والتي تؤدي اليها، وكل مَن يعتبر أن هذه الأمور مِن الشرور فهذا ناتج لنظرته الشخصية للأمور وقصر فهمه للغاية والسبب.

وهذا هو بالضبط حال سيدنا موسى مع عبد الله الصالح حيث رفض سيدنا موسى في القرآن أفعاله ولم يستطع معه صبرًا لأنه لم يكن يدرك الغاية والهدف واعتبر أعماله شريرة ولا مبرر لها ولا هدف حتى عرَّفه العبد الصالح بالأسباب والمبررات، فاختلف موقف سيدنا موسى تمامًا. ولذا قال القرآن "وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، يعني بسبب نظرتكم للأمور وإلا فإنها كالحسنة كلتاهما لها نفس الهدف والمفعول وكلاهما من عند الله تعالى، وبالتالي القول بوجود الشر يؤدي إلى نتيجة مفادها عدم وجود خالق أمرٌ لا قيمة له في ضوء معرفتنا لمعنى الشر في نظر الخالق.

ثانيا- الخالق الكامل:

"إنْ كان الله موجودًا، فهو كامل

إن كان الله موجودًا، فهو صانع الكون

إن كان الله كاملاً، فكل ما يصنعه كاملًا

ولكن الكون غير كامل

لذا، يستحيل أن يكون كائنٌ كاملٌ هو صانع الكون

لذا، يستحيل وجود الله"

انتهى

هذه الإشكالية هي المستخدمة في الانتقاص من التصميم الذكي باعتباره غير ذكي لأنه منقوص وغير كامل، وللإجابة على هذه الإشكالية يجب أن نضع تعريفًا لمعنى الكمال الذي ننشده في الكون، وهل أخبرنا الخالق عن طريق رُسُلِه أن غاية الكون هي الكمال؟ إن كان الرسل أخبرونا بأن الهدف هو الكمال فالإشكالية أعلاه صحيحة، ولا يوجد كمال والرسُل كاذبون، ولكن النظرية القرآنية واضحة "اهبطوا بعضكم لبعض عدو" ."وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"، "وَمَن نُّعَمِّرْهُ

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ"، "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ"، وغيرها من الآيات الكريمة التي تدل وتؤكد على قصدية عدم الكمال، فالكمال يمكن الحصول عليه بملاءمة الهدف المنشود وليس بملاءمة ما يريده صاحب الإشكالية ولذا أنا اقترحت فكرة "التصميم الفعال" بدلاً من "التصميم الذكي".

ثالثًا (١)-لا يمكن لكائن متعالٍ أن يكون كليَّ الحضور:

"إن كان الله موجودًا، فهو متعالٍ (أي خارج الزمان والمكان).

إن كان الله موجودًا، فهو كليّ الحضور (حاضر في كل مكان)

كي يكون متعاليًا، لا يمكن أن يوجد في أي مكان.

كي يكون كليَّ الحضور، يجب أن يوجد الكائن في كل مكان

لذا يستحيل أن يكون الله موجودًا

انتهى

ثالثًا- (٢) **لا يمكن لكائن ذي ذاتٍ أن يكون غير مادي:**

إنْ كان الله موجودًا فهو غير مادي

إن كان موجودًا فهو ذات

الذات يجب أن تكون مادية

لذا يستحيل وجود الله"

انتهى

إذا كان المؤلف يؤمن بالإشكالية الثالثة رقم (٢) وأن الخالق غير مادي فلماذا كتب كتابَه؟ الكتاب كما هو واضح ليس صاحب منهجيةٍ علمية وإنما فقط يحاول جمْعَ كافة الأدلة المتوفرة التي تثبت بشكل أو بآخر عدم وجود خالق وإن كان يناقض إحداها الأخرى.

لنعود إلى الإشكالية، إنْ كان الله متعاليًا فلا يمكن أن يكون كليَّ الحضور، وإن كان كليَّ الحضور فلا يمكن أن يكون متعاليًا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنْ كان موجودًا فهو مادة وذات وبما أنه لا مادي فهو غير موجود!! حل الإشكالية أيضًا يكمن في تعريفنا للمتعالي وكلي الحضور، على العموم الإسلام حلَّ هذه الإشكالية منذ قرون والحلول الإلهي في كل شيء هو ليس الحلول المادي وإنما المعرفي قال تعالى (قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ٢٩ آل عمران)

قلناها مرارًا وتكرارًا مشكلة هؤلاء هو عدم اطلاعهم على النظرية القرآنية لعوامِلَ منها اللغة واختلاف المحيط الديني الذي نشأوا فيه، ولكن لا يمكن أن نعذر الملحدين العرب لاتخاذهم هذه الإشكاليات بدون تدقيق وتمحيص، الأمر الذي لا ينتج إلا عن الكسل والرغبة في الحلول الجاهزة.

هل وجود الله مادي أم غير مادي؟ الجواب وجودُه ليس ماديًا فهو خالق المادة التي نعرفها وليس كمثله شي ولا تقع عليه الحوادث، يعني لا يمكن أن نقول إنْ كان موجود فهذا يعني أنه مادة، لأنه مَن أوجد الوجود

المادي فمَن أوجد الوجود هو من أوجد المادة، وبالتالي لا يمكن أن يكون ماديًا، وهذه هي نظرية المؤمنين فإذا كنتَ تريد أن تناقش المؤمنين فعليك أن تناقش مبانيهم وأفكارهم وليس اعتقاداتك وأفكارك. أثناء حضوري أحد المؤتمرات الإلحادية في أمريكا وبعدما عرَفوني كمؤمن رفضوا أن أتكلم أو أن أناقش وبعدما سألتهم عن السبب أجابني أحدهم بقوله "إننا نرغب أن نتناقش ضمن محيطنا بهدوءٍ والسؤال المهم هو كيف تناقش أفكار الاخرين واعتقاداتهم وانت لا تسمح لهم حتى ببيان رأيهم وأفكارهم؟

من الأمور المهمة التي يجب مناقشتها وبشكلٍ مختصرٍ لأنها لا علاقة لها بموضوع، وبما أن الكلام هل أن الخالق مادة أم لا، هو توجه المذهب السلفي عند المسلمين إلى إثبات أن لله قَدمٌ وعينٌ وغيرها، ولكن ليس كمثله شيء من باب إثبات لله ما أثبت لنفسه في القرآن وأدخلوا هذا الاعتقاد من ضمن التوحيد وأسموه توحيد الصفات والأسماء، ولكن من حق بقية المسلمون أن يسألوا؟ لماذا يحتاج الله للعين والقدم وهل يستخدم قدم ليسير بها والعين لينظر بها أم لا؟ ومن حقهم أن يتسائلوا أيضًا ما دامت اللغة العربية تحمل على المجاز ومادام القرآن يحتوى على المجاز اللغوي ومادام هناك إمكانية لحمل هذه الآيات على المجاز فلماذا هذا الإصرار على جعل الخالق مادة وجسم؟ الموضوع قد يطول ولا مجال هنا لمناقشته.

رابعًا – القدرة المطلَقة:

إمّا أن يكون الله قادرًا على خلق صخرة ولا يستطيع رفعَها، أو غير قادر على خلق صخرة لا يستطيع رفعَها.

إنْ كان الله قادرًا على خلق صخرة لا يستطيع رفعَها، فليس كليَّ القدرة.

إنْ كان الله غير قادرٌ على خلق صخرة لا يستطيع رفعَها، فليس كليّ القدرة.

لهذا فالله ليس كليَّ القدرة

انتهى

مرةً ثانية لا أعرف مِن أين أتى صاحب هذه الإشكالية بهذه المفاهيم حيث يصور الخالق كأنه مادة محدودة الأبعاد بحيث يستطيع أن يخلق صخرة أكبر لا يستطيع رفعها، ولكن السؤال ان كان هو من يخلقها ويخلق القدرة فكيف لا يستطيع أن يخلق القدرة التي تمكنه من رفعه؟ وإن افترضنا أنه لم يخلق القوة التي يستطيع أن يرفع بها الصخرة فهل هذا سيجعله غير كلي القدرة أم فقط غير راغب بذلك، كذلك من حقنا أن نسأل أين سيضع الصخرة؟ وما مدة حمله لها؟ فلا يكفي أن تطرح إشكالية وإنما عليك أن تبيّن إمكانية تحققها في ضوء مفهوم الإله الذي يؤمن به المؤمنون، وليس في ضوء مفهومك لإلهٍ تنكره وتلحد به، مع ملاحظة أن المؤمنين لديهم مفاهيم مختلفة للإله كلٌ حسب ثقافته واطّلاعه وبيئته.

يمدح الكاتب موقف العلم من النظريات العلمية وقابلية تغييرها وتعديلها وكأن هذا الموقف ميزة وحسَنة للعلم في حين إنها من صميم عمل العلم وبخلافه، فلا قيمة لعلم فهي ليست ميزة وإنما واقع حال، في نفس الوقت ينتقد الكاتب الدينَ باعتباره جمودا لا سبيل إلى تغييره، وهذا المفهوم يتناقض مع الرسُل أنفسهم، فالمسيح عيسى لم يرسله الله برسالته ولم يخرج برسالته إلا انتقادًا للموروث وتصحيحًا له، وكذا رسول الإسلام محمد لم يقاتله قومه إلا لأنه انتقد موروثَهم الديني والثقافي، ولم يتآمر عليه اليهود في المدينة إلا لنفس

السبب، الأديان عبْرَ التاريخ كانت ثوراتٍ فكريةً على الموروث ولم تكن في يوم من الأيام دعواتٍ إلى الجمود ومع أنني لا أُنكر أن الدين لدى البعض موروث جامد وهذا سبب الكثير من الويلات لدى المسلمين اليوم ولدى غيرهم عبر التاريخ ولكن لا يمكن تعميم هذه النظرة الضيقة للدين على جميع المؤمنين، المتعصبون يركزون على ما يوافق وجهاتِ نظرهم، فمثلاً المؤلف لا يقول إن البروتستانت هي حركة دينية ثورية على الجمود والتسلط الذي قامت به الكنيسة البابوية، ولا يقول إن الحضارة الإسلامية كان لها دورٌ في تطوير ونقل العلوم إلى الغرب لأن مثل هذه الأمثلة تنتقد مزاعمه حول التأثير السلبي للدين، ولا بُد من الإشارة مرة ثانية إلى أننا استخدمنا آيات القرآن لنناقش الإشكاليات أعلاه لأنها تعنى بمفهوم الإله والطريقة الوحيدة لمعرفة مفهوم الأديان حول الإله هي كُتُب هذه الأديان، وهنا قد اخترت القرآن لأنني معتقدٌ فيه.

ينتقد الكاتب مصطلح الانتقاء الصدفوي أو انتقاء الصدفة ومثالهاعلى ذلك إيمان البعض نتيجة لحلمهم بأمر معين أو نتيجة لتحقق حلم معين ولكن يغفل هذا البعض أن ملايين الأحلام لم تتحقق، وهنا اتفق معه ولكن إن كان رفضنا للأمور مبنيٌ على هذا المنهج؛ فمن باب أولى أن نتبع نفس المنهج مع آلية الطفرات التي تعتبر أحد آليات التطور، وبالتالي ننكرها بشكل كامل وهنا أنا لا أدافع عن الأحلام فأنا لا أعتقد فيها أيضًا ولكن أتكلم عن طريقة الحكم على الأمور، فهذه كتلك فكما أن ملايين الأحلام لم تتحقق فكذا ملايين الطفرات لم تقدم شيئًا في السلم التطوري فلماذا لا يمكننا أن نشكك في الانتخاب الطبيعي كما شكك الـ ٤٠٠ عالِم؟

في نهاية الفصل الطويل يبين المؤلف نموذج الإله العلمي والذي من المفروض أن يخضعه للتجربة العلمية، النموذج هو:

*الله هو الخالق وحافظ الكون.

*الله هو مهندس تركيب الكون ومؤلف قوانين الطبيعة .

*الله يتدخل كما يشاء في تغيير مسار الأحداث، بما في ذلك انتهاك قوانينه هو، مثلا كاستجابته لتوسلات البشر. (ما الدليل على هذه الصفة؟ وهل الاستجابة للدعاء هي انتهاك لقوانينه؟ أم من ضمن قوانينه؟ وخصوصًا أن للدعاء مقدماتٍ كما سنتناول ذلك بالتفصيل لاحقًا؟).

*الله هو الخالق وحافظ الحياة والبشرية.

*الله قد وهب للبشر أرواحًا أبدية غير مادية، موجودة باستقلال عن أجسادهم وتحمل جوهر شخصية الفرد وذاتيته. (كيف سيثبت وجود أو عدم وجود الأرواح علميًا بما أنه افترض أنها غير مادية)

*الله هو مصدر الأخلاق والقيم البشرية.(عند مناقشة كتاب ريتشارد "وهْم الإله" تم توضيح العلاقة بين الأخلاق والأديان وأن إحداهما مكملة للأخرى، والإنسان بفطرته يحب الأخلاق، والأديان جاءت متوافقة ومبينة لذلك) .

*الله قد أظهر حقائق في الكتب المقدسة، وبالتخاطب مباشرة مع أفراد مصطفين عبر التاريخ. (طبعًا هذه الحقائق في الكتب المقدسة تم رفضها أو تحريفها، ولذا بعث الله الأنبياء لاحقًا كثورةٍ تصحيحية لِمَا أُدخِل عليها، ولذا لا يمكن اعتبار أن الكتب المقدسة كالعهد القديم والجديد معبرةٌ عن الحقائق التي أرادها الله،

وكذلك لا يمكن اعتبار الكتب المقدسة بما فيها القرآن كُتُبًا علمية تعطينا حقائقَ علمية وإنما هي كُتُبٌ لهداية الإنسان قد تحتوي على بعض الإشارات العلمية ولكن في الأصل هي كتُبُ هداية)

*الله لا يُخفي نفسَه عمدًا عن أي إنسان من فتح لإيجاد الأدلة على وجوده. (نعم، ولكن يجب التركيز على مفردة الأدلة، وما تعريفه للأدلة؟ وهل يريد استكشافه في تلسكوب فضائي قوي القدرة؟ أم يريد الكاتبُ أن يَظهر له الله كشخصٍ أمام عينه؟).

بعد توضيح ذلك بيَّنَ الكاتبُ أن برهانه العلمي على عدم وجود خالق سيكون عن طريق إثبات أنه لا توجد أدلة عليه، حيث يفترض افتراضاتٍ معينة من صميم وجود الخالق حسب وجهة نظره الشخصية، ومن ثم يثبت خطأ هذه الافتراضات، وبالتالي فإن هذه ستؤدي إلى إثبات عدم وجود خالق، الافتراضات الخمسة هي:

*الخالق يؤدي دورًا مهمًا في الكون.

*افترضَ أن الله لديه صفاتٌ خاصة قد توفر أدلة موضوعية على وجوده؟

*البحث عن هذه الأدلة بعقل منفتح.

*إن وُجِدت أدلة كهذه، استنتج أن الله قد يكون موجودًا.

*إنْ لم توجد أدلة موضوعية كهذه، استنتج بما يتجاوز الشكل العقلاني أن الخالق بهذه الصفات غير موجود.

المشكلة التي يطرحها المؤمنون على هذا النموذج هو اختلافهم في الفرضيات ومنهجها من الأصل وكونه مقترح النموذج يحمل مفهومًا شخصيًا يختلف عن مفهوم المؤمنين، وإن اتفقنا على السياق العام، ولكن الشيطان يكمن في التفاصيل.

الفصل الثاني – وهْم التصميم

كان من المفترض أن يقدم أدلة على بطلان القول بالتصميم الذكي في هذا الفصل، ولكنه تكلم في كل شيء ما عدا مناقشه أدلة التصميم بشكل مباشر، حيث ناقش التقاليدَ البالية التي يجب رفضها ونحن نتفق معه بذلك كقول أن الأرض مسطحة ساكنة في مركز الكون، وهذا النَّص لا يقول به أغلب المؤمنون اليوم، وإنما مجرد مفاهيمَ لأشخاصٍ عاشوا في عصور سابقة وكان ذلك هو السائد نتيجة الأدوات العلمية السائدة في ذلك الوقت، حيث فسروا بعض الآيات تفسيرًا خاطئًا يتناسب مع مبلغ علمهم، وأنا وغيري الكثيرين اليوم غير مُجبرِين بأية حال من الأحوال باتباع تفسيرات القدماء وإن كان للأسف مفتي السعودية الحالي والذي قبله ما زالوا يصرون على أن الشمس تدور حول الأرض باعتبار أن الآية القرآنية تقول إن الشمس تجري لمستقر لها، في حين أن الآية لا علاقة لها فيمن يدور حول من، مما اضطرهم للاستناد على الأحاديث الموضوعة التي كُتِبت بعد مئات السنين من وفاة رسول الإسلام.

أشار المؤلف إلى نقطة مهمة يغفل عنها الكثير في بداية هذا الفصل، حيث قال ما نصه فكرة التطور كانت متداولةً لفترة، حتى أن جَدَّ تشارلز داروين كان نصيرًا مهمًا لها وهذا ما أشرنا إليه في الكلام عن التطور ووضحنا أن داروين جاء بالانتخاب الطبيعي وليس بالتطور نفسه.

يتكلم المؤلف في هذا الفصل حاله حال بقية كُتُب الإلحاد عن المعركة مع الخلوقيين عبر التاريخ وكيف منع تدريس التطور في بعض المدارس الأمريكية، وكيف يمنع اليوم تدريس التصميم الذكي في المدارس وغيرها من معالم الصراع في أمريكا بين الخلوقيين والتطوريين، وهو صراع مفتعَل لا قيمة له والسبب الرئيسي في هذا الصراع هو محاولة الخلوقيين جعل نظرية الخلق نظرية علمية ولذا يحاولون أن يجعلوها إحدى دروس مادة العلوم، من جانب آخر محاولة الملحدين جعل نظرية التطور نظريةً ذات أبعادٍ دينية تعني بشكل أو بآخر موت الخالق ونتيجة لذلك رفضها الخلوقيون لأنها تخالف الدين، ولذا أيضًا يجب منع تدريسها وفق الدستور الأمريكي.

اليوم يعتبر الملحدون رفض عدة محاكم في أمريكا تدريس التصميم الذكي كمادة في درس العلوم دلالة على أن لا صحة على التصميم الذكي وهكذا يتخذ هؤلاء المحلدون وبشكلٍ غريبٍ قرار المحكمة على أنه دليل عقلي منطقي لرفض التصميم، وهذا خطأ فادح للأسباب الآتية:

أولا: إنهم اعتمدوا على قاضٍ قانوني لتفريق العلم عن اللاعلم (العلم الزائف) وهذا أمر مضحك، وإن كان الأمر كذلك فما يقولون فيما حدث عام ١٩٢٥ عندما جرمت المحكمة مدرِّسَ الأحياء "جون سكوبس"لتدريسه التطور؟ هذا الفرح الصبياني بقرار محكمة وترديده من قِبَل الملحدين أمرٌ مضحك فعلاً حيث أنتج الملحدون برامج وثائقيةً للابتهاج بهذا النَّصر المزعوم، والحقيقة أن كل ما في الأمر أن القضاة يعتمدون على موادَّ قانونيةٍ وخبراءَ لتعريف العلم وتبيانه، وبالتالي عندما تم التَّحاكم إلى القضاء بخصوص التصميم الذكي فإن العلم كما تكلمنا سابقًا يتعامل مع الواقع المادي وما يمكن مشاهدته واختباره حصرًا، وبما أن نظرية التصميم الذكي تحيل المسألة إلى جود قوى خارقةٍ غير مادية، إذن التصميم الذكي لا يتوافق مع حدود المنهج العلمي

ولا يمكن اعتباره مادةً علمية يمكن أن تدرَّس في المدارس لأنها تخالف تعريف العلم، فالقضاة لم يرفضوا التصميمَ الذكي لأن أدلته غير حقيقة أو غير ذات قيمة، ولكن لأن الفكرة تتعارض مع تعريف العلم.

ثانيا: الأمر المهم الآخر أنه ونتيجةً لفصل الدين عن الدولة دستوريا في أمريكا فلا يمكن تدريس الدين في المدارس، ولذلك يحاول الخلوقيون إدخالَ الدين عن طريق درس العلوم، ولأجل ذلك يحدث هذا اللف والدوران لأجل أن يدرس التصميم ضمن دروس العلوم.

المحبِط في هذا الفصل أن المؤلفَ لا يناقِش أدلةَ التصميم الذكي بشكل مباشر، وإنما يحاول أن يلف وأن يدور حولها، مثلا في عنوانٍ فرعي اسمه "أسفين التصميم الذكي" تكلم عن الهدف والغاية من القول بالتصميم الذكي، وكما نعلم فإن هناك فرقًا كبيرًا بين مناقشة أدلة التصميم وبين مناقشة مدلولاته وهدفه، حيث انشغل بالكلام عن المنظمات التي تموّل الدراساتِ التي يقوم بها دُعاة التصميم الذكي والهدف منها ومحاولة تجنب المنع الدستوري الخاص بالمواد الدينية في المدارس الأمريكية وغيرها، ولكن للأسف لم يناقش الأدلةَ بصورةٍ مجردة.

والقارئ من خارج أمريكا قد يتساءل ما دخلي أنا بهذا الكلام؟ كلمني عن التصميم وأدلته، قد يقول البعض أنه يناقش النتيجة والهدف ويحكم على الأدلة بناءً على النتائج والأهداف، وهذا أمر خطير لأن الهدف والنتيجة قد تختلف من زمان إلى آخر ومن مكان إلى آخر ولكن الأدلة الموجبة للموضوع أمر آخر، انتقلَ بعد ذلك إلى ما يسمى بالتعقيد اللامختزل وادَّعَى أن الضرورة قادت المؤمنين إلى التعقيد اللامختزل وعلَّلَ بأن أدلة التصميم الذكي لم تصمد في مواضيعَ كثيرة كما لم ينشر من عملهم شيء في مجلات علمية محترمة، ومن حق المطلع أن يتساءل كيف تنشر في مجلات علمية محترمة أو غير محترمة وهي تتجاوز حدود العلم.

المهم لنَعُد إلى التعقيد اللامختزل لعلّ وعسى أن يناقشه الكاتب بصورة علمية مجردة هذه المرة وليس باللف والدوران كما فعل بموضوع التصميم الذكي، بدأ بذكر كتاب "صندوق داروين الأسود، التحدي البيوكيميائي للتطور" لمؤلفه "بيهي" الذي قدم فكرة التعقيد غير القابل للاختزال وهو ببساطةٍ اختيار مركَّبٍ عضوي يتكون من عدة أجزاء ولا يمكنه العمل إذا تم رفع أحد هذه الأجزاء، وبالتالي يعتبر هذا المركب ثغرةً أو دليلاً على عدم صحة الانتخاب الطبيعي (لاحِظْ أخي القارئ عدم صحة الانتخاب الطبيعي وليس التطور)، للأسف لم يناقش المؤلف الأمثلةَ التي طرحها "بيهي" وإنما أحال قُرَّاءَه لغيره من العلماء حيث قال عنهم "إنهم فندوا برهان "بيهي" تفصيلاً حيث سرد الإحيائيون التطوريون أمثلةً عديدة في الطبيعية يغير النظام العضوي فيها وظائفه خلال تطوره حتى قبل أن يجلس "بيهي" ليكتب.

وكل ما ذكره المؤلف في الرد على التعقيد غير القابل للاختزال هو مثال الباندا ذو الست أصابع حيث إن إبهامَه المقابل ليس إصبعا، بل عظم في رسغه تضخم ليشكل بروزا صلبا يستفيد منه في إمساك عود براعم الخيزران، غذاء الباندا الوحيد! حيث نقل عن عالم آخر يعتقد ان هذا البروز تطور نتيجة لاحتياج الباندا له، ولم يخبرنا لا المؤلف ولا العالم الذي نقل المؤلف عنه كيف كان يأكل قبل ذلك، قد يقول قائل إن هذا مجرد

تصور لِمَا حدث، فلا يوجد دليل ناهض أن البروز الصلب في يد الباندا لم يكن عن طريق خطة مسبقة، وخصوصا أنه يحتاجه في إمساك عود براعم الخيزران غذائه الوحيد.

"بيهي" يعطي مثالا على التعقيد غير القابل للاختزال بالإشارة إلى نوع من أنواع البِكتريا لها سوط يساعدها في السباحة ضمن الوسط الذي تعيش فيه، ويقول إن هذا التعقيد غير قابل للاختزال حيث لا يمكن لهذه البِكتيريا أن توجد وتعيش بدون هذا السوط، ولا يمكن أن يمر هذا السوط بمراحلِ الانتقاء الطبيعي والتطور، وبالتالي هناك تصميم، وبالتالي هناك خالق. هنا يرفض العِلمُ هذا الاستنتاجَ ولا ينكر المشاهدةَ أو الملاحظة، ولكن الاستنتاج يرفضه ليس لعدم صلاحيته وإنما لوقوعه خارج تغطيته، ولذا يميل العلمُ للتطور على حساب التصميم.

لنرجع لنقاش سوط البكتيريا حيث يقول من لا يعتقد بالتصميم أنه كان له وظيفة أخرى قبل أن يصبح سوطا، في حقيقة الأمر لا يمكن بأية حال من الأحوال إثبات هل السوط تطور بالانتخاب الطبيعي أم تطور بتدخل إلهي أم خُلِق بهذا الشكل! بالتالي القضية وجهة نظر ولكن هناك وجهة نظر يقبلها العلم لأنها تقع ضمن تغطيته، ووجهة نظر لا يتقبلها العلم لأنها ليست ضمن تغطيته، أمّا علاقتها بالخالق فيمكن إيجاد ربطٍ مع الخالق لكلتَا وجهتي النظر، فعندما نقول تصميم فالخالق هو مَن صمّمه، وعندما نقول تطور أو تنظيم ذاتي فالخالق مَن أوجَد القانون ووفر الظروف ليتطور وينتج ما نراه تصميما هندسيا، فالبيوت مصممة وتتطور أثناء البناء، والسيارات مصممة وتتطور أثناء التصنيع فالمهندس الإنشائي مصمِّم البيت، والمهندس مصمم السيارة، والخالق مصمم سوط البكتيريا، فالخالق هو العنصر الواعي الفعال.

يناقض معارضو فكرة "بيهي" كلامَه عن هذه البِكتريا بأسلوب جدلي مستخدمين مثال مصيدة الفئران التي إن فقدت أحد أجزائها يمكن أن تستعمل في مجال آخر، وهذا كلام في الحقيقة سخيف ولا يناقش أصل الموضوع.

تَهَجَّمَ المؤلفُ على "بيهي" باعتباره عالِم بيو كيمياء وليس إحيائيا تطوريا، ولذلك وقع في فخ إله الفجوات! في حين أن "ستينجر" مؤلف كتاب "الإله الفرضية الفاشلة" أيضًا ليس إحيائيا تطوريا وإنما ذو خلفيةٍ فيزيائية، وبالتالي إذا كان الانتقاد هنا لـ "بيهي" ذا أصل فنفسُه ينطبق على ستينجر.

ينتقل ستينجر للكلام حول العين ويذكر كلام ريتشارد داوكنز حول العين البشرية في كتابه "صانع الساعات الأعمى" وكونها مربوطة بالعكس، وبالطبع لا أنا ولا ستينجر نفهم ما المقصود بأنها مربوطة بالعكس! ولكنه مجرد حُكم غير منصف يردده الملحدون في وسيلة للانتقاص من تصميم العين البشرية، حيث يأتي داوكنز وبسبب موقفه من الإله والتصميم ليقول إنها مصممةٌ بالمقلوب، والأغرب من ذلك أنه خلال لقاءٍ تليفزيوني في (ريفليشن تي في) يقول إنه بسبب هذا التصميم المعكوس فإننا نملك عيوناأفضلَ من عيون الأُخطبوطات التي تصميمها غير مقلوب، ويُعزِي سببَ هذه الأفضليةِ إلى عواملَ تاريخيةٍ وإلى الانتخاب الطبيعي الذي عمل على تحسين أداء العين ولذا قلب التصميم!

أنا أتساءل هل يوجد كلامٌ فارغ وإنشائي أكثر من هذا؟ ينتقد تصميمَ العين ويعتبره معكوسًا، ومِن ثم يقول إن هذا التصميم المعكوس يعمل أفضلَ من التصميم الصحيح، وأُعطينا عيونا أفضل تقوم بعملها على أكمل وجه وذلك كله بفضل الانتخاب الطبيعي! يمكنك متابعة نص اللقاء على لينك اليوتيوب الآتي:
https://www.youtube.com/watch?v=fzERmg4PU3c

بصراحةٍ أكثر أنا لا أعتقد أنه يوجد شيء يمكن أن يسيء إلى العلم أكثر من هذا الكلام الإنشائي القائم على وجهات نظر شخصية لِمَا هو معكوس ولِمَا هو صحيح ولِمَا هو أفضل ولِمَا هو تصميم ولِمَا هو انتقاء عبْر ملايين السنين بدون تجربة أو مشاهدة مجرد تصورات، ونكرر أن لا مشكلة لنا مع التطور وإنما مشكلتنا مع الانتقاء الطبيعي الذي تُنسَب له أمورًا خارقة وكأنه مصمّم وعالِم وقادر.

ينتقل المؤلف بعد الكلام عن "بيهي" إلى الكلام عن شخص آخرَ مِن الذين يؤمنون بالتصميم الذكي اسمه "دمبسكي" مؤلف كتاب "التصميم الذكي: الجسر بين العِلم واللاهوت" حيث يستنكر ستينجر عليه دفاعَه الديني الواضح في عنوان الكتاب، وكأن دفاع ستينجر عن دينه الإلحادي غير واضح في عنوان كتابه! المشكلة المتكررة في هذا الفصل أن ستينجر لا يرد على إشكاليات التصميم، ولكنه يحيل القارئ إلى آخرين تناولوا الموضوع فهو يقول في معرض رده على دمبسكي ما نصه "لِحُسن الحظ، فقد تحمَّل عدة خبراءَ مشقةَ تفحص أعمال دمبسكي بإمعان، وقد أظهروا بالإجماع تقريبًا (لنركِّز على تقريبا) أن فيه أخطاء عميقة".

هل الملحدون بالنسبة لستينجر مجرد قطيعٍ ليخبرهم أن هناك علماءَ درسوا وفندوا أقوال دمبسكي وبيهي؟ الإنسان المفكر يريد معلوماتٍ ليحكم على المواضيع بعقله لا بعقل غيره، وبخلافه فهو مؤمن بالإلحاد شاء أم أبَى، ثم ماذا يقصد ستينجر بكلمة "تقريبًا وماذا عن البقية؟! هل اتفقوا مع دمبسكي أم ماذا؟ بعبارة أخرى هل تتقبل منّي عزيزي القارئ أن أقول إن الكثير من العلماء فندوا الانتخاب الطبيعي بدون شرحه لك؟

مِن الملاحظات التي لا بأس بذكرها هنا هو أن بعض المشاريع الإلحادية المتسترة بستار العلم في العالم العربي والتي تدعو إلى القراءة والتطور في المجال العلمي تترجم كل كتاب يقع بين أيديها يدعو إلى الإلحاد، ولا تترجم الكتبَ المقابلة والتي ذكرنا بعضها أعلاه مثل كتاب بيهي وديمبسكي وانتوني فلو، كذلك نجدها تترجم الوثائقياتِ المختلفةَ التي تدعو إلى الإلحاد وتروِّج له، ولا تترجم الوثائقياتِ التي تحمل وجهاتِ النظر المخالفة، مثلا اليوم شاهدتُ وثائقيا على اليوتيوب اسمه "يوم الحكم: محاكمة التصميم الذكي" ترجَمَته جماعةٌ ملحدة متسترة بستار المعرفة العلمية ضمن المشروع العراقي للترجمة.

والجماعة فرِحة بمثل هذه الوثائقيات على الرغم من أنها لا تفسر سبب رفض المحاكم لتدريس التصميم الذكي بشكل منصف ولكونه يخالف مبادئ المنهج العلمي ويتجاوز حدوده كما بيَّنا، وإنما تحاول القول إنه أمر سخيف ولا أصل له وهكذا بدلا من إفهام الناس ماذا يجري وبشكل منصف فإنها تزيد من تجهيل المجتمع. حيث لم تترجم هذه الجماعات وثائقَ ولا كتابًا يطرح وجهة النظر المقابلة للإلحاد من باب الإنصاف والاطلاع على الموضوع من جوانبَ مختلفةٍ، وكذلك لم يترجموا كتابا هندسيا أو اقتصاديا من الممكن أن يساهم في دفع عجلة الأُمة إلى الأمام ولكن اهتمامهم هو الدين فقط، وهؤلاء تناسوا أن الغربَ اليوم يعيش حالة من الرُّقِي والتطور تؤهله للكلام في أمور الدين ونقدِها وتنقيتها، فلو كانوا يعيشون مثل

ظروفنا لكانت الأولوية للعلوم التي تساهم في رفعة المجتمع من المواضيع السياسية والاقتصادية والسيطرة النوعية وطرق التدريس وغيرها، فأمور التطور والانتخاب الطبيعي والإلحاد والدين تعتبر ترفًا فكريًا لشعوب يمزقها التخلف والجهل والدكتاتورية وانعدام الخدمات وانعدام الإنسانية.

ينتقل ستينجر من دمبسكي فجأةً إلى عنوانٍ فرعي اسمه "المعركة السياسية اليوم" مؤكدًا أن الجمعياتِ العلميةَ الكبرى في الولايات المتحدة تدعم التطورَ وترفض التصميم الذكي، وهذا أمر طبيعي فالجمعيات العلمية تتبع المنهجَ التجريبي الحسي، فالأمر لاعلاقة له بالصحة والخطأ وإنما بسبب منهج الوصول إلى الاستنتاجات في التصميم الذكي (المنهج العقلي) والذي يختلف عن منهج الوصول إلى الاستنتاجات في نظرية التطور، وقد كررتُ هذا الأمر مراتٍ كثيرةً لأن الإشكاليات التي تُطرَح هي بسبب عدم فهم أو تجاهل هذه النقطة الحساسة التي نحتاج أن نفهم المنهج العلمي بشكل كامل لنفهمها، وبالتالي تتقبل الجامعات والمحاكم ما يتلاءم مع تعريف المنهج العلمي القائم على التجربة والمشاهدة، وهذا الأمر نجده واضحًا عندما ندرس بشفافية حيثيات قرار المحكمة الفيدرالية في ولاية بنسلفانيا الأمريكية برفض تدريس التصميم الذكي كمنهج علمي لأن دافعه دينيٌّ، وبالتالي فإن تدريسه أمرٌ غير دستوري على اعتبار أن الدستور الأمريكي يقِر بفصل الدين عن الدولة، حيث إن قرار المحكمة اعتمد على كون العلم يمتلك الخصائص الآتية بناءَ على شهادة الفيلسوف مايكل روز في المحكمة:

المنهج العلمي	التطور	التصميم الذكي
يقوده القانون الطبيعي	نعم	نعم
يجب تفسيره استنادا لقانون الطبيعي	نعم لذا تم اللجوء إلى ما يسمى بالانتقاء الطبيعي حيث يُعزَى له كل الجمال والدقة في الكون، ولولا ذلك لما أصبح التطور علمًا وقبل بتدريسه في الجامعات والمدارس، وإنما مجرد دليل على وجود خالق ومصمم أبدع في جمع الأجزاء المختلفة ضمن نظام محكم	كلا لا يفسره وإنما يعزيه إلى قوى ذكية وخارقة
يمكن اختباره مقابل العالم التجريبي	نعم ولكن ضمن حدود	نعم
استنتاجاته مؤقتة	نعم	نعم
قابل للتخطئة	نعم	نعم

وكما نلاحظ النقطة التي أدّت إلى رفض المحكمة الفيدرالية تدريس التصميم الذكي هي أنه يحيل إشكالية التصميم إلى قوى خارقة لا يمكن تفسيرها في ضوء القانون الطبيعي الذي يعتمد الحس والتجربة، ونتيجة

لذلك فإنه لا يمكن اختبار هذه القوة مختبريا والتأكد من صحة المزاعم التي يسوقها التصميم الذكي، ولكن هذا لا ينفي وجود التصميم من حولنا وهذه نقطة أساسية يجب فهمها عند الكلام عن المحكمة ولماذا رفض التصميم الذكي وقبل التطور. العلماء الذي رفضوا التصميم الذكي قاموا بإقصاء مشاهدات حسية وتجريبية تدل على التصميم (والذي هو تجمع لعدة أجزاء تعمل معًا للقيام بهدف معين) وهنا تكمن دكتاتورية المنهج العلمي، حيث يتم منع التفكير والتفسير ضمن نطاق المنهج العقلي البرهاني للعقل لمجرد أن هذا التفكير يقع خارج الحدود التي وضعوها كمنهج للعلم .

مؤلف كتاب "الإله الفرضيه الفاشلة" يعترض على قرار المحكمة ويعتبر أن التصميم الذكي عِلم ويمكن تخطئته، وأن قرار المحكمة يعطيه حصانة غير مبررة، ولا أعرف كيف غير مبررة؟ وخصوصًا أن التصميم الذكي يحتوي على مخالفة صريحة للمنهج العلمي كما هو الحال في كتاب "الإله الفرضية الفاشلة" وبسبب ذلك ترى المؤلفَ منزعجًا من هذا الحكم لأننا لو حاكمنا كتابَه على نفس المنهج لرفض أيضًا. باعتقادي الشخصي أن قرارَ المحكمةِ لم يكن غير مبررٍ بالعكس كان قرارًا سليمًا في ضوء المنهج العلمي.

التنظيم الذاتي موضوعٌ فرعي آخر في هذا الفصل، أمرٌ اضطُرَ إليه المؤلف والعلماء لكون الأدلة تشير إلى ما هو أبعد من الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، وبما أن العلم لا يمكن أن يعترف بالتصميم الذكي فقد اضطر إلى إيجاد ما يسمى بالتنظيم الذاتي، ولكن ما الفرق بين التنظيم الذاتي والتصميم الذكي؟ الجواب هو بكل بساطة أمرٌ واحدٌ فقط هو أن التصميم الذكي يحيل الموضوع إلى قوة عاقلة خالقة، والتنظيم الذاتي يحيلها إلى عملية طبيعية صِرفة، أي بعبارة أخرى يُحيلها إلى الصدفة التي يقبلها العلم وإن كانت فكرة مستحيلة لأنها تفسر التصميم ضمن القانون الطبيعي.

الدليلُ على التنظيم الذاتي الذي يسوقه المؤلف هو كتابٌ مزيَّنٌ بالصور بعنوان "النقش الذي صنَع ذاتَه" حيث يعطي الكتابُ أمثلةً على تشكل الأنماط في الطبيعة مثل الظهور المتكرر لمتواليةٍ عددية يكون فيها كل حدٍ عبارةً عن مجموع الاثنين السابقين مثل :٠، ٢، ٢، ٤، ٦، ١٠ وهكذا حيث إن الرقم ٤ جاء من مجموع الحدَّيْن السابقين ٢+٢ و١٠ جاء من مجموع الحدَّيْن السابقيْن ٦+٤ وهكذا وهذا الترتيب يظهر في أوراق (بتلات) الأزهار واعتبر ذلك دليلاً على أن العملياتِ الطبيعيةَ (الصدفة) قادرةٌ على إنتاج معلومات معقدة محددة، ودليلُه هذا في الحقيقة لاقيمة له لأن الخلاف ليس حول وجود أو عدم وجود تصاميمَ معقدةٍ وإنما الكلامُ حول مصدر هذا التعقيد وهل هو عمليات طبيعية عشوائية (صدفة)؟ أم تخطيط مسبق؟ وكنتيجةٍ لدقة الكون مِن حولنا لا نستغرب مثل هذه المتواليات والخالق ممكن أن يوجد هذه المتواليات بكل بساطه ولعله أدرك ضعف هذا المثال فعزَّزَه بتجربة أُقيمت عام ١٩٩٢حيث وُضِعتْ قطيراتٌ من سائلٍ ممغنط على غشاء من الزيت، وتم تسليط مجالٍ مغناطيسي عمودي عليها مما أدى إلى تنافرها عن بعض، وسُلِّط مجالٌ آخر ليدفع القطراتِ إلى الجوانب، حيث لوحِظَ أن القطيراتِ رَتبتْ نفسَها في لولب مزدوج المظهر، وبالتالي آلية تكوُّن اللولب فيزيائية وليست بيولوجية! (وكأن الخلاف والكلام كان حول آلية ظهور نماذجَ معقدةٍ وهل هي آلية فيزيائية أم بيولوجية!!) على العموم يستمر في سرد الأمثلة حيث يؤكد إن هذه التجربة يمكن عملها

حاسوبيًا أيضًا، وقد ظن ستينجر أنه حقق فتحًا علميًا جديدًا وهو يستخدم برنامجًا حاسوبيًا بسيطًا لمحاكاة التجربة أعلاه.

يجب التأكيد أن هذه التجارب لا علاقة لها بالواقع، ولا يمكن الاعتقاد بأن مثل هذه التجارب تحاكي واقعَ تكوّنِ الأزهار أو الأنماط المعقدة الأخرى في الطبيعة وذلك لعدة أسبابٍ أهمها أن العملية التي أدت إلى تجمُّع القطرات عمليةٌ خضعت لقوانين فيزيائية فمِن أين أتت هذه القوانين؟ وجود العنصر الواعي الفعال وهو الإنسان في التجربة أعلاه حيث أتى بالقطرات وسلَّطَ عليها المجالَ المغناطيسي، جميع العوامل المختبرية الأخرى بحيث لو أُبعِدَ أي مؤثرٍ قد يؤدي إلى عدم إعطاء نتائج، بالتالي مثل هذه التجارب لا تثبت بأية حال من الأحوال بأن ما يحدث مِن حولنا هو عمليات عشوائية أو تنظيم ذاتي،بالعكس هذه التجربة تثبت أن كل ما يحدث مِن حولنا يَخضع لقوانين صارمةٍ تحت تأثير العنصر الواعي الفعال (نظرية العنصر الواعي الفعال هي فكرةٌ جديدة ولم يتم تداولها في الكتب ذاتِ العلاقة).

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى ما يسمى بالتصميم الرديء، حيث تكلم عن مقالة بعنوان "لو بني البشر كي يدوموا شخصَنَ نقاطَ الخلل في جسم الإنسان وأظهر كيف أن تعديلاتٍ بسطيةً يمكن أن تساهم في زيادة عمر الإنسان إلى مائة عام أوأكثر، يسترسل المؤلف في كلامه عن الإنسان المثالي الذي يعيش لفترة أطول وأنه يجب أن يملك أُذُنيْن أكبر، وعيونا أُعيدَ ربطُها، ورقبة مقوسة، وجذعا يميل للأمام، وأطرافا وقامةً أقصر، حشوة أكبر حول المفاصل، ومزيدًا من العضلات والشحوم، وطبقاتٍ فقريةً أسمَكَ، ومفصلَ رقبةٍ معكوسا والمزيدَ، والنتيجة تكون كما يقول المؤلف "لن يبدو جميلا جدًا، (أي لن يتحقق قوله تعالى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، والأحسن هنا هو المراعاة بين مختلف المظاهر الجمالية والقدرة على تأدية الوظائف)، يتدارك المؤلف هذا النقدَ اللامبرر بقوله ولكن رغم قصورها ما تزال الأجزاء المختلفة لجسم الإنسان والأنواع الأخرى تؤدي وظائفها ويكيل الفضل والعرفانَ للانتخاب الطبيعي الذي كما يزعم لا يسعى للكمال أو الحياة الرغيدة الأبدية (لاحظ كلمة يسعى) فالجسم يفترَض به أن يعيش بما يكفي ليتكاثر ويربِّي صغارَه، وبقاء النوع لا يتطلب أن يبقى الأفراد طويلاً بعد تكاثرهم، ولكننا كبشرٍ نبقى، رغم حيويتنا المتناقصة لأن التطور البشري نتجت عنه ذريةٌ تتطلب سنواتٍ كي تنضج، وأجداد تبقت لديهم سنوات كافية للمساعدة في رعايتهم، إذ أتحدثُ كجَدٍ أقول: شكرًا أيها التطور!

توقفتُ طويلا لأبحث عن كلامٍ لأردَّ به على هذا الكلام الإنشائي غير العلمي والشكر والتبرير للانتخاب الطبيعي وكأنه قوةٌ عاقلة وكيانٌ معين ليتم شكره، الأمر المضحك هو كيف يُظهِرون محاسنَ الانتخاب وينتقدون التصميمَ على الرغم من أن النتيجة واحدة؟ والكلام عن شيء واحد ولكن الفرق أن الانتخاب يتناسب مع عقليتهم الإلحادية، والتصميم لا يتناسب معها.

بقيةُ الكتاب – نتيجةً لعدم اعتراف المنهج العلمي التجريبي الحسي بأي محاولة لتجربة الأمور اللامادية أو الفوق طبيعية– كما سبق، لذا فإنني لن أُضيِّع وقت القارئ في الكلام كثيرًا عن هذا الكتاب لأنه منهجية غير علمية، وإنما مجر كلام إنشائي وسأكتفي بنقل بعض الملاحظات من بقية فصول الكتاب وبشكل سريع، ويمكن للمهتم مراجعة الكتاب والكلام الإنشائي الكثير فيه ووجهة النظر لأمور تاريخية مثل نظرة اليهود لليوم

الآخِر والإغريق واليونانين وغيرهم، واليوم هناك الكثير من النقاط التي يتم إثارتها هنا وهناك وخصوصًا فيما يخص الأمور التاريخية، وهذا بحرٌ متلاطمة أمواجه، فنحن كعربٍ مختلفون في أحوال وأفعال وأفكار رؤساء عاشوا بيينا كـ حُسني مبارك، والقذافي، وصدَّام فكيف بمَن عاشوا قبل آلاف السنين؟

في الصفحة ١٢٤ من النسخة العربية يقول ما نصه:

"وكما أكدتُ مِن قبل فإن برهان إله الفجوات على وجود الله يفشل حين يمكن تقديم تفسيرعلمي معقول للفجوة في المعرفة الحاضرة، إنني لا أشك في أن الطبيعة الدقيقة لأصل الكون ماتزال فجوة في المعرفة العلمية، ولكني أرفض فكرة أنَّا محرومون من أي طريقة معقولة لتفسير هذا الأصل علميا، باختصار؛ تدل الأدلة التجريبية والنظريات التي وصفت بنجاح هذه البيانات على أن كونًا لم ينشأ من خلال خلقٍ هادفٍ يمكننا أن نفهم الكثير من فكر الملحدين ومبانيهم من هذه المقولة:

أولا – تفسير علمي معقول: أتت كلمة "معقول" وليس (حقيقي) لأنه في الأمور التي حدثت قبل ملايين السنين لا يمكن أن يكون تفسيرنا مطابقًا للواقع لكثرة المتغيرات والمؤثرات التي لا سبيل إلى حصرها بشكل كامل، التفسير سيوضح لنا "كيف" حدث الأمر ولكن لن يكون بمقدوره أن يوضح لنا "لماذا حدث الأمر، هذه نقطة مهمة جدًا في منهج العلم الذي يتعامل فقط مع الموجود أي "كيف" تعمل ظاهرة معينة بعد أن تتم معاينتها بأدواتنا الحالية وهذه الأدوات تتطور بمرور الزمن، وبتطورها قد تختلف المشاهدات وبالتالي الاستنتاجات وهذه الاستنتاجات تقودنا إلى النظريات، وكما نعرف فإن النظرياتِ ومعرفتَنا الحالية بالتأكيد سيطرأُ عليها الكثير أو القليل من التعديلات أو التغييرات مستقبلاً، وبالتالي حتى الإجابة عن "كيف" التي يوفرها العلم النسبي قائمةٌ على رمال متحركة ولا تعطي إجاباتٍ عن "لماذا" بكل حال من الأحوال، بالتالي حتى لو كانت هناك غاية وإجابة لسؤال "لماذا" فإن العلم لا يتعامل معها؛ لأنها خارج تغطيتِه ومنهجه وسيتجاهلها بشكلٍ كامل.

ثانيا– بناءً على النقطة الأولى وكون أن العلم النسبي في أحسن الأحوال يعطي تصورًا "معقولاً" وليس "حقيقيًا" عن سؤال كيف حدث الأمر، فإنه بكل تأكيد لن يجيب عن سؤال "لماذا" حدث، وبالتالي مقولة الكاتب في نهاية الاقتباس والتي تقول إن الكون لم ينشأ من خلال خلقٍ هادف مقولةٌ لا قيمة علمية لها ولا تتجاوز كونها شعاراتٍ إلحادية.

ثالثا – لا يوجد ما يسمى "إله الفجوات" وإنما يوجد بالتأكيد "عِلم الفجوات" وهو ما أسميه العلم النسبي، وهذا ما يجب أن نعرفه وبوضوح، فلولا كثرة الفجوات في العلم النسبي لَمَا عرَفنا بشيء اسمه "إله الفجوات".

رابعًا– على الرغم من قوله إنه لا يوجد هناك خلقٌ هادف فإنه في الصفحة رقم ١٢٥ يتكلم عن مذنَّب شوهِدَ عام ١٦٨٢ قال عنه اسحاق نيوتن إنه سيعود عام ١٧٥٩ وقد عاد بالفعل ومازال يعود كل ست وسبعين سنة، والأمر أكثر من ذلك فاليوم نحن نعرف متى سيحدث الكسوف والخسوف لمئات السنين مستقبلاً، نحن نعرف أن الأرض تدور حول نفسها بشكل يومي، وحول الشمس بشكل سنوي منذ ملايين السنين، والحال مستمرة وغيرها الكثير من الأمثلة، ولولا النظام والتصميم الموجود في الكون لَمَا عَرَفنا ولَمَا بقيت الحال على ما هي عليه! فهل هذا الأمر مجرد صدفة؟ أم أن الخلق منظَّمٌ وهادف؟

الأمر أكثر من صدفة بالتأكيد، والعقل الحُر يقر بذلك، أمّا العقل المؤدْلج فيتمسك بشعارات لرفض كل هذه الأدلة من حوله ليحم تجربة البِكتيريا أكثر مما تتحمل بكثير، حيث يستنتج من تجربة بكتريا يتم تجميدُها مختبريا لأيام طويلة فتفقد بعض خصائصها كدليل على تطور الحياة من لا شئ وبالصدفة في كون نشأ بالصدفة! سيعترض الملحدون مرة أخرى ويقولون إن التطور ليس صدفة، وأنا لم أتكلم عن التطور هنا وإنما عن أصل الحياة والكون وهُما صدفة بالتأكيد فلا انتخاب طبيعي ولا هُم يحزنون.

مِن أين أتت قوانين الفيزياء؟

هذا الموضوع الفرعي في أسفل الصفحة ١٢٥ من كتاب ستينجر أعتقد أنه الشعرةُ التي قصمت ظهر الزرافة، حيث يثبت هذا الموضوع أن الملحدين يتجاوزون العلمَ وإجماع العلماء في سبيل إثباتهم مبانيهم الإلحاديةَ، والدليلُ هو قوله في نهاية هذا الموضوع (صفحة ١٢٧) حيث قال ما نصه "لا شك أن هذه الفكرةَ صعبةُ الفهم، وآرائي في هذا الموضوع بالذات لا يتقبلها إجماع الفيزيائيين، رغم أنني أُصِر على أن العلم الذي أستخدِمه مثبتٌ تمامًا وشائع".

هذا المثبت والشائع الذي لا يتقبله إجماع الفيزيائين ويحاول ستينجر إثباتَه يقول أن القوانين في الطبيعة مجردُ ضوابطَ وضعها الإنسان أو كما عبر ستينجر أنها تقييدات للطريقة التي يفسر بها الفيزيائيون السلوكَ، وقد دافع الملحدون بغرابة عن هذا الكلام عندما ناقشتهم به، ولا أستغرب أن يدافعوا عن شيوخهم ومراجعهم، فالقوانين في الطبيعة ومصدرها وسببها أمر مزعج للملحد كثيرًا، ولذا لجأ ستينجر إلى هذا المَهرَب الذي على الرغم من أنه يخالف إجماع الفيزيائيين فإنه يراه شائعًا ومثبتًا والأدلة عليه كثيرة.

أنا أتعامل مع القوانين بشكل يومي لذا أتفهم ما يقوله ستينجر حيث إننا فعلاً نتعامل مع ضوابط وليس مع قوانين صارمه، مثلا قوانين الهندسة والميكانيكا نضطر في الكثير من الأحيان لإهمال الاحتكاك والجاذبية ودرجة الحرارة وغيرها لنتجنب التعقيد، ولكن هذا لا يعني أن القانون مجرد ضوابط، وإنما يعني أن الواقع يحكمه قانون محكم ودقيق جدًا وتصميم أعقد بكثير من القانون الذي وضعناه ونستخدمه يوميًا.

ولا بأس هنا أن نتكلم عن قوانين الفيزياء التي تعتبر أحد أهم أدلة التصميم (عندما أقول التصميم فلا أقصد التصميم الذكي وإنما أقصد التصميم الفعال، راجِع المصطلحات) فهذه القوانين كأصل للحياة وأصلٍ للكون وليس أمامنا خيار سوى أن نقول إنها أتت صدفة أو إنها أتت نتيجة لوجود مصمّم بديع، ولذا لم يكن أمام الفيزيائي "لورنس كراوس" ألا أن يقول إن هذه القوانين أتت صدفة، وهو صادق بقوله بعكس الكثير من الملحدين، وهذا هو المَخرج الوحيد للملحدين بدون فلسفة كلامية مشابه لتبرير ستينجر بقوله إن القوانين نشأت من داخل الكون وليس مِن خارجه وأنها مجرد ضوابطَ وضعناها لفهم كيف يعمل الكون ....

ولا فرق إن كانت مِن داخل الكون أو مِن خارجه فهي إما أتت صدفة وإما نتيجة مصمِّم مبدع، هو يريد أن يؤكد ولو بأسلوب جدلي أن القوانين نشأت من داخل الكون وأنها لم تأتِ من خارجه لأنه يعتقد أن هذا الإثبات يؤدي بالضرورة إلى عدم وجود خالق، ولكن لا ضرورة لذلك فالخالق المبدع ليس كما يعتقد ستينجر مارد علاء الدين الذي يأتي بالقصر في ليلة واحدة بدون مقدمات ولا أسباب!! ففي نظر الملحدين أن علاء الدين هو المؤمن، والمارد هو الخالق فإذا أثبتوا أن القصر بُنِيَ بأيادي عاملين ومهندسين وباستخدام موادِ

البناء فإن المارد كذب وعلاء الدين مؤمن بخرافة! وهذه نظرة سطحية لإيمان المؤمنين، فالمؤمن ليس علاء الدين، والخالق ليس الماردَ، والإيمان ليس بهذه البساطة والسطحية، والخالق عندما يخلق لا يعني أنه يكسر الضوابطَ الكونيةَ التي أوجدها، بل يكون ضمن الضوابط الكونية التي وضعها ضمن الكون ولا يأتي فجأة.

فالقرآن مثلا في سورة هود يقول هو الذي أنشأكم من الأرض يعني أن أصلَ الإنسان من الأرض وليس كن فيكون، وهكذا فالله سبحانه وتعالى يأخذ بالأسباب ولذلك جاء قوله تعالى أن أعدوا ما استطعتم من قوة لتنتصروا وغيرها من التوجيهات التي تؤكد أن الخالق يؤكد على اعتماد القوانين الجارية لنصرته رسوله والمؤمنين.

أمّا القول بأن القوانين مجرد ضوابطَ وضعناها أو كما عبَّر ستيجر أنها تقييدات للطريقة التي يفسر بها الفيزيائيون السلوك، فهو كلام غير صحيح لأن سلوك المادة يتبع القانون وليس العكس، فمختلف المواد تتبع سلوكا محددا يفرضه القانون الطبيعي.

من الأمور الأخرى أن الكتاب يذكر آراءَ بعضِ الفلاسفة والعلماء وبدلا من الرد عليها بشكل علمي فإنه يستهزء بها أو يورد عباراتٍ لأشخاص استهزؤوا بها! وهذا شيء مستغرب في كتاب من المفروض أن يكون كتابا علميًا، مثلا في الصفحة ١٣٧ ينقل كلام الفيلسوف الألماني "غوتفيد" الذي عاش في القرن الثامن عشر حيث قال "إننا نسكن في خير العوالم الممكنة" فكان جواب سيتنجر أن نقل استهزاءً لفيلسوف فرنسي ورد في قصه قصيرة كتبها!

وقبْلَ الانتهاء من المرور على هذا الكتاب لا بد أن نذكر ماذكره في الفصل الرابع على لسان الفيلسوف المعروف "ديفيد هيوم" عند انتقاده لفكرة المعجزات حيث قال إنه يمكن التعرف على ثلاثة أنواع من المعجزات:

أولا: اختراقات لقوانينَ طبيعةٍ ثابتة.

ثانيا: أحداث غير مفسرة

ثالثا: مصادفات غير محتملة

وقد علَّقَ عليها فيكتور ستينجر بكلام طويل يُنسِي بعضُه بعضًا، ولكن مقولة ديفيد هيوم تثبت بالحقيقة أن الكون هو معجزة حقيقة فالعلم اليوم يثبت أن الكون يحتوي اختراقاتٍ لقانون الطبيعية لا يمكننا أن نفسرها بشكل كامل (احداث غير مفسرة) وكذلك مصادفات غير محتملة عديدة تمثلت في الكون الملائم والخلية الأولى والـ دي إن آي، ودوران الأرض حول الشمس وحول نفسها وغيرها من المصادفات الكثير التي تقودنا إلى أن احتمالية تواجدها في الكون بهذه التشكلية تصل إلى أقل بكثير من واحد في مليون تريليون كما بيَّن العالِمُ الفيزيائي "هيو روس" في كتابه "الخالق والكون"، وهكذا يبرز لنا الواقع الذي نعيش فيه وفق المنهج التجريبي الحسي أنه معجزة كبيرة ودليل على وجود قوة قادرة ذكية وخارقة حسب مقياس الفليسوف ديفيد هيوم.

نكتفي بهذا القدْر من الكتاب حتى لا نقع في فخ التفصيل المُمل بالإضافة إلى أن الكتاب كما هو واضح لا يعبِّر عن عنوانه وهو ليس فعلا كتابا علميا ولكنه يتمسَّح بالعِلم.

هناك إله – أنتوني فلو

مِن باب الإنصاف وقبلَ أن أختم هذا الفصلَ سأمُر مرور الكرام وباختصار شديد على كتاب أنتوني فلو – "هناك إله" .

بدايةً مَن هو أنتوني فلو؟

أنتوني فلو فيلسوفٌ إنكليزي اشتهر بكتاباته في فلسفة الأديان، وقد درس في أكسفورد، ولد عام ١٩٢٣ وتوفي في عام ٢٠١٠ وكان مِن المدافعين عن الإلحاد مشدِّدا على ضرورة أن يتبنى الشخص الإلحاد حتى يتم الحصول على أدلةٍ مادية تثبت وجود خالق، وكان ينتقد فكرة وجود حياة بعد الموت وقد ألَّفَ الكثير من المؤلفات المشهورةمنها "التطور الدارويني" (١٩٨٤) وله العديد من الجُمَل الفلسفية التي تنفي وجودَ الخالق، وما يزال الملحدون يستخدمونها لليوم وقد يكون ستينجر قد استخدم مفرداته في كتابه "الإله الفرضية الفاشلة". في عام ٢٠٠٤ وبعد عقودٍ من إلحاده تَفاجأ العالم بتحوله إلى الاعتقاد بوجود خالق للكون خلال ندوة جمعته بعلماءَ آخرين بعضهم ملحد وبعضهم مؤمن معلِّلا ذلك بأنه اتخذ عهدًا على نفسه بأن يتبع الأدلة حيثما تقوده وهكذا قاده العلم إلى الخالق.

في الجزء الأول من كتابه "هناك إله" تكلم عن رفضه لفكرة وجود خالق وكيف بدأت ولماذا، وقصته قد تُشابِه قصصَ الكثير من ملحدي العالم وهي ببساطةٍ ردة الفعلِ على ما شاهده من مظاهر توحي بالعبث واللاعدالة في الحياة، حيث يقول توصلتُ إلى استنتاج عدم وجود خالق بشكل سريع جدا وبشكل سهل جدا، ونتيجةً لذلك اكتشفتُ بعد فترةٍ طويلة من الزمن أن أسبابي كانت خاطئة ومِن أهم تلك الأسباب مسألة الشر في الكون، حيث كنتُ أسافر مع والديَّ اللذيْن كانا مِن المسيحيين البروتستانت إلى ألمانيا وفرنسا في الصيف، وقد تأثرتُ بشدة خلال الأسفار التي سبقت الحربَ العالمية الثانية حيث كنت أرى اللافتاتِ خارج المُدن الصغيرة والتي يُكتَب عليها "غير مرحبٍ باليهود هنا" وكنت أشاهد القواتِ العسكريةَ النازية والجناحَ العسكري للحزب النازي بملابسهم السوداء مع علامة الجمجمة والعظمتيْن عليها، هذه التجارب أثارت عندي التساولات حول وجود الإله المُحِب العطوف والتي أدت في النهاية إلى أن أُصبح ملحدا في سن الخامسة عشر من عمري.

ولكن لم تكن لديَّ الجرأةُ لأناقش والدي في الموضوع أو حتى أخبره لعواملَ كثيرة منها أنني لا أريد أن أكون سببًا لوضع غير مريح في المنزل. وفي سن الثالثة والعشرين، أخبرت والدي أنه من المستحيل أن أعود عن موقفي، يعقب توني فلو على هذه الحادثة بقوله "أستطيع أن أقول إن والدي سيكون سعيدا جدا لو عَلِمَ بموقفي اليوم". يستمر أنتوني فلو بسرد رحلته حيث يقول، خلال تلك الفترة كنتُ قد شكلت بعض الرؤى الفلسفية لموقفي حتى قبل أن أدرس الفلسفةَ ولكنها لم تكن ناضجةً بشكل كامل، خلال تلك الفترة انجذبتُ لليسار الاشتراكي ولكنني لم أنتمِ للحزب الشيوعي كما فعل الكثير من رِفاقي، والسبب في ذلك هو تصرفات الحزب الشيوعي البريطاني وطاعتُه العمياء للأوامر التي تأتيه من موسكو، حيث إن مؤسساتِ الحزب بدأت تعلن رفضَها للحرب ضد ألمانيا النازية باعتبارها حربا لا فائدة منها، واستمر هذا الموقف حتى عام ١٩٤٠ عندما كان البلد معرَّضا للاحتلال الألماني ولكن بين ليلةٍ وضُحاها تحوَّل موقف مؤسسات الحزب إلى داعمٍ

للحرب ضد ألمانيا النازية عندما قامت ألمانيا باجتياح الاتحاد السوفييتي، وبالتالي لم يكن لهم علاقة مع الشعب البريطاني. (ملاحظة : الشاعر العراقي المعروف بدر شاكر السياب يذكر في مذكراته موقفًا مماثلاً من الحزب الشيوعي العراقي ولنفس الأسباب وقد نشرت في إحدى الصحف العراقية في وقتها وموجودة على شكل كتاب مطبوع اليوم).

خلال الندوة التي جمعته مع علماءَ آخرين وأعلن فيها انتقالَه إلى الإيمان قال إن مِن بين أعظم اكتشافات العِلم الحديث هو اكتشاف الخالق، حيث تم سؤالُه هل كان للأعمال الخاصة بأصل الحياة دورٌ في موقفه الجديد؟ وكان جوابُه نعم .. الشفرة الوراثية وتعقيدها أثبتت بما لا يقبل الشك أنها بحاجة إلى مصمّمٍ عَملَ على جمع هذه الأجزاء وجعلها تعمل سويةً (لقد ذكرنا سابقًا إن تعقيد الشفرة الوراثية دفع العالِمَ الحائزة على جائزة نوبل إلى الاعتقاد في وجود نوعٍ من الكائنات الفضائية قامت بزراعة الشفرة الوراثية على الأرض! ولا ندري مَن خَلَق هذه الكائناتِ على فرض وجودها؟). يضيف أنتوني فلو إن هذا الإعلان هو تغيير كبير في حياتي، ولكنه يندرج ضمن الموقف الذي تبنيتُه منذ الصغر في حياتي وهو أن أتبع الدليلَ إلى نهايته وسأقبل بالنتيجة مهما كانت.

في الجزءِ الثاني من كتابِه يبدأ بالكلام عن اكتشافه وجودَ خالقٍ، حيث انتقدَ المقولاتِ التي يرددها بعض الملحدين مِن قبيل "ليس من المفروض أن نطالب بتفسيرٍ لسبب وجود الكون، الكون موجود وهذا هو المهم"، "إننا لا نستطيع أن نقبل بوجود عامل لا مادي لوجود الكون، لذا نقبل بالمستحيل (الصدف)"، "الحياة نشأت بالصدفة من المادة"، "القوانين الطبيعية هي ليست قوانين حقيقة وإنما أمرٌ اخترعناه". وقال إنها قد تبدو محتوية على بعض المنطق ولكنها في الحقيقة لا تحتوي على أي دليل يساندها، وكذلك قال في هذا الجزء "أنا اليوم أعتقد أن الكون أنتجته قوةٌ عاقلة ذكية وتحكمه قوانين تدل على عظمه الخالق، أنا أؤمن أن الحياة خلقتْ بتدخلٍ إلهي ولكن قد يتساءل البعض لماذا أؤمن بذلك؟

والجواب ببساطة لأن صورة العالم المستخلصة من العلوم الحديثة، كما أراها، تسلّط الضوءَ على ثلاثة أبعادٍ تشير إلى وجود خالق: البعد الأول أن الطبيعة تقاد من القوانين، البعد الثاني هو الحياة المنظمة بذكاء والتي تتجه إلى هدف، البعد الثالث هو وجود الطبيعة نفسهًا. ويقول أيضًا إنني يجب أن أؤكد أن إيماني بالخالق تم على مستوى الواقع الصرف بدون أي تدخلٍ لأي نموذج ديني موجود أو أي تجربة شخصية مع الخالق، باختصار، اكتشافي للخالق تم من خلال مقدمات منطقية وليست إيمانية.

مِن الامثلة الذي ذَكَرها في هذا الجزء قوله (لو فرضنا أن جهاز موبايل لديه إمكانية الاتصال عن طريق الأقمار الصناعية وقَعَ في جزيرة تسكنها قبيلةٌ بدائية لم تتصل سابقا مع أي حضارةٍ إنسانية، سيقوم سكانُ القبيلة بنقر الأرقام بشكل عشوائي ونتيجةً لذلك سيستمعون إلى أصوات مختلفة، أبناء القبيلةِ الأذكياء "العلماء" سيقومون بالتجربة مرة أخرى وسيسمعون الأصواتَ مرة أخرى، الاستنتاج سيكون واضحا لهم، وهو أن الجهاز فيه أجزاء تتضارب مع بعضها البعض لتعطي صوتا مشابها لصوت الإنسان. وهذا يعني أن الأصواتَ تَصدر مِن أجزاء الجهاز نفسه، رئيس القبيلة اجتمع بعلماء قبيلتِه للنقاش وطلب منهم المزيد من التحقيق حول احتمالية وجود نوع من الاتصال مع

حضارات بشرية أخرى، ولكنَّ العلماءَ ضحكوا على هذه الاحتمالية وقالوا له لو كسرنا الجهاز لَمَا سمعنا الأصوات، وهذا معناه أن تضاربَ أجزائه هو ما يسبب الصوتَ وليس الاتصال مع حضاراتٍ أخرى خارج حدود جزيرتنا).

خاتمة الفصل الثالث

يلاحظ المتتبِع لكتابَيْ "وهْم الإله" و"الإله الفرضية الفاشلة" أن الملحدين غالبا ما يحتجُّون بموادِّ هذين الكتابيْن وينسبونها إلى أنفسهم في عملية سرقةٍ واضحة للمعلومات. والأذكياء منهم يحاولون أن يغيروا الأمثلةَ والتعابير الواردة بأمثلةٍ وتعابيرَ مستخلصةٍ من بيئتهم، لذا كان من الواجب توضيح معالم هذيْن الكتابين مع الردود عليها لأنه في الرد على مثل هذه الكتب يمكن الرد على الكثير من إشكاليات الملحدين وأفكارهم. بالنسبة لكتاب أنتوني فلو فقد مررتُ عليه مرور الكرام، وتعتبر تجربته إحدى التجارب المهمة ويجب على المهتم الاطلاع على الكتاب بشكلٍ أكثرَ تفصيلا.

الفصل الرابع
المُساجلات (نقاشات في العلم والدين)

هناك الكثيرُ من المُساجلات التي يمكن أن ندرجها هنا، ولكن بالطبع كتابٌ واحدٌ لا يكفي، لذا ندرج هنا عيّنةً من المساجلات والنقاشات التي تتلاءم مع موضوع الكتاب، سيتم الاستشهاد بالآيات القرآنية في الفصل وهي حجة على المؤمن بالقرآن وليس على الملحد، والسبب الأساسي للاستشهاد بهذه الآيات هو أنه لا يمكن تبيان وجهة نظر الدين بدون النقل من القرآن.

ماعلاقة العِلم بالإلحاد؟ وهل الإلحاد نتيجة طبيعية لمَن يتبع العِلم؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف مفهوم العلم ومنهجه وكما بيَّنا سابقا العلم هو المنهج القائم على التجربة والمشاهدة، فكل ما يمكن تجربتُه ومشاهدته يدخل ضمن نطاق المعلوم القطعي الذي لا سبيل إلى مناقشته، ولكن يبقى بابَ نقاشٍ مسبباته مفتوحًا على مصراعيه، فمثلاً الماءُ مكوَّنٌ من ذرتيْن من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين عِلمٌ قطعي، ولا يختلف فيه اثنان، وبالتالي أثبت العلم في هذه النقطة كفاءَتَه على تمييز مكونات الماء، وبشكل قطعي وليس بشكل معقول أو مقبول، ولكن كيف تكوَّن الماء وكيف تكوَّنت مكوناته أمر آخر، ولكن لو رجعنا إلى أمور لا يمكن لنا أن نجربها مختبريا أو أمورٍ لا يمكن لنا أن نشاهدها وحاول العلم أن يعطي رأيه فيها فسيكون معقولاً أومقبولاً ضمن حدود العلم النسبي ولن يكون قطعيًّا بالمرة، وهذه المعقولية أو المقبولية ناتجة عن أدوات العلم الحالية، والأدوات يمثلها أمرانِ لا ثالث لهما؛ وهما المعدات المختبرية التي يتم استخدامها والمعرفة الآنية المتراكمة المتمثلة في معرفتنا بما حدث عن طريق مختلَفِ البحوث والنظريات والفرضيات ذات العلاقة وحتى اليوم.

وكما هو معروفٌ فإن معداتِنا المختبريةَ ومعرفتَنا الآنيةَ تتطوران بمرور الزمن، فلم يغلق العلمُ أبوابَه، ولم تُسرِّح المختبراتُ منتسبيها، وبالتالي لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يساوي بين العلم القطعي والعلم النسبي (علم الفجوات) فهناك فرقٌ بين أن أطبِّق المنهجَ التجريبي الحسي (المنهج العلمي) في أمر نشاهده يوميا ويمكن تجربته مختبريًا، وأمرٍ حدث قبل ملايين السنين لا يمكن مشاهدته يوميًا أو تجربته مختبريًا. وهذا الفرق يتلخص في الفرق بين النتيجة القطعية والنتيجة المقبولة. وقد أشار إلى ذلك كلٌّ مِن ريتشارد داوكنز ولورانس كراوس في لقاءٍ نظَّمَاه معا، قال فيه لورانس في الدقيقة الـ ٢٩ منه إن ريتشارد قد أشار إلى حَجَر الزاوية عندما عبَّر عن النظريات التي تنفي وجود الإله بأنها "معقولة" والكلمة بالإنكليزية تعني Plausibility.

والسؤالُ لماذا (معقولة) وليست (حقيقة قطعية)؟ والجواب هو أن العلم لن يعطي الحقيقةَ لأمور لا يمكن اختبارُها ومشاهدتها كما أسلفنا؛ لأن الضابط الذي ألزمَ به نفسَه هو الضابط الحسي التجريبي، قد يسأل سائلٌ كيف يمكننا أن نأتي بنظريةٍ معقولةٍ لأمر لا يمكن مشاهدته ولا يمكن تجربته؟ والجواب أن الأمر ناتجٌ عن وجود أدلة يمكن مشاهدتها قد تدفعنا إلى تبنِّي النظرية باعتبارها التحليل الأكثر معقولية، ولكن هذه الأدلة هي

مجرد مقتطفاتٍ زمنية وليست عملياتٍ كاملة، ولو حصلنا على العمليات الكاملة لتحول من علمٍ معقول إلى علمٍ قطعي.

عندما نتكلم عن ما وراء الطبيعية فالعلم لا يُبدي رأيه فيها لا بشكل قطعي ولا بشكل نسبي، فهو أمر خارج اختصاصه بالمطلَق، ومن هذا الأساس يمكن أن نسمي العلماءَ الذين يُطلِقون الأحكامَ على ما لا يمكن تجربته ولا يمكن مشاهدته ولا توجد أدلة تشير عليه بأصحاب "العلم الزائف"، والسبب في ذلك بكل بساطة هو أن العلم بمنهجه لا يمكنه الحُكم أو النظر في هذه الأمور، وكما قال ديفيد هيوم أحد أهم الفلاسفة الذين أكدوا على المنهج التجريبي الحسي "يستحيل إثبات وجود أن اللحظاتِ الحاسمةَ التي لم يكن لنا فيها تجربة تشبه تلك التي لنا فيها تجربة" وهذا الكلام طبيعي ومعقول لمن فهِمَ العلم (المنهج التجريبي الحسي) وأدواتِه.

ونتيجة لذلك يمكن الجزمُ بأن المنهجَ العلمي لا يمكن أن يقود إلى الإلحاد؛ لأن الإلحاد يقع خارج حدوده، نعم المنهج العلمي يكشف الكثير من الأمور الخرافية التي لحقت بالأديان عبْرَ الأجيال، وهذا شيء جيد جدًا ولا يجب على علماء الدين الوقوفُ بوجهه وإنما تقبُّله وتوضيحه ورفض النسبي منه الذي يتعارض مع وجود خالق؛ لأنه بُنِيَ على آراءٍ شخصية للعلماء الملحدين وليس على أساس علمي.

ماهو الإيمان؟

يعرِّف الملحدون الإيمانَ بعدةٍ تعاريفَ، ولكنَّ هناك تعريفيْن يُعتبرَان الأكثرَ قُربا لهوى الملحد وهُما:

الإيمان: هو الاعتقاد بلا أدلة.

الإيمان: هو التظاهر بمعرفة شيء لا تعرفه.

يقول أحد الملحدين الأمريكيين إنه مِن الممكن أن نتنازل ونقول إنه من الممكن إثبات وجود عيسى تاريخيا، وقد يمكن أن نثبت أنه رُفِعَ على الصليب، أمَّا اعتبار أن هذا دليل على أنه إله فهو اعتقادٌ بلا أدلة!

هنا تبرز نقطة يجب الإشارة إليها ولو على عجل وهي تحميل النَّص الديني أكثر مما يحتمل؛ حيث أن الخرافة والأمور التراثية تثقِلُ الدين بالحواجز التي تبعد الناسَ عنه، وخصوصا أن الإنسان الواعي لن يقبل الخرافة، وهذا ما يجب أن ينتبه له المسلمون لأنهم وقعوا في هذا الفخ وما زالوا يحملون بين ظهرانيهم تِرْكةَ الأمور التراثية والخرافية التي لحقت بالإسلام، ولولا القرآن ووقوفُه كسدٍ شامخ منيعٍ يحمل الإسلامَ النقي لفقدنا الأملَ وتركنا الكتابة وبطُلتْ حجةُ اللهِ على خَلقِه.

نعود لأصل الموضوع وهل الدين إيمانٌ بلا أدلة؟ الإنسان بفطرته السليمة يدرك أن هناك محرِّكا وهدفًا وقوىً عاقلةً أوجدت ما نراه مِن حولنا، فالإيمان بأن الصدفةَ هي السبب كلامٌ لا يمكن أن يصدق به عاقل، مما يؤدي إلى أن يدرك الإنسان وجود الخالق، وبما أن الخالق يمثل القوىً العاقلةٌ الواعية التي أبدعت الكون فيدرك أن هذا الخالق لا يمكن أن يَقبل بالظلم، ولكن الحياة كلها ظلم ووحشية، وبالتالي يؤدي هذا إلى الاعتقاد بوجود يومٍ تتحقق فيه العدالة من قبل الخالق العاقل الواعي وهذا هو يوم الحساب.

وبدون الحاجة إلى الرسُل والكتب السماوية يمكن أن نصل إلى حقيقة وجود الخالق ويوم الحساب وفق البرهان العقلي والبرهان الحسي، حيث قادنا البرهان الحسي إلى وجود قوى عاقلة ذكية، وقادنا البرهان العقلي إلى أنه لابد أن ترفض هذه القوى العاقلة الذكية كل أشكال الظلم.

ولكننا نبقى بحاجة إلى الرسُل لتوضيح رسالة الخالق بشكل أكثر تفصيلاً، لذا يعتقد المؤمنون بأن اللهَ أَرسَل الرسُلَ دالين عليه، وحتى الإيمان بالغيب الذي يؤمن به المسلمون ويستخدمه الملحدون للانتقاص منهم هو ليس إيمانًا بلا دليل ولاإيمانًا أعمى، وإنما إيمانٌ نتيجة لوجود شواهدَ دالةٍ على وجود قوة قادرة خالقة للكون يسميها الملحد القوى العمياء أو الانتخاب الطبيعي أو الجين الأناني، ويَنسب لها الفضلَ فيما نراه حولنا مِن الأرض المناسبة للعيش والإنسان المتمكن منها وعلى كل ما فيها، القرآن الكريم لا يدعونا للإيمان بالغيب وكفى، وإنما يبيّن لنا الأسباب والآياتِ ويُحاجج بالحُجة والمنطق، فهو من بابٍ يدعونا للتفكر في خلق السموات والأرض، ومن بابٍ يدعونا للنظر في أحوال الأمم ومِن خلق الإنسان، ومن بابٍ يُعطي بعض التنبؤات والمعجزات العلمية كدوران الأرض بتعبير "وجعلنا الأرض مِهادًا وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، وأن السماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا، وأن الإنسان نشأ من الأرض، وأن الله يزيد في الخلق وغيرها.

ومن بابٍ حياة الأنبياء وتأثيرهم الكبير الذي لا يُنكر على الإنسانية ماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، فلا يمكن أن يُقال إن إيمان المؤمنين بدون أدلة، ولكن حتى نكون منصفين فإن إلحاد الملحدين هو الذي بدون أدلة فلا يوجد دليل علمي واحد يستطيع أن يقدمه الملحد ليثبت عدم وجود خالق، الملحدون في حقيقة الأمر لا يملكون غير الكلام الفلسفي. فالإلحاد هو الادعاء بدون أدلة والتظاهر بمعرفة شيء لا تعرفه، وهذا لا ينطبق على الإيمان القائم على المشاهدات لِمَا حولنا، أي المنهج الحسي وعلى التفكير السليم أي المنهج العقلي.

الثواب والجزاء

يتساءل الملحِدون هل مِن المعقول أن يكون الرب الخالق القادر اللامحدود يهتم لأمر إنسان لا قيمة ولا حجم معتبَرله مقارنةً بحجم الكون وطوله وعرضه؟ كيف نقبل أن هذا الإله اللامحدود يغضب وينفعل لأسباب شخصية ويَشْتَمُّ رائحةَ دماءِ الأضاحي وغيرها؟

الإشكالية في التسأول أعلاه هي إشكالية الإله الشخصي، المتتبع للقرآن يعرف أن غضب الله وعقابَه يأتيان من العدالة الواجب تحقيقها، فالقضية ليست شخصية بقدر ما هي منطقية، أما مواصفات الإله الشخصي فهذه بالعموم مرفوضة، فهذا الخالق الدقيق القادر الواجب الوجود يجب أن يهتم لأمر هذا الإنسان الضعيف، وأن يقتص من الظالمين، فأي إلهٍ حكيم وقادر يخلق الناس ليتساوى فيهم الظالم والمظلوم؟ ويا ليت يتوقف الأمر على التساوي وإنما ينتصر الظالم ويفوز في حال كان إشكال الملحدين على تدخل الإله اللامحدود صحيح ولم يتدخل الإله في حال وجوده!

هذا ليس من الحكمة والعدل والقدرة في شيء فأي قادر وحكيم يسمح بأن يسود الظالم وينتصر. نفس الشيء بالنسبة لمنع الزنا والعلاقة بدون زواج والسرقة والقتل فكل هذه الأمور لا تهم الخالقَ في شيء بقدر ما هي أمور لتنظيم حياة البشر ومنع الظلم، وهذا يؤكد على حكمة وعطف الخالق، ولذلك فإن الحدود مثلا لا تكون في الأمور التي بين الإنسان وربه، وإنما في الأمور الاجتماعية فقط التي قد تعرِّض المجتمعَ للخطر

في حالة تجاوز الإنسان على إنسانٍ آخر، والشيء بالشيء يذكَر فلا بُد أن نؤكد أن هذا دليل على فساد حد الردة كحدٍ يُفرَض لكبت الحريات.

وإذا كان الملحِدون يستكثرون الرعايةَ واللطف والتنظيمَ لحياة الناس على الخالق فنزيد لهم من الشِّعر بيتا ونقول إن الخالق وفْقَ النظرية القرآنية حتى الحيوانات ينتصف لها، وكما جاء في القرآن "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"﴿الأنعام –٣٨﴾

ولو كانت الحياةُ بلا جزاءٍ ودون ثواب لاعترضَ المعترضون أيضًا ولقالوا أي إلهٍ قادر وحكيم يخلق الخلقَ ويتركه يأكل بعضُه بعضا بلا وعد بمحاسبة الظالم وتعويض المظلوم؟ فالملحِدون يعترضون ويعترضون ولن يرضوا منك بأية سبيل ما دامت تخالف سبيلَهم وفكرهم فتراهم يستنكرون على الإله معاقبة الجناة بالرغم من اتفاق العقلاءُ على أن جريمةً بدون عقاب أمرٌ سيئ .

"وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤–الحجر﴾ لَقَالُوا إنما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ"﴿١٥–الحجر﴾

أخيرًا لا بد من التأكيد على بعض المعاني الخاصة بالخالق والتي وضحها القرآن فمثلاً شم رائحه دماء الأضاحي المذكورة في العهد القديم جاء القرآن رافضًا لها تماما مبينًا أن الله لن ينال لحوم الاضاحي ولا دمائها وإنما ما يناله هو تقوى المؤمنين (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)﴿٣٧– الحج﴾

الشرور

أين الإلهُ مِن كل هذه الشرور مِن حولنا؟ أين الإلهُ من الحُكام الظلَمة؟ الزلازل والفيضانات والفقر والجوع؟

سبق أن تكلمنا عن هذا الأمر وقلنا إنه حسب النظرية القرآنية لا يوجد شيء اسمه شر وإنما أنت وأنا نراه شرًا (أينَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّـهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨النساء﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ شَهِيدًا) ﴿٧٩ النساء﴾

الآية الأولى تتكلم عن حال من يقسِّم الأمور إلى خيرٍ وشر فينسبون الخيرَ لله (باعتبارهم مشركين يؤمنون بالله) وينسبون الشرَّ إلى الرسول باعتباره قد أتى بفكر جديد قد يغضِب عليهم السماءَ فيأتيهم الجواب أنه كله مِن عند الله، ما تراه شرًا وما تراه خيرًا، ومن ثم تنتقل الآية الثانية لتوضح أكثر ويتم فيها مخاطبة الرسول لعلّةِ أن القومَ لا يفقهون الحديث التي ذُكِرت في الآية الأولى، فيقول الله لرسوله وللأُمة مِن بعدِه إن كنتَ تراها سيئةً فمِن نفسك لأنك تفهمها على أنها سيئة (شر) أمّا إن كنتَ تراها خيرا فمِن الله، فأنت قد ترى

السيء خيرًا إذا فهمت نظرية القرآن وأن السيء والحَسن في الحياة الدنيا متساويان في الغرض والهدف إلا وهو الابتلاء بقصد الدلالة على وجود الخالق وضعف الإنسان ولله الحجةُ البالغة (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ﴿١٦٨ الاعراف﴾.

لننتقلْ الآنَ من الواقع النظري إلى الواقع العملي فالفيروسات والأمراض كانت حافزا للبحث والتقدم العلمي وتعزيز استخلاف الإنسان في الأرض، والزلازل والفيضانات كانت حافزا في بحوثٍ ساهمت في زيادة معرفتنا بهذه الظواهر الطبيعية وتطوير أساليب البناء، وهكذا فبالإضافة إلى هدف الابتلاء نجد أن لهذه الشرور كما نسميها حافزا مباشرا للإنسانية لتبحثَ وتبتكر وتتطور.

أحد الشرور المفترَضة هو القتل الذي يقوم به بعض الأفراد أو الجماعات ضد جماعاتٍ أخرى، هذا يقع ضمن حرية الاختيار الممنوحة للإنسان، فلو تدخَّلَ الخالقُ بشكلٍ مباشر لمنع القاتلَ مِن القتل مثلا لَسقطت حرية الاختيار الممنوحة أولاً، ولَتكاسَلَ الإنسان في البحث عن أساليب النجاة والدفاع عن نفسه ثانيًا. وتكون النتيجة أننا نصبح كالأطفال في حضانة، لا ابتلاء ولا استخلاف ولاهُم يحزنون. وقد يكون التدخل الإلهي واجبًا لو أن البشر خلقوا غير متساوين ولكن الجميع لديهم نفس المؤهلات فلم يخلق اللهُ مجموعةً من الناس لها ما ليس للآخرين وبالتالي الفُرَص متساوية للجميع.

ولو لم يكن الإنسان حرًا في خياراته لسقط الحساب على تصرفاته الظالمةً والجائرة. وهذا التدافع هو مِن سُنَن الخالق كما في سورة الحج الآية ٤٠ (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). قد يتساءل الملحِدُ هنا ألم يتدخل الله في حياة الرسُل فأنقذَ موسى وساعَدَ المسلمين في معركة الأحزاب كما يدَّعَي المؤمنون؟ والإجابة على ذلك أن الرسُل وفْقَ النظرية القرآنية حالة خاصة وهذا جزءٌ من معجزاتهم، فانتصار رسول الإسلام السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي والفكري والديني والاجتماعي خلال فترة عشرين سنة معجزةٌ بكل المقاييس، وقد وضَّحَ القرآن ذلك في سورة الصافات (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾) فالرسُل حالةٌ خاصة وليست عامة.

مسألةُ الفقرِ المالي بالإضافة إلى أنها ابتلاءٌ واضح فإنها أمرٌ يدفع الإنسانيةَ للبحث والعمل بجد لاستغلال موارد الأرض؛ مما يؤدي إلى التدافع الإيجابي الذي نرى آثارَه في جميع الاتجاهات، وبخلافه لو وَجدَ الناسُ أرزاقَهم بين أيديهم لأصبحنا حديقة حيوانٍ نأكل وننام، وقد يؤدي بنا الملَلُ إلى ما لا يُحمَد عُقبَاه، فالعمل والجهد المبذول مِن أرقى وأجمل ما يختبره الإنسان في حياته، فكل شيء تقِلُّ متعتُه مع مرور الزمن إلا متعةَ العمل وتحدياته، وفي واقع الأمر كلنا فقراء، والغِنَى المالي هو جزء بسيط من أنواع الاكتفاء لا ينفي الفقرَ في الصحة والعمر والجمال وغيرها من الأمور، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)﴿٢٧-الشورى﴾. ومن الأمثلة على ضرر تساوي الرزق هو ما حدث في الدول الاشتراكية التي حاولت تطبيق الاشتراكية بشكل سيء.

في إحدى المحاضرات الدراسية سألنا الأستاذ لماذا ندرس ونُتعِب أنفسنا؟ فاختلفت الإجابات، أما جواب الأستاذ الذي كان صادمًا لي في ذلك الوقت هو مِن أجل المال الذي نحتاجه لنعيش ولولا الحاجة لَمَا بذلنا كل هذه الجهود، وهذا هو التدافع الذي ساهَمَ في كل التطور الحاصل في كل مجالات الحياة الذي نتج بشكل مباشر عن حاجة الإنسان ومنافسته للآخرين في سبيل تحقيق النجاح الضامن لتمكنه من العيش، فلو كانت الأموال متوفرةً لَمَا درَس الإنسان ولَمَا اجتهد ولَمَا عمَّر الأرضَ مِن الأصل.

مسألةُ الجوعِ الشديد الذي يقع في إفريقيا مشكلةٌ ذات أبعادٍ متعددة، ولكن أهمها هو امتناع الإنسانية عن نصرة المظلوم والمستضعَف، فترْكُ هؤلاءِ فريسة لحكوماتهم العسكرية وجهلِهم وفقرهم أدى إلى ما أدى عليه بالاضافة إلى نصرة الدول الكبرى لذلك النظام أو هذا لأنه يمثل مصالح الدول الكبرى على حساب الشعوب المحرومة. المشكلة ليست نقصًا في الموارد وإنما سوءٌ في التنظيم والإدارة حيث نرى مقدار البذخ والإسراف في المطاعم الأمريكية مثلا ومقدارَ الفقرِ والعوز في إفريقيا. فالمواردُ موجودة ولكن الجهل والبخل والاستغلال خلَقَ هذه الفجوةَ الكبيرة.

قد يعترض أحدهم ويقول ألا توجد طريقة أفضل للابتلاء والتحفيز؟ وهنا مِن حقنا أن نتساءل ما هي الطريقة الأفضل في نظرك؟ وما يدرينا أنك لن تعترض على الطريقة الأخرى؟ وهذا أمر نسمعه دائما فالبعض يعترض لأجل الاعتراض، فتراه يقول لماذا لم تأتِ الآية القرآنية بهذا الشكل ليسهل فهمُها؟ ولماذا لا يَظهر لنا الخالق؟ أو كما ذهب داوكنز في انتقاده للعين على الرغم من اعترافه أنها تؤدي وظيفتها بشكل أفضل بتصميمها الحالي، أو كما اعترض ستينجر في كتابه على تصميم الإنسان الحالي حيث اقترح تصميمًا يزيد في عُمر الإنسان ولكنه اعترف بأنه لن يكون جميلا، حتى على التصميم الذي يقترحه يعترض! لذا عزيزي المعترِض: قبل أن تعترض حاولْ أن تتصور نوعَ البديل الذي تعتبره مناسبًا لأداء نفس الغرض وبعد ذلك حاول أن تقارن بين البديليْن، ومِن هنا قد تكتشف مدى مصداقية اعتراضك، وهل هو مجرد جدلٍ لا متناهٍ وسلسلة من الاعتراضات لا غايةَ منها أم لا؟

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)﴿٣١-سورة محمد ﴾

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)﴿١٥٥-سورة البقرة﴾

قد يعترض الكثير على هذا المنظور ويرفضونه وإن كان صحيحًا، حيث يعتبرون أن أمورًا مثل سرطان الأطفال والحروب دليل على غطرسة الخالق وعدم رحمته ويقولون إن مِتْنا والتقينا بالخالق سنقول له ذلك، وطبعًا هنا من حقهم الاعتراض ومن حقهم أن لا يروا حكمة في الأمر، تمامًا كما فعل إبليس واعترض على حكمة وهدف السجود لآدم ولكن هذا لا يعني عدم وجود خالق.

الهداية والضلال:

يعترِض الملحد ويقول ما دام الله يهدي مَن يشاء ويُضِل مَن يشاء فلا قيمة لإلحادي، ولا قيمة لإيمانك، وإنما هو أمرٌ أراده الله. فلماذا تعترض على ما أراده الله؟

قال تعالى: "أتريدون أن تهدوا مَن أضل الله ومَن يُضلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلًا (النساء ٨٨)

الله تعالى ينسِب لنفسه كل شيء الشرَّ والخيرَ والضلالة والهدى، عِلة ذلك أنه تعالى يعطي للإنسان مقوماتِ الضلالة كالشهوة وحُب المال والتكبر والغرور والجبروت، ومِن باب آخر فإنه يعطيه مقوماتِ الهداية من الإنسانية والأخلاق والرحمة والرأفة والحُب، ثم يترك له حريةَ الاختيار فإنْ أَقبَل على الخيرات ما منعه وإنْ أقبَلَ على الشهوات ما منعه، فهو بالتالي هداه لأنه أعطاه مقومات الهداية، وبالتالي أضله لأنه أعطاه مقوماتِ الضلالة فسبحانَه وتَعالى أَلْهَم النفسَ الإنسانية الفجورَ والتقوى ومنحَها حرية الاختيار بهدف التمحيص والابتلاء؛ (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣- الانسان﴾، و قال تعالى: (أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ﴿فصلت: ١٧﴾

ولكن لله تعالى الحجة البالغة بالرغم من ذلك لأنه حذر وبيَّن صراطه المستقيم عن طريق الرسل والأنبياء فلا حجة لإنسان ليقول أنا عصيت لأنك أعطيتني حرية الاختيار والرغبة لأنه تعالى أيضًا حذرك وأعطاك دليلَ مستخدم كامل اذا أتبعته تتبع الصراط المستقيم واذا خالفه تصبح من الضالين. بعبارة اخرى كأن الله تعالى يكرر مع كل شخص منا قصة سيدنا آدم عليه السلام ومازلنا نخطئ كل يوم نفس الخطأ.

عبودية البشر لله:

الملحِدون غالبا ما يعترضون على مسألة العبودية، وأي إلهٍ عظيم هذا الذي يحتاج إلى عبادة مجموعةٍ من البشر يعيشون على كوكب لا يتجاوز حجمُه ذرةَ الرمل بالقياس إلى الكون بحيث يجعل غايةَ الخلق عبادتَه؟!

وللإجابة على هذا التساؤل يجب نقاش بضعة أمور:

أولا: النظرية القرآنية تدلنا على عدة غايات للخلق، وعبادةُ الخالق إحداها وليست السببَ الوحيد، فمِن الغايات الابتلاء والتمحيص مثل قولِه في سورة الأنعام الآية ١٦٥ (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) وغيرها الكثير من الآيات الدالة على نفس المعنى، وكذلك غاية الإيمان والتي تتشابه كثيرا مع غاية العبادة وغاية إقامة العدل والقسط بين الناس كما جاء في القرآن بما معناه أن لا يجرمنكم شَنَآن قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى .

ثانيا: النظرية القرآنية في مسألة العبادة لله تتشابه إلى حد كبير مع مسألة الإيمان، فكلتاهُما لا تتم إلا عن طريق المعرفة، فلا يمكنك أن تؤمن بالله وتعبده إلا بعد أن تعرفه وأن تبحث عنه في طيات الكتب وفي خلق الله مِن حولك، فالعبادة هي المعرفة، وهي أمر يحتاجه البشر ولا يحتاجه الله، فهم بفطرتهم يسألون عن الخالق ويتناقشون في غاية الكون، وتنتج عن ذلك أفكارًا مختلفةً يمكن إجمال نتيجتها في الأيمان أوالإلحاد، وبالتالي إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية فهي حاجة بشرية نفسية، والناس بحاجة إلى معرفتها. بالإضافة إلى أن هناك من يقول إن العبادة هي العمل الجيد بمعنى أن الله تعالى يرفض الأعمال السيئة وما خلق الإنسان إلا للأعمال الصالحة.

ثالثا: المسلِمون عبادٌ لله، والناسُ جميعًا مسلمين وملحدين ولاأدريين هم عبيدٌ لله، هذا هو منطق القرآن وهو منطق دقيق، كما في سورة آل عمران الآية ١٨٢(ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّـهَ لَيْسَ بِظَـلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) فالآية تتكلم عمن قتل الأنبياء وتتوعدهم بالعذاب وتسميهم عبيدا، أمّا المؤمنون فسنجد في سورة البقرة رقم ٢٠٧ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) وهكذا بقية الآيات فلن تجد آية تشير للمؤمنين على أنهم عبيد إلا من باب تعميم جميع الخلق. والسبب في ذلك أننا كبشرٍ عبيدٌ للقوانين الطبيعة وغيرها سواءٌ أرضينا أم أبينا، فإنك إنْ كنتَ ملحدًا أو مؤمنا فأنت عبدٌ ولكن إنْ عرفتَ الله أصبحتَ عابدًا. يقول "ستيفن هاوكنغ" عالِم الفيزياء المعروف :

(It is hard to imagine how free will can operate if our behavior is determined by physical law ،so it seems that we are no more than biological machine and that free will is just an illusion)

والترجمة: (مِن الصعب التصورُ كيف يمكن أن تعمل الإرادة الحرة إذا كانت تصرفاتنا محكومةً بقوانين الفيزياء، لذلك فإن من الواضح أننا لسنا أكثر من مكائن بيولوجية والإرادة الحرة مجرد وهْم) .

نعم صَدَق ستيفن فنحن مجرد عبيدٍ شئنا أم أبينا نكبر في العمر ونأكل وننام ونموت ونحن مجبورون على كل ذلك، وليس لنا أن نختار عدم النوم أو الاكل أو الزيادة في العمر ولكن الحرية الوحيدة الممنوحة لنا هي حرية التفكير وحرية التصرف ضمن حدود، ولذا حرية التفكير أعظمَ شيء يملكه الإنسان ليختار ما يشاء، وهذا الاختيار هو سبب وجودنا فإنْ منعناه فإننا بالضرورة نمنع سُنَّةً من سُنَن الله تعالى.

قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) الأنعام 107

بناءً على هذه الاية يقول المشرك إناأشركت بمشئية الله فما دخْلي؟ والحقيقة أن مشيئة الله المقصودة هي أن الله شاء أن يعطي حرية الاختيار للناس، ولهم الحق أن يؤمنوا أو أن يلحدوا مادام الأمر بعيدا عن العناد والتكبر والهوى ومبنيًا على البحث المنصف مع النفس. ولو شاء الله لأجبر الجميع على عبادته عبادة خالصة ولكن لن يكون لفرد فيها فضل أو جهد فكري حقيقي.

قد يقول قائلٌ إننا لا نملك حتى حرية التفكير وذلك لأن حرية التفكير مبنيةٌ على المعلومات المدخَلة للعقل البشري وقد تَحُول الظروفُ دون الاطلاع على ما يكفي من معلومات. وهذا الكلام صحيح ولكنه لا يعني عدم وجود حرية تفكير وإنما يعني وجود حدودٍ لتفكيرنا وهذه الحدود قد تتوسع وقد تضيق طبقا لاطلاعنا واللهُ تعالى سيحاسبنا على مقدار اطلاعنا وهذا يعني أن القضية نسبية. القرآن رفض أن يدَّعي طرفٌ المعرفةَ المطلَقة على حساب طرف ووصف مَن يقوم بذلك بأنه لا يعلم، وحَصَر المعرفةَ المطلقة فيه تعالى ووضَّح أنه سيبيّن للناس ماكانوا فيه يختلفون، وهذا التبيان لن يكون إلا يوم القيامة.

(الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿البقرة ٩٨﴾ فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللَّـهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّـهُ عَفُوًّا غَفُورًا) ﴿البقرة ٩٩﴾

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿البقرة ١١٣﴾

الصدفة في الميلاد على دينٍ صحيح

أحد أهم النقاط التي يستخدمها الملحِدون واللادينيون للتقليل من شأن الأديان اعتبارُهم أن الدين مجرد صدفة ومجرد أمرٍ تابعٍ لمكان ولادة الفرد. وهذا الكلام جزئيًا صحيح ولكنه للأسف عام وسطحي للأسباب ولكنه لا ينفي الدين من أصله بقدر ما يقلل من فعالية أدواتنا في الاطلاع على الأفكار الدينية المختلفة، لذا يجب أن يناقش الموضوع بالشكل الآتي:

أولا: لنعمل إحصائية تقريبية بعدد الأديان اليوم وهي الإسلام، والمسيحية، واليهودية، والهندوسية، والسيخ، والبوذية (على الرغم من أن البعض لا يعتبرها دينًا)، والإلحاد، والربوبية.. وهذه هي الأديان الرئيسية في العالم التي تشكل النسبةَ الأكبر من البشر مع نسبةٍ قليلة متبقية متوزعة هنا وهناك لا وزن فعلي لها، بالنسبة للبوذية فهي ليست ديانة وهي الجماعة الوحيدة التي ليس لدى الكثير من أتباعها موقفٌ ديني كما يَدَّعون فلا يؤمنون بوجود إله ولا ينكرونه لأنهم يعتبرون الإنكار إيمانا مطلَقا بالمادة وكأن البوذية تقترب من اللاأدرية في هذه النقطة، وبالتالي بعد استثناء البوذية يبقى لدينا سبعُ وجهاتٍ.

وإمكانية أن يولَد المرءُ على الموقف الديني الصحيح هي إمكانية واردة جدا وتساوي تقريبا ١٥% وهي أكثر بكثير من نسبة وجود الحياة والكون وبقية خصائص الكون مجتمعة والتي تصل إلى نسبة معدومة، وبما أن القرآن يخبرنا عن مستويات مختلفة من الإيمان تتدرج من إيمانٍ بسيدنا محمد وبقيةِ الرسُل وهم المسلمين إلى مستوى إيمان ثانٍ يتمثل بالاعتقاد بالله واليوم الآخِر والعمل الصالح وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فإنه يمكننا اعتبار الديانات الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) ضمن الدين الصحيح، وهذا يرفع احتماليةَ الميلاد على الدين الصحيح إلى ما يقرب من ٤٣% وهي نسبة عالية ومحترمة. اذا انتقلنا إلى المستوى الثالث في القرآن وهم الاشخاص الذين لم يتسنى لهم الوصول إلى الدين من المستضعفين في الأرض وهولاء مؤمل لهم الغفران، وبالتالي على هناك نسبة عالية جدًا من الرحمة للناس أجمعين ما عدًا المعاند المكابر وهؤلاء قلة قليلة جدًا فالكثير من الملحدين أصلًا ليسوا معاندين مكابرين، وبالتالي هذه الإشكالية ليست ناهضة.

هذا إذا فرضنا جدلاً سيرث دين الموقع الجغرافي الذي ولد فيه بالتمام والكمال وكأنه بلا عقلٍ ولا تفكير ولاموقف، لو حاولنا عمل إحصائية على أي عائلة سنجد أن أفرادها مختلفون فكريًا تمامًا على الرغم من أن أهلهم حاولوا وحسب مقدرتهم واطلاعهم ومِن باب حرصهم على أولادهم أن ينقلوا لهم موقفهم الفكري سواءٌ أكان إلحاديا، أم إسلاميا، أم ربوبيا ولكن يبقى كل إنسان له فكره ونظرته الخاصة للأمور.

ثانيا: وفْقَ النظرية القرآنية فالقضية ليست بهذه البساطة والسطحية التي يتصورها ويروّج لها الملحد، القضية ليست أن تولَد مسلِما وتعيش مسلِما وتموت وتذهب إلى الجنة وكل مَن لم يولد مسلما يموت ويذهب إلى النار، فالأمر ليس قوالبَ جاهزة هذا مسلْمٌ في الجنة وذاك "لا أدري" في النار.فبالإضافة إلى الايمان

هناك العمل الصالح ومن دون العمل لا نفع للأيمان. (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)﴿١٢٣- النساء﴾.

ثالثًا: الصدفة ليست دائمًا مبررًا لعدم لاعتبار الموروث أمر خاطئ فاللعبة بإثبات أن الموروث أمر خاطئ بالأدلة.

رابعًا: الإنسان بطبعِه باحثٌ، وهذا البحث والتدقيق فيما حوله إنْ كان بشكل جاد ينفي الوراثةَ الفكرية جملةً وتفصيلاً.

نوع الثواب والأوامر

يعترِض الملحدون على تفاسير بعض أنواع النعيم في الجنة، مثلا الحور ووظيفتهم وأعدادهم (عِلمًا بأن أعداد الحور من الأمور المتأخرة وغير موجودة في القرآن) وفي الحقيقة مسألة الحور كمسألة الغِلمان هل هدفهم الخدمة فقط؟ أم التزويج الفعلي؟ وخصوصا أن القرآن يستخدم مفردة نكاح وليس زواج عن الاشارة إلى التزاوج ولذا سمي عقد النكاح لذا فإن هذه الآيات في الحقيقة متشابهة بما لا يقبل الشك، وقد اشتبه أمرُها على المسلمين ولا يمكن الجزم بمعناها الفعلي. بما أنها لا غير مرتبطه بعقيدة ولا بعبادات المسلم اليوميه فلا مبرر لنقاشها بتفصيل.

وكذا يعترض البعض على قوله تعالى (وقضى ربك ألاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا) ويقول هل أنا فعلا محتاج لأمر إلهي لأُحسِن إلى والديَّ؟ وهكذا تجد مختلف أنواع الاعتراضات وحتى لو لم تكن الأمور أعلاه موجودةً لَسَمِعنا اعتراضاتٍ على ما كان وسيكون. هذه الاعتراضات ليست جديدةً، وعلينا أن نفهم أن ليس جميعُ الناس في مستوى ثقافي واحد، وما قد أعتبره أنا تافهًا قد يعتبره الآخر هدفا مهما من أهداف حياته، وما قد أعتبِره أنا أمرًا بديهيًا واجبًا قد يعتبره الآخر أمرًا كماليًا لا مبرر له ولا طاقة له عليه، وبالتالي فآيات القرآن المفروض أن تراعي الجميع لأنها تخاطب الجميع، فالقرآن الكريم لا يخاطب مستوى المثقفين مثلًا بحيث لا يفهمه ولا ينجذب إليه الآخرون، وإنما يخاطب جميع المستويات وبالتالي لا يقع في الفخ الذي يقع فيه الكثير من المفكرين والمثقفين والقادة نتيجة إصدارهم كتبًا تخاطب طبقة دون طبقة معينة دون الناس مما يؤدي إلى انعزالهم وانعزال كتبهم عن مجتمعاتهم، فإذا كانت بعض الآيات غيرَ محفزةٍ بالنسبة لك فهذا أمرٌ جيد والآية القرآنية لا تخاطبك، وإنما تخاطب المستوى الآخر.

ومثال ذلك اعتراض هندُ بنت عُتبة على بنود البيعة لرسول الله لنفس السبب أعلاه حيث كان أحد بنود البيعة هو عدم الزنا فاعترضتْ وقالت "هل تزني الحُرة؟" يعني بالنسبة لمستواها هذا الأمر ليس في الحسبان، ولكن كما بيَّنا فالقضية عامة ومَن كان مترفِّعًا عن جزئية هنا أو هنا لسبب أو لآخر فهذا أمر جيد جد، لذا يُنسَب إلى رسول الإسلام قولُه: "خيارُكم في الإسلام، خيارُكم في الجاهلية"، فالإسلام أتى ليتفق مع الفطرة السليمة ويدعمها ويؤكدها وليس العكس.

المتشابه في القرآن:

القرآنُ يصرّح بشفافيةٍ كعادتِه بوجود آياتٍ متشابِهات وذلك في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ أياتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الْأَلْبَابِ) ﴿آل عمران: ٧﴾

والواضح من سياق الآية أن تأويل هذه الآيات لا يعلمه إلا الله تعالى، وإن الذين في قلوبهم زيغٌ يتبعون المتشابِهَ ويصرون عليه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه لخدمة مصالحهم المشبوهة، وهذه المصالحُ قد تكون سياسيةً أو اقتصادية أوأمورا أخرى، بعض الآيات المتشابهة أَقَر القرآن بإمكانية معرفة تأويلها ولكن بعد حين وذلك في قوله تعالى: "وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ" ﴿ص:٨٨). وبعض الآيات لن نعرف تأويلَها حتى يوم القيامة فهي جزء من الابتلاء: "هَلْ يَنظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أو نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ" ﴿الأعراف: ٥٣﴾ وهذا يقودنا إلى إحدى المغالطات التي ذَكَرنا وهي تَرْك الجَمَل بما حَمَل عند عدم القدرة على إجابة أحد الأسئلة، القرآن فيه آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمّ الكتاب، وهُنَّ كافياتٌ شافيات وبالتالي عند اختلاف المسلمين على تفسير الآيات المتشابهات أمر طبيعي، وعندما يحاول أحدهم تفسير الآيات المتشابهة فسيكون تفسيره نابعًا من ثقافته وروح عصره الذي عاش فيه.

فلا يمكننا أن نتصور بأي حال من الأحوال أن يكون تفسير ابن كثير أو غيره لقوله تعالى (وتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)﴿٨٨– النمل﴾ مشابه لتفسيرنا ونظرتنا للكون اليوم في ضوء المكتشفات العلمية، وإذا حاول أحدهم تقديس تفسير ابن كثير أو غيره فإنه يقع في خلل كبير يجعله يتعارض مع أدواتنا الحالية تعارضًا كبيرًا مما يجعل نظرته للقرآن لا تتجاوز نظرة الطفل الصغير الذي لا يعي شيئا عن الكون من حوله. ومهما كان اعتقادنا واختلافنا في الآيات المتشابهات فهو مقبولٌ مادام لا يقود إلى الفتنة ولا إلى القول بالخرافة نتيجة لتعارضه مع الثوابت العلمية، وبما أننا ذكرنا هذه الآيةَ ونتيجةً لوجود جزء من المسلمين يعتقد بأن مَن يعلم الآيات المتشابهات هو الله والراسخون في العلم، مع أن الآية تبيّن أن الراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ مِن عند ربنا، فلا بأس بأن نذكر ما ورد في خُطبة الأشباح المنسوبة لسيدنا الإمام علي في تفسيرٍ هذه الآية في نهج البلاغة لنرى من موقف الراسخون في العلم من متشابه الآيات.

" وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الاْقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاولِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فاقْتَصِرْ عَلَى ذلِكَ، وَلاَتُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الهالِكِينَ".

اذن كنتيجة لما سبق نجد في القرأن الكريم نوعين من الايات وهما الايات المحكمه والايات المتشابهه، تمثل الايات المحكمة اصل العقيده والعبادات مثلا" لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا" والله لا

أله ألا هو وغيرها من الأيات التي لايشتبه في معناها العقلاء، وهناك الايات المتشابه وهذه الأيات تشابهت على الناس لأمور عديدة منها انها تعالج أمور حدثت في الماضي أو أمور ستحدث في المستقبل وهذا المستقبل قد يكون الحياة او ما بعد الحياة كنعيم الجنه وعذاب الاخرة.

هذه الايات جاءت بلغة العرب واستخدمت كلماتهم لوصف ما لا يمكن تصوره فهنا الكلمات تستخدم بأسلوب مجازي مثلا" عندما يصف القرأن الخالق ويحاول تقريبه من الاذهان يعطي مثل النور الصادر من زجاجه الى اخر الوصف، حيث يبقى الوصف وصفا" لا يمكننا ان نتأكد من مدى قربه او بعده عن الحقيقة لأن الموصوف لم يراه من قرأ الوصف. مثال اخر هو شجرة الزقوم وثمارها التي تشبه رؤوس الشياطين ولكن من منا شاهد فيه حياته رأس الشيطان؟ لا أحد، فهو وصف لا يمكننا ان نحدد ملامحه وبالتالي تكون لدى كل شخص صورة مختلفه عن الشخص الاخر لهذه الاوصاف طبقا" لثقافة الشخص وأطلاعه و مستواه الفكري. ومن نتجت الحقيقة النسبيه فالحقيقة في ذاتها مطلقه فألله واحد وشجرة الزقوم ذات شكل واحد ولكن نتيجة لقصر الكلمات ونتيجة لأختلاف مداركنا الفكريه اصبحت الحقيقة نسبيه وكل منا له تصور معين لنفس الوصف.

وبالرغم من أن لا أشكال في هذا الاختلاف الفكري ألا أن الكثيريين جعلوا تصورهم لبعض الأيات المتشابهه عقيده أسلاميه يكفر من يخالفها أو على أحسن الاحوال ينتقص من تفكيره وتوحيده، مثال ذلك التعابير القرأنيه التي تنسب الى الخالق اليد والساق وغيرها حيث اصبح اثباتها لدى السلفيه جزء من التوحيد أسموه توحيد الصفات والاسماء، واعتبروا ان هذه التعابير تعابير حقيقة تدل على أن لله ساق ويد ولكن ليس كمثلهما شيء وبالتالي كل من يقول بمجازية هذه التعابير وان ليس لله يد او ساق مطعون في توحيده. وقد ذهب البعض الى القول ببدعة السؤال عن الكيف وضرورة القبول بظاهر النَّص فلا قالوا" بحقيقة التعابير ولا بمجازيتها كالقول المنسوب الى الامام مالك بخصوص استواء الرحمن على العرش حيث نسب أليه قول ان الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال بدعة واصبح هذا المذهب عقيده لدى البعض ايضا". ويذهب الاخرون الى مجازية هذه التعابير وغيرها وانها جاءت لتقريب المعنى لا تبيان كيفيته وحالته وايضا اصبح هذا المذهب عقيده. وكان الاولى القبول بالاختلاف في المتشابه من الأيات حيث أن مذهب القبول بالأختلاف هو المذهب المحمود، حيث لا يكفر من يخالف هذا أو ذاك و لا ينتقص من توحيده. فما أشبه من يتشدد في تثبيت صورة واحدة لأية متشابهة في كتاب الله العزيز بالجاهل المغرور برأيه البعيد عن روح القرأن الكريم.

يقودنا هذا الى الكلام في تفاصيل نعيم الجنة وعذاب النار، فمثلا" عندما تصف الاية الكريمه الانهار التي تجري من تحت الجنان قد يعترض من يعيش عند منابع الانهار لأنه يرى الجنة الموعوده في كل يوم وساعة ولكنه نسي ان الاية نزلت على اقوام تعيش في بيئه اقرب لصحراء وبالتالي تكون الانهار لدى أفراد هذه البيئة جنة الجنان و غاية الاحلام، نتيجة لذلك وعدتهم الاية الكريمه بالانهار الكثيره والحدائق والاعناب ولو خاطبت اقواما يعيشون عند الانهار لخاطبتهم بما تهوى أنفسهم، فهدف الاية هو تبشير المؤمنين بما يحبونه ويرغبون به، فهي تعدهم الكثره والوفرة لما يحبونه. من اهم طرق فهم المتشابه من الأيات هو الرجوع

الى بيئه نزولها وليس فقط سبب نزولها ومن ثم فهمها ضمن بيئتها وبناء على ذلك يتم تطبيق الفهم على بيئتنا حيث ان هذا المنهج يضمن لنا بلوغ مقصد الأية وغايتها. وايضا نفس الشيء عند وصف عذاب النار وحتى تعبير النار نفسه، فلم يمنع شراب الحميم والعذاب الاليم والجلود التي تبدل كلما تنضج اهل النار من أن ينادوا اهل الجنة طالبين منهم الماء والطعام وهذا مما يدل على مجازية وصف العذاب لأن لو كان هذا الوصف حقيقا" مطابقا" للواقع فلا أمكانية هناك لحدوث التحاور والرغبة والطلب، وقد يقول قائل ان العذاب درجات فنقول وان يكن، فالوصف يبقى وصفا" باستخدام الكلمات بأسلوب مجازي هدفه تقريب الصورة لا تقريرها.

أيضا" يقودنا ذلك ألى ان نطلب ان يبقي المتشابه متشابها" كما اراده الله ولا يفتح العنان لأفكاره المريضه وغريزته الطافحه لتأويل المتشابه بما تشتهي نفسه وخصوصا ان كان هذا المتشابه غير موصوف فلدينا في بعض الاحيان متشابه موصوف استدللنا منه على الكثرة والوفرة في نعيم الجنان كما في الانهار والكواعب والحدائق والأعناب وهناك متشابه غير موصوف مثلا" قررت الاية التزويج بحور العين وطواف الغلمان المخلدون وهذه اسماء لأمور لم توضحها الأيات وأفعال لم تبينها فما هدف التزويج والطواف؟ علما" أن القران يستخدم تعبير النكاح في عقود الزواج، وهكذا نجد أن الايات لم تعطي تفاصيل كافيه وبالتالي لا يمكننا ان نفهم على نحو اليقين وحتى على على النحو الأستدلال ما هو المقصود وبالبرغم من هذا يأتي من يقرر العدد والوظيفه وتفاصيل الجسد!! وهذا على أقل التقدير انتقاص ممن لم يورد التفصيل.

المنهج العلمي:

يقوم المنهج العملي الحديث على أمريْن رئيسييْن وهُما التجربة والمشاهدة، وبالتالي ما لا يمكن تجربتُه ومشاهدته لا يمكن للعلم أن يحكم فيه، وكل رأيٍ خارج عن نطاق التجربة والمشاهَدة هو رأيٌ غير علمي، ومن هنا نتجت دكتاتورية المنهج العلمي في الحكم على الأشياء، فمهما كان العقل والأدلة تشير إلى وجود قوى خارقةٍ ساهمت في إيجاد الكون والحياة وما بينهما فإن المنهج العلمي يرفض هذه الآراء ويرحب بالآراء الأخرى مهما كانت سخيفةً وبعيدةً عن المنطق ما دامت توفر تفسيرًا ماديًا بحتًا.

لذا ترى العلماءَ يضطرون للخروج بنظرياتٍ مادية لتفسير هذه الكون، مثلاً القوى العمياء أو الانتخاب الطبيعي أو حتى الصدفة على الرغم من أنهم يدركون أن هذه التفسيرات هي مجرد مسمياتٍ لأمر مجهول غير معلوم يُعزَى له كل مانراه مِن حولنا وفينا ولكن يتم القبول بها مادامت تعتمد في النهاية على تفسير مادي وإنْ كانت الأدلة العلمية عليها ضعيفةً ومَن يقول من العلماء بأنه يعتقد بوجود شيء غير مادي مسؤولٍ عما نراه حولنا يعتبر مهرطِقا ومخرِّفا ويتم التقليل من شأنه وشأن كلامه، وبالتالي فنتيجةً لدكتاتورية العلم والتقييد الممارس به والتشديد على إيجاد تفسيراتٍ مادية بحتة تم القبول بمختلف النظريات والفرضيات المادية، وبالتالي يمكن لأي شخص أن يأتي بفرضية مادية ويتم قبولها ما دامت لا تتعارض مع أدواتنا ومعلوماتنا العلمية الحالية، ولا يمكن رفضها إلى أن يتم إثبات العكس.

فمثلا موضوع الانتقال بالزمن إلى العصور السحيقة حيث إن هذا الموضوع علميًا جائز وممكن وعلى الرغم من سخافة الأمر إلا أن آينشتاين جعل الزمنَ أمر نسبي ووضَعَه ضمن معادلةٍ وبالتالي لا يمكن لعالِمٍ يعتبر الزمنَ أمرا نسبيا أن يرفضه، نعم قد يرفضه عقليًا ولكن ليس علميًا ولكن العلم يرفض ما نسميه عقليًا أو منطقيًا حتى قال لورانس كراوس الفيزيائي الشهير: "مَن قال لك إن الكون يهتم لِمَا تعتبره منطقيا؟".فعندما نقول هل مِن المنطق أن الكون أتى من فراغ أو محض صدفة؟ هل من المنطق أن قوانين الفيزياء الدقيقة مجرد صدفة؟ هل من المنطق أن الخلية الأولى على الأرض مجرد صدفةٍ وعمل عشوائي؟ هل من المنطق أن العملياتِ المتسلسلةَ التي تحدث بشكل إرادي ولا إرادي في جسم الإنسان صدفة بلا تخطيط مسبق؟ هل من المنطق أن الشمسَ تدور حول نفسها وحول الأرض بهذا النظام المستمر منذ مئات ملايين السنين نتيجة لاشيء؟

يأتي الجواب وببساطه من قال لك إن الكون يعتبره منطقيًا أو كما قال الفليسوف دانييت هذا مجرد ما تعودنا عليه وليس بالضرورة ان يكون هو المنطق الصحيح! بالنتيجة رفض المنهج العلمي ما نسميه منطقًا لانه يفرض عليه قوى خارقة لا يمكنه تفسيرها. ومما ورد أعلاه يمكننا أن نستفيد الأمورَ الآتية:

أولا: لا يمكن نفي المعجزات التي يدَّعيها المؤمنون على أساس المنهج العلمي لكونها حدثت في أزمان غابرة ولا سبيل لفحصها أو مشاهدتها، أمَّا القياس على أساس معلوماتنا الحالية فأمرٌ غير علمي وخصوصا أنه إذا استخدمنا نفس القياس فأن تكون الـ دي إن آي بالصدفة أكثر إعجازا من كل المعجزات التي يدّعيها المؤمنون.

ثانيا: المنهج العلمي في أيامنا الحاضرة سيذكر له التاريخ أن العلماء المشتغلين ضمن إطاره كانوا يخشون أن يصرحوا بمعتقدهم وأفكارهم حتى لا يتم اتهامهم بفساد المنهج العلمي الذي يعتقدونه ولذا نجد أن الـ ٤٠٠ عالِم الذين اعترضوا على كون الطفرات الوراثية والانتخاب الطبيعي غير كافٍ للتطور على استحياء

ثالثا: مادام قبول الفرضية في المنهج العلمي يعتمد على توافقها مع معارفنا المرحلية وحتى يتم نقضها بالدليل فلماذا لا نستخدم نفس الأسلوب في مسألة الإله ويعتبر قائما مادام يمثل ضرورة لملء الفراغات مادام يوافق معارفنا المرحلية وحتى يتم نقضه بالدليل؟ طبعا الجواب واضح وهو القبول بوجود قوى خارقة عاقلة أمر يخالف المنهج العلمي، ولذا لا بأس بأن نُعزي الأمر إلى قوى عمياءَ وانتخابٍ طبيعي وحتى كائنات فضائية لا دليل مادي على وجودها، أهم شيء أن نعزيها إلى أمر مادي وليس إلى أمر لا مادي.

رابعا: لا يمكن أن نساوي بين النظريات التي تتعامل مع الواقع اليومي المعاش، والنظريات التي تتعامل مع واقعٍ حدث قبل ملايين السنين، فالنظريات الأولى يمكن أن نقول إنها تمثل المنهجَ العلمي الحقيقي الثابت الذي يمكن أن نختبره ونشاهده، بينما النظريات الثانية تمثل المنهجَ العلمي الظني (العلم النسبي) الذي يعتمد الاستنتاجاتِ والتصوراتِ لِمَا حدث قبل ملايين السنين بناءً على ما وجدناه أو اكتشفناه، ولكن لا سبيل لمشاهدتها بشكل كامل.

خامسا: هذا المنهج هو الصحيح، وهو الحل الأمثل والمفروض اتباعه عندما نتعامل مع الأمور الواقعية اليومية كالأمراض والبِناء والصناعات وغيرها بعيدا عن الخرافات. حيث يجب علينا أن نتبع المشاهداتِ

والتجاربَ للتطوير والتحديث ومن ثم المشاهدات للتطوير والتحديث مرةً أخرى، ويجب أن تستمر الدورةُ لِمَا في ذلك من إبداع واكتشافات ومعرفة لكيفية عمل ما يمكن اختبارُه ومشاهدته، وباعتبار الإنسان مستخلَفًا في الأرض فليس مِن المستغرَب أن يأتي اليوم الذي يُخلَق فيه إنسان كامل في المختبرات برعاية العنصر الواعي الفعال الإنساني، وبفضل تقدمنا العلمي ومعرفتنا المتزايدة عبْرَ الزمن نتيجة المنهج العلمي. ولا فضل للصدفة ولا للانتقاء الطبيعي التراكمي بالموضوع .

سادسا: جمال المنهج العلمي في سعيه الحثيث نحو المعرفة وكشف المجهول. وهذا الأمر يجذبنا جميعا نحن أبناء المنهج العلمي ولكن للأسف يقوم بعض المنتمين إلى المنهج العلمي بتحميل الفرضيات والنظريات أكثر مما تدل عليه حتى أصبحت دينا جديدا له ثوابت وقواعد ومبشرين، وبالتالي عندما تسأل ملحدا لا علاقة له بالبيولوجي فتراه ينقل كلام مبشِّر (عالم بيولوجي ملحد) بالتفصيل وهو لا يعرف فعليا عما يتكلم، وعندما تخبره عن بعض اعتراضاتك أو ملاحظاتك يقول لك اقرأْ الكتابَ الفلاني أو اطَّلِع على الصفحة الفلانية، تماما مثل المتطرف الذي لا يعرف شيئا عن القرآن ويخبرك أن كل الحلول والنظريات والأفكار موجودةٌ فيه !!

سابعا: المنهج العلمي منهج لاأدري عندما يتعلق الأمر بالخالق، والسبب بسيط وهو أن الخالق المفترَض هو لا مادي، والمنهج العلمي لا يتعامل إلا مع الأمور المادية وبالتالي هو لا يستطيع نفي وجود شيء يقع خارج اختصاصه، وهذه الحال ستبقى كذلك اليوم وغدا وبعد مليون سنة.

ثامنا: المنهج العلمي منهج لا أدري عندما يتعلق الأمر بما لم تصل اليه ادواتنا ولا اكتشافاتنا. لذا القول بالنظرية النهائية أو النظرية الحلم وان العلم سيكتشف هذا الشيء أو ذاك بالمستقبل. هو كلام غير علمي ولا قيمه له.

تعارُض الدينِ مع الدين

ماهو الدين الصحيح؟ ولمإذا يتعارضُ دينٌ مع دين ويختلف ما دامت الأديان من مصدر واحد ؟

هذا السؤالُ كان السببَ في إلحاد المئات في الغرب والشرق باعتبار أنَّ لا دين صحيح وأن ليس للأديان مصدر واحد والقضيةُ لا تتجاوز كونَها أمرًا اختلَقَه البشرُ وقام بتشذيبِه الأذكياءُ منهم، وهو إشكالٌ مهم وصحيحٌ في ظاهره ولكن هذا التعارض أمر طبيعي ولذا أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل على مراحل لتهذيب ما طرأ على الأديان من الانحرافات التي حدثت نتيجة لتقادم الزمان وتخلُّف طُرُقِ التدوين أو صعوبتها في فتراتٍ زمنية سابقة ولو لم يكن هناك انحرافٌ وأختلاف لَمَا كان هناك أي داعٍ لإرسال رُسُلٍ آخرين وبالتالي وهذا التهذيب والتصحيح دلالة واضحة على مصدرها الواحد وأن التعارض ليس من المصدر وإنما من الظروف المحيطة وفهم أتباع الدين الذي قد يطرأ عليه ما يطرأ عبر العصور.

مِن ناحيةٍ أخرى هذا التعارض لا يلغي مسؤوليةَ الإنسان في البحث والتدقيق وصولا للدين الأقرب للصحة حسبما يراه، ولا يعني أن يرميها كلها عرض الحائط بلا فحص صادق لها. فمَن استطاع الوصولَ فهو على الخير وحتى مَن لم يستطع الوصولَ وحاولَ قدْرَ إمكانياتِه فهو على خير، وعلى العموم كما بيَّن القرآن

وبشكل واضح أن مَن يتبع الهُدَى الذي يظنه صحيحًا فهو على خير كثيرٍ ما دام غيرَ معاندٍ ولا متكبّر (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَأي فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ﴿البقرة –٣٨﴾

الدعاء والإجابة

مِن الأمور التي تُذكَر في أغلب كُتُبِ الملحدين المعاصرة تجربة الدعاء الكبرى، وهي باختصار تجربةٌ قامت بها بعض المنظمات الدينية المسيحية، حيث يُطلَب من أشخاصٍ أن يدعوا لأشخاصٍ آخرين لا يعرفونهم في المستشفى طلبًا للشفاء في نفس الوقت يوجد أشخاص آخرون يعانون من نفس الحالة المرضية في نفس المستشفى لا أحد يدعو لهم. ومن ثم يتم النظر إلى النتائجِ الطبيه للجميع لقياس اثر الدعاء لمَن تم الدعاءُ لهم ومقارنتُها بنتائجِ مَن لم يتم الدعاء لهم، التجربة مِن المفروض أن تتم في سريةٍ تامة بحيث لا يعلم أحد مَن تم الدعاء له ومَن لم يتم الدعاء له، وصُرِفت الملايين على هذه التجربة بهدف الإجابة عن سؤال: هل تساعد الصلاةُ المَرْضَى على الشفاء؟ حيث إن كانت الصلاة تساعد فهذا يعني أن هناك خالق يستجيب الدعوات! هذه التجربة في اعتقادي الشخصي لا قيمه لها وسخيفة على كل المستويات، وكأن هذا الخالق ما هو إلا عامل توصيل يستجب لمن يدعوه ويترك من لا يدعوه وأن لا قيمه للقوانين الطبيعية التي وضعها هو بنفسه، فإذا كان هدف التجربة التأكدَ من وجود خالق فليس بهذه التجارب نستدل على وجود خالق؟ وليس الخالق بهذه العقلية ليُظهِر نفسَه للناس بناءً على أدعيةٍ عمياءَ فلو شاء الخالق أن يُظهِر نفسَه لأظهرها ولرَفَع العقلَ والتفكير وإلا فما الداعي لهما إن كنا لا نستخدمها للاستدلال على الأمور المختلفة ومنها وجود خالق من عدمه؟ وقد عبَّر أحد المؤمنين عن التجربة بقوله: "لو أراد الله أن يرينا وجودَه لوجد طريقا أفضلَ من التحيز في إحصائيات تجربة شفائية لمَرْضَى القلب".

فلسفةُ الدعاءِفي الاسلام مختلفة وإنْ كان المجتمع المسلم للأسف لم يلتفت إليها حتى اليوم، فترى أصحاب المنابر يدعون كل أسبوع بالويل والثبور على أعدائهم ولا استجابة لانهم ابتعدوا عن فلسفة الدعاء في الإسلام الذي يأتي بعد الاستعداد والعزم على إتمام الأمر فالدعاء في الإسلام ليس المصباحَ السحري الذي يحقق الأحلام، ولا سبيل إلى تحقيق أي حُلمٍ بدون العلم والسعي له؛ فهذا رسول الله يأمره الله بالاستعداد لقتال مَن يحاول الاعتداءَ عليه، ولا يأمره بالدعاء للانتصار عليهم، وهذه السيدة مريم يأمرها بأن تهز جذعَ النخلة ليتساقَطَ عليها الرطب، ولا تدعو الله ليتساقط عليها، ومن لا يتبع الأسباب لا يحقق النجاح ولو كان الرسول والصحابة في موكبه وهذا ما حدث في معركة أحد.

وهكذا أي دعاءٍ بدون عمل لا قيمة له لأن الله تعالى حكيمٌ يعلِّمنا اتباعَ الأسباب والقوانين الطبيعة الحاكمة، وبخلافه نقع في مطباتٍ كارثية كما وقع كاتبُ كتاب "محنتي مع القرآن" الذي على فرضِ صحة قصتِه فإنه يبني كتابَه على أساس أن الله لم يستجب لدعائه وبالتالي رفض فكرة الخالق وألحد ولم يوضح المؤلف على فرض أنه شخصيةٌ حقيقة ماذا عمل هو ليتحقق دعاؤه. وعدم فهْمِ فلسفة الدعاء الإسلامي فيروس منتشر في الأُمة حتى لنسمع الكثير مِن الناس يقولون عن الظالم مثلا:"الله ينتقم منه" وهُم لا يقومون بأي دور للدفاع عن المظلوم أكثر من الكلام! في حين أن الله قد خولهم القصاص منه وطالبهم بعدم الركون

إليه وقتاله إن أقتضى الأمر وهم بفعلهم هذا يخالفون أوامر الله تعالى وحجتهم بذلك الاستدلال ببعض الآيات على أن الله يستيجيب الدعاءَ ولكنهم يغفلون عن بقية الآيات التي تدل أن لاستجابة الدعاء شروطا، ونتيجةً لهذه الغفَلة فإنهم لا يدركون فلسفة الإسلام في الدعاء القائمة على أساس العزم والعمل بعد التوكل على الله، وليس على النوم والكسل بعد دعاء الله.

عبودية البشر للبشر:

الإسلام تَعاملَ مع العبودية بأسلوبٍ منطقي، ووضع لها خارطةَ طريقٍ تحمل الملامحَ الآتية:

أولا: مساواة الحُر والعبد أمام الله تعالى، وجعْل الحسابِ على أساس الإيمان والعمل الصالح بعيدا عن المنزلة الاجتماعية .. قال تعالى: (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ﴿١٢٣– النساء﴾ ... وهذا أمر مهم حيث ثبت عبْر التجربة الأمريكية أن مجرد إصدار قانون لا يزيل النظرةَ الدونيةَ للعبيد حيث لم يزيل قانون لنكولن عام ١٨٥٤ميلادية النظرةُ الدونية لأصحاب البشرة السوداء في أمريكا حتى السبعينيات من القرن الماضي، وبشكل أقل حدة حتى يومنا هذا.

ثانيا: إجبارُ صاحبِ العبدِ على تحريره إنْ طلب العبدُ ذلك، وذلك في قوله تعالى (**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّـهِ الَّذِي آتَاكُمْ**) ﴿ جزء من اية ٣٣– النور﴾ . والآية تشتمل على أمرٍ واضح للسيد بتحرير عبدِه إذا طلب ذلك وفْقَ مكاتبةٍ وعقدٍ شرعي، وقد ورد في البخاري أن أحد الصحابة رفض مكاتبة عبده فاشتكى إلى الخليفة عَمرَ بنِ الخطاب فضرب السيدَ الذي رفض مكاتبة عبده وهو يتلو هذه الآية، وبغض النظر عن صحة الحادثة من عدمها فالآية واضحة، فالإنسان حُرٌ ولكل شخص ظروفُه وبالتالي إعطاء الحق بالاختيار هو الأمر الأكثر منطقيةً وعدالة، فالعبودية نظامٌ اجتماعي واقتصادي يوفر الغذاءَ والمسكن، وكان متغلغلا وجزءً من البناء المجتمعي، وإلغاؤه بين ليلةٍ وضحاها سيؤدي إلى ظهور طبقةٍ اجتماعية تشكل عبئًا على المجتمع واختلالا واضحا في سير الحياة اليومية مما يؤدي بطبيعة الحال إلى الحروب مثلما حدث في أمريكا. ومِن هنا تأتي عظمة القرآن من خلال عمله في اتجاهيْن أولاً: إذابة الحد المعنوي بين العبد والسيد بجعلهما سواسيةً أمام الله، والثاني: إعطاء العبد حريةَ الاختيار وإجبار سيدِه على مكاتبته في حال رغبته في الحرية، فهو في حقيقة الأمر مَنَحه حريتَه المعنوية والماديةَ في آنٍ واحد .

ثالثا: إصدار أمرٍ قرآني بضرورة دفع الأموال من بيت المال للعبد الذي كاتَبَ سيدَه على الحرية مقابل مبلغٍ من المال تحت مسمّى "في الرقاب" ، قال تعالى: (إنما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ﴿٦٠– سورة التوبة ﴾، وهذا أمر مهم جدا ليضمن للسيد حقّه في حالة أن دفَعَ أموالاً لشراء العبد، ويضمن للعبد إمكانية دفْعِ الأموال لسيده لضمان حريته، أو يدفع له المالَ إن كان في شدة لتحقيق نوع من الاكتفاء الاقتصادي إذا كان سيدُه غيرَ قادر.

رابعا: يجب أن يكون الزواجُ من الجواري زواجًا شرعيًا، ويجب إلحاق الطفلِ بأبيه حتى أصبح بعض الأمراء والخلفاء أبناءَ جوارٍ، وتَقَبَّلَ المجتمعُ الصحراوي هذا الأمر برحابة صدر بفضل الإسلام، وهذا الزواج الذي هو عقْدٌ بين طرفيْن متكافئيْنِ يلغي مسألة عبودية الجارية المتزوِّج منها بالتمام والكمال، كما يحفظ شرفَ وعفةَ الجاريةِ غير المتزوجة، قال تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ واللَّهُ أَعْلَمُ بِأيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ ولا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢٥) النساء، فالنكاحُ كما هو معروف عقْدٌ شرعي وليس مجردَ تزواجٍ وهذا نراه واضحاً في قوله تعالى: (يا أيهَا الَّذينَ آمَنُوا إذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَميلاً) (٤٩)الأحزاب، فالنكاحُ في هذه الآية الكريمة يدل على العَقد لا على الزواج بدلالة عدم المس .

خامسا: لم يكتفِ القرآن بهذه الإجراءات العَمَلية لتحرير العبيد وبشكل مدروس وتدريجي كما لاحظنا، وإنما أضاف إلى ذلك بعض الحوافز من خلال جعل عِتْقِ الرقبة وسيلةً للتقرب إلى الله، وبعض الأوامر من خلال جعل عِتْقِ الرقبةِ وسيلةً لتكفير عن الذنوب .

طبعًا للأسف فإن ما حدث من جرائمَ باسمِ الإسلام مِن السبي وغيره في الحروب التي لا تكتسب شرعيتَها من القرآن أجهضَ المشروعَ الإسلامي القرآني في مجال تحرير العبيد بشكل واضح، وهذا أمر لا يضر الإسلام، بالعكس إنما الإسلام تَوَعَّدَ أمثال هؤلاء المجرمين بالعذاب، وهذا الأمر ليس مِن باب الدفاع عن القرآن ولكنه واقع الحال حيث إن التمييز العنصري وعزْلَ السودِ في أماكنَ معينةٍ لقرون في أمريكا لم يضِر موقفَ لنكولن وقانونَه شيئًا.

الدليل على وجود الخالق، مسؤولية مَن؟

مِن دعاوى الملحدين أنه يجب أن نميز بين الإيمان وعدم الإيمان، فغيرُ المؤمنِ بالله لا يعني أنه يؤمن بعدم وجود الله، على اعتبار أنه لا يؤمن بوجود خالق لعدم كفاية الأدلة التي يقدمها المؤمن!

المفروض أن يوجه أصحاب هذه الدعوى كلامهم إلى داوكنز وستينجر وغيرهم من علماء الإلحاد الذي يصرون على عدم وجود خالق! لذا أصل هذه الدعوة غير صحيح لأن الملحد لا يكتف برفض وجود خالق وإنما ينفي وجودَ خالق. ففي مسألة الخالق الملحد ليس لا أدري وإنما يعتقد بعدم بوجوده مما يعني أن القضية ليست مجرد عدم كفاية الأدلة على وجوده. وبما أنه نفى وجود هذا الخالق فعليه أن يقدم أدلةٍ على ذلك. لأن الأمر ليس مجرد عدم اقتناع بأدلة المؤمن حيث إن عدم الاقتناع يؤدي إلى رفض الفكرة وليس نفيَها، باختصار رفضُ الفكرةِ لعدم كفاية الأدلة لا يعني النفيَ، والإلحاد هو النفي، وبالتالي على الملحد أن يقدم أدلة على النفي .

قد يعتقد البعض أن المقصود بتقديم الأدلة هو تقديمها إلى الآخرين ودفعهم إلى الاقتناع بها، وليس هذا ما أقصده وإنما ما أقصده هو أن يقدم الملحدُ الأدلةَ المقنعةَ إلى نفسه هو ويقتنع هو بها ولا يطالب الآخرين

بأن يقدموا له أدلة على وجود إلهٍ أو عدم وجودِه؛ لأن هذه المسألةَ مسألةٌ شخصية يفكر فيها الإنسان بطبعه وفطرته، لذا عليه أن يجد أدلة مقنعةً له على أقل تقدير للإثبات أو النفي ولا ينتظر ذلك من الآخرين. المنهج العلمي يطلب مِن كل مَن يأتي بفرضيةٍ أو نظرية أن يقدم الإثباتاتِ الممكنة على صحتها. للأسف الملحدون يحاولون تطبيق نفس المنهج على الخالق، ومِن هنا جاءت المقولة التي يرددها الملحدون بأن على المؤمن تقديمَ الأدلة على وجود الخالق، في حين أن مسألة الخالق ليست نظريةً يأتي بها عالِمٌ بعد بحثٍ وتدقيق، وإنما أمر شغل الإنسان بغض النظر عن ثقافته واطلاعه منذ فَجْرِ تاريخه، فهو أمر في فطرته كما بيَّنا وبيَّنَ العلمُ النفسي عند مناقشة كتاب "وهْم الإله" وهو إحدى خصائص الإنسان، فكل إنسان سواءٌ أكان ملحدا أم مؤمنا أم لا أدريا مطالبٌ بالبحث والتدقيق وتقديم الأدلة المقنعة لنفسه أولا، ولا ينتظر مِن الآخرين أن يقدموا له الأدلة.

وفي حقيقة الأمر فإن الأدلةَ المنطقية على وجود خالق موجودةٌ، فلا يمكن أن يكون كل ما حولنا مجردَ صدفةٍ سعيدة، وليتها كانت صدفةً واحدة وإنما لا نهاية من الصدف التي أتت بالكون، وبالأرض التي تدور حول نفسها وحول الشمس، وبالحياة وبالتطور وغيرها الكثير والكثير. ولأجل هذا فإن مسألة تساوي الأدلة على وجود الخالق ونفيه كما يدَّعي البعض غير صحيحة منطقيًا.

الإنسان يمكن أن يصل إلى الاقتناع بوجود خالق من خلال البحث والتفكير، وتكون حاله كحال سيدنا إبراهيمَ الذي توصل إلى هذه القناعة من دون الحاجة إلى رُسُلٍ ولا إلى كتاب مقدس، ولكن عندما يصل إلى سؤال ماذا يريد الخالق، يصبح إرسال الرسل ضرورة كما عبَّر سيدنا إبراهيم بعد تيقُّنه بوجود خالق ولكن لا يعرف ما يريد منه بقوله: (لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) وهنا تأتي مرحلة البحث في دعاوى الرسُل. فسيدنا إبراهيم وصل إلى مرحلة الاقتناع بالخالق بدون رسالةٍ ولا رسول، وإنما بجهده الشخصي ولذا فرض الله على المسلمين اتباعَ ملة إبراهيم، فعَلَى المؤمن أن يعرف الله ويتأكد من وجوده بشكل منطقي وليس بشكل وراثي وبعدَ معرفة الله والتأكد من وجوده تبدأ مرحلة البحث في الأديان لاختيار ما يمكن أن يكون ممثلا للرسالة السماوية، ولهذا السبب على الرغم من أن إبراهيم وصل إلى ربِّه إلا أنه بيَّنَ أنه كان سيظل إذا لم يُهدِه الله، ولهذا السبب أرسل اللهُ رُسُلَه للناس للتبيان والهداية.

أين كان الخالق؟ متى وُجِد الخالق؟

نؤكدُ أن الحديثَ عن أسماء الخالق وخصائصه لا يمكن أن يكون نقاشا ذا مغزىً ما لم يكن المناقِشُ قد حَسمَ أمرَه من مسألة وجود الخالق من عدمه، فلا يجوز منطقيًا أن تناقِشَ أمرًا أنت لا تعتقد في وجوده. فإذا اعتقدَ شخصٌ بالخالق فقدْ يتساءل بينَه وبين نفسِه أو مع الآخرين أين كان الخالق قبل أن يخلق الكون؟ متى وُجِد الخالق، منذ كم سنةً مثلا قبل أن يوجِد الكون؟ وحتى نفهم السؤالَ بشكل واضح فإنه ببساطة يتكلم عن مكان الخالق قبْل الخلق والزمان الذي وجِدَ فيه الخالق قبلَ الخلق أيضًا. والسؤالُ هنا في جوهرِه يحتوي على إشكالية الزمان والمكان، فالزمان والمكان وُجِدا مع وجود الكون، فَهُمَا أمرانِ مُستحدَثانِ بالانفجار الكبير، أو عند تكوُّنِ كونِنا بنظرية تعدد الأكوان المفترضة، وبالتالي المكانُ والزمانُ بمفهومنا لا يجوزان على الخالق لأنه هو مَن أوجَدَهما. فعندما يصنع أحدُهم كبسولةً صغيرة جدا تُستخدَم لنقلِ بعض المواد داخل جهازٍ معين

أو جسم معين، وفي هذه الكبسولة مكانٌ وساعة خاصة تحسب الوقتَ بوحدات اسمها اليوم الكبسولي مثلاً. حيث ابتدأ الوقت بالصفر لحظةَ ابتداءِ الكبسولة في العمل. فهل يجوز أن نقول أين مكانُ المصمم في الكبسولة؟ وكم يومًا كبسوليًا قضى قبْلَ بدء عمل الكبسولة؟ الجواب، بالطبع لا.

الأغلبية متطرفة أم معتدلة؟

عندما يَسمع الملحِدُ الأفكار الإسلاميةَ المعتدلة التي تهز إلحادَه فإنه يجد راحتَه وما يثبت إلحادَه في مقولة إن هذه الأفكار لا قيمة لها؛ لأن أغلبيةَ المسلمين لا يعتقدون فيها!

ولا أعرف ماذا يقصد بأغلبية المسلمين، هل يقصد الحلَّاقَ في منطقتِه؟ أم بائعَ الخضروات؟؟ أم طبيبَ الأُذُن والحنجرة الذي زار عيادته قبل سنتين مثلًا؟ أم سائقَ التاكسي! في الحقيقة أغلبُ المسلمين معلوماتُهم الفقهية بسيطة ولا تتجاوز مسألةَ الصلاةِ والصوم وبعضِ المتعلقات الأخرى، وهذا أمرٌ طبيعي لانشغال الناس بحياتِهم. والإسلامُ لا يطالبهم بالانقطاع عن حياتهم اليومية وعدم تحصيلِ معاشهم لأجل التفقه في الدين، ولذا أوْجَبَ على جماعةٍ من الناس التفقُّهَ في الدين لينذروا الآخرين كما جاء في القرآن الكريم ولاحظ أن التعبير جاء لينذروا وليس ليفرضوا عن طريق إقامة دولة الخلافة أو شيء من هذا القبيل. مما يعني أن القول إن أغلبيةَ المسلمين توافِق على حدِّ الردةِ مثلا أمرٌ غير صحيح، أغلبيةُ المسلمين غيرُ مطلعين على حد الردة، وعندما نتعرف على آراء الفقهاء نجدهم مختلفين فمِنهم مَن يثبته بالمطلق، ومِنهم مَن يثبته بشروط، ومِنهم مَن يعتبره أمرا تاريخيا لسد الطريق أمام مَن ذكروا بالقرآن بقوله تعالى: (وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)﴿٧٢- آل عمران﴾ ومِنهم مَن يرى أن لا أصل له، بالتالي على مستوى التخصص فإنه لا أغلبية معتقدة به. أمَّا معرفة رأي الأغلبية المسلِمة كرأي الحلَّاق، وبائع الخضراوات، والمهندس، والطبيب في حدِّ الردةِ مثلا فلا يتم حتى نُطلِعَه على جميع الآراء الفقهية المتعلقة بالموضوع، وبعد ذلك يمكننا أن نسأله عن رأيه.

القولُ إن الأغلبيةَ ضد الأفكار المعتدلة مسألةٌ لا أساس لها، بالعكس أنا أعتقدُ جازمًا أنه في حال اطَّلَعتِ الأغلبيةُ على الآراءِ المختلفة فإنها ستميلُ إلى أكثر الآراء اعتدالا ومَن يعتقد خلافَ ذلك عليه أن يجرِّبَ أن يلتقي أغلبيةَ المسلمين ليثبِت! المُخطَّط أدناه يَستخدمه الملحدون في محاولةٍ لإثبات أن الحركاتِ التكفيريةَ الإجرامية المنتسبة للإسلام هي الممثل الحقيقي له، أمَّا المليار مسلِم الذي يعيشون حياتَهم بشكل طبيعي فهُم مجموعةُ مغفلين لا يعلمون عن الإسلام شيئًا، وهذا دليل واضح على مقدار الوهم المعرفي الذي يعيشه الملحدون ومقدارِ جهلِهم بالدين، طبعًا هذا المُخطَّط لم ينتج عن أي دراساتٍ علمية معتبَرة، وإنما مجرد وجهة نظرٍ تمثل مَن أوجَدَه فتَلَقَّفَه الملحدون لأنه يلائِم هواهم بالرغم من محاكمه مليار وكسر مسلم بمعيار واحد أمر لا يقول به عاقل. ونرفِقُه هنا على سبيلِ الترفيه:



مَن الممثل للإسلام ؟

يتساءل البعض إذا كان المسلمين مختلفون في الكثير من المسائل فمَن الممثل الحقيقي للإسلام هل هم العثمانيون؟ أم الصفويون؟ أم السعودية؟ أم إيران؟ أم الأزهر؟ أم مَن؟ وهو سؤالٌ مهم، ولكن مَن قال إن هناك ممثلاً للإسلام؟ مِن أين أتينا أصلا بفكرة أن هناك مَن يمثل الإسلام؟ وإذا كان هناك واحدٌ أو مجموعة تمثل الإسلامَ فمَن بإمكانه أن يقرر أن تلكم المجموعة تمثل الاسلام دون غيرها؟ الملحد أم أفراد المجموعة نفسها أم المذهب المخالف؟ مِن مجموعة الأسئلة أعلاه يتضح لنا أن أصل السؤال لا يمكن الإجابة عليه لأنه ببساطة إنْ كانت الإجابةُ صادرةً مِن ملحد فمِن الممكن أن نطعن فيها، وإنْ كانت صادرةً من الجماعة نفسِها فمِن الممكن أن نطعن فيها، وإنْ كانت صادرةً من الجماعة المخالفة في المذهب أو الدين فمِن الممكن أن نطعن فيها أيضًا، لذا نجد أن مِن الصعوبة إيجادَ طرفٍ محايدٍ ليقول لنا مَن هو الممثل الحقيقي للإسلام. ولذا جاء أمرُ اللهِ تعالى بعدم تزكية أنفسنا أو الآخرين وترْكِ الأمر لله تعالى في هذا المجال؛ لأنه الأعلم بنا وبأحوالنا كما جاء في سورة النجم في جزءٍ من الآية رقم ٣٢:

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

ولكن يبقى السؤالُ أين نجد الإسلام إذاً؟ والجواب هو نجده في كل مَن قال لا إله إلا الله ثم استقام كما بيَّن رسولُ الله –صلوات الله وسلامه عليه– اليوم ونتيجةً لعدة عواملَ انقسمَ المسلمون إلى مذاهبَ مختلفةٍ، وهذا أمر طبيعي وكلها على خير ومتَّبعوها على خير مادامت أياديهم لم تلطَّخْ بالدماء وما داموا ملتزمين بالعمل الصالح الذي يأمرنا به القرآن الكريم، وتبقى مسؤوليةُ المسلم الفرد أن يتبع أحسن ما يصل إليه من الكلام، وألا يتبع المجرمين القَتَلةَ كما أمر الله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأولَئِكَ هُمْ أولُو الْأَلْبَابِ) ﴿الزمر: ١٨﴾ وكذلك قوله تعالى: (اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ﴿الزمر: ٥٥﴾.

القرآن الكريم يمثل الحقيقةَ المطلقة بلا شائبةٍ كما قال تعالى في سورة فُصِّلت: (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) وهو مِن الناحية العقائدية لا يختلف في شيء عن الرسالات السماوية التي سبقته كما في قوله تعالى في سورة فصلت أيضًا: (مَّا يُقَالُ لَكَ إلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) فالدين عند الله واحدٌ مذ خلقَ الأرضَ بمَن عليها وهو الإسلام ... القرآن الذي يحمل الحقيقةَ المطلَقة أقرَّ الاختلافَ بين الناس فيه وفي غيرِه مصداقًا لقوله تعالى في سورة هود: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) فالاختلافُ هو نتيجةٌ طبيعية لحرية الاختيار الممنوحة للناس جميعا، ولذا أخبرَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ محمدا أنه ليس باستطاعتِه هداية الناس جميعا إلى طريق واحد ومَن يعتقد بذلك سواءٌ أعن طريق الحكمة أم الجبر فإنه مِن الجاهلين، ونجد ذلك في قوله تعالى: (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أو سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِأيةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) والأكثر مِن ذلك اعتبَر القرآن الكريم أن مَن يعتقد بأنه على الحق وغيره على الباطل مِن غير العارفين أيضًا وذلك في قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّـهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) والأكثر مِن ذلك أيضًا التصريحُ بأن الله تعالى سينبِّئ الناسَ مِن أتباع الرسالات السماوية وحتى المشركين عن منشأ اختلافِهم، وسيفصِل بينهم يومَ القيامة، وفي هذا إشارةٌ قرآنية واضحةُ المعالم، إلا أن الفصلَ والحُكمَ بين الناس يتجاوز الانتماءاتِ المذهبيةَ أو الدينيةَ والتي في أغلبها ما هي إلا نتيجةٌ لموقع الميلاد الجغرافي واطلاع الأفراد وكلٌّ حسبَ طاقتِه واستطاعته، ونجد ذلك في قوله تعالى في سورة الحج: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّـهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) وكذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

وهكذا فالقرآن على الرغم من أنه كتابٌ يحمل في طياته الحقيقةَ المطلَقة إلا أنه أَقرَّ اختلافَ مستوياتِ النجاة ولم يحصرها في مستوىً واحد، والقرآن الكريم فتَحَ بابَ حريةِ التعبد وتعدد الأديان والشرائع كنتيجةٍ طبيعة وحتمية لعواملَ كثيرةٍ يصعُبُ حصرُها والحكم عليها في كل هذه الأمور إلا بردها لله تعالى (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّـهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ إلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)، فالقرآنُ الكريم عطاءٌ إلهي كلٌّ يأخذ منه حسب

استطاعته وقدرته، وقد نجد الكثيرَ من المستضعَفين في الأرض الذين لم تُسعِفهم قدرتُهم للوصول إلى القرآن أو آخرين أساؤا فهمَه واتبعوا خطواتِ الشيطان، وكذلك الكثير ممن هُم بيْنَ بيْن كما عبَّر القرآن في مواضعَ عدة ... قال تعالى: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّـهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ). في نفس الوقت يقف القرآن موقفًا حازمًا من الكافرين والكافرين هنا ليسوا غير المسلمين وإنما من عرف الحق ولم يتبعه إما تكبرًا كأبليس وإما عنادًا وإما لهوى النفس. وكذلك توعد المجرمين المفسدين بالارض.

عدم التفكير بحُجّة التفكير

يقيم الملحدون الكثيرَ من المؤتمرات والمناقشات واللقاءاتِ التليفزيونية لإثبات وجودِهم وفكرتهم الأساسية في عدم وجود خالقٍ للكون، ولكن عندما يتم الكلامُ عن البديهيات والتي منها على سبيل المثال أن لا شيء يأتي مِن لا شيء، وأن الأثرَ يدل على المسير وبالتالي لا يمكن أن يكون كل ما حولَنا قد حدث بمحض الصدفة، فإنهم يتفقون على عدم التفكير ويقولون مَن يريد أن يثبت وجودَ الخالق فليأتِ بدليلٍ، فمَن يدَّعي ادعاءً عليه الدليل وكأن الأمر محصورٌ في المؤمنين وهُم وحدَهم مَن يتكلم عن الخالق، وكأن المؤتمراتِ والمناقشاتِ وغيرَها من الأعمال التي يقيمونها هدفُها مناقشة رقصة "السالسًا وكيفية عمل كيكة الأعراس.

العلمانية والدين والإلحاد

غالبا ما يتمسَّح الملحدُ بالعلمانية ويدافع عنها، ويعتبر نفسَه علمانيا في الوقت الذي يهاجم فيه الأديانَ ويعتبرها وهْمًا وخداعا، وقد يكون هذا مقبولًا ضمن حرية التعبير ولكن ليس مِن حقه أن يَكذب على الدين ويشوّه عن طريق التدليس والتركيز على الحوادث السيئة دون الجيدة في المتناقض والمختلَف فيه، فلا علاقة لهذا التصرف بالعلمانية لا مِن بعيدٍ ولا مِن قريب، فالعلمانيةُ الناجحة هي التي تحترم الدين وممارساته وتحميه، وفي نفس الوقت عملت على جعل حكومة البلدان حكومه محايدة لا تمثل دينًا معين ولا تعادي دينًا آخر ففصلتْ الدينَ عن الدولة ولم تفصله عن حياة الناس، أمّا علمانيةُ القمعِ والقتلِ الستالينية فنتيجتُها معروفةٌ للجميع.

وبالمختصَر موقفَ العلمانيةِ واحدٌ من المؤمن والملحد وهو حمايتهما وتوفير الأجواء لهما ليمارسا طقوسهما وشعائرهما بحريةٍ، فهي نظامٌ سياسي يدير شؤونَ الناس بِغَضِّ النظر عن انتمائِهم الديني أو المذهبي، فإذا وجدتَ حكومةً معينةً أو طرفا مُعيّنا لا يحترم الآخرَ مهما كان هذا الآخرُ فهو بعيدٌ عن العلمانية وإنْ تَمَسَّحَ بها ليلَ نهار.

الإلحاد دينٌ أم عِلم؟

في نهاية كتاب "كون مِن لا شئ" لعالِم الفيزياء النظرية لورانس كراوس أجاب عن سؤال هل يمكن أن نعتبر العلمَ نوعا مِن أنواع الإيمان بقوله "أنه قد يكون نوعا من الإيمان، ولكنه ليس إيمانا لا يتزعزع. فالعلمُ يمكن أن يغير رأيَه في موضوعٍ ما إذا تغيرت الحقائقُ بكل بساطة". هذا الجوابُ من لورانس جوابٌ غريب، لأن العلم لم ولن يكون نوعًا من الإيمان بالرغم من بعض الجهلة الذي يرفعون شعار" أنا اؤمن بالعلم، في

حقيقة الأمر نحن نَقبَلُ بالأدلة التي يقدمها العلمُ مع اعتقادنا بأن العلم النسبي هو مجرد احتماليةٍ قد تتغير في أي وقت.

ولكن لو سأل سائلٌ هل الإلحادُ إيمان؟ فالجواب بالتأكيد نعم لأن نفي وجودِ خالقٍ لم يَقُم على أي منهج علمي حسي تجريبي بل على المنهج العقلي فقط، بعكس الإيمان بالخالق القائم على المنهج العقلي وعلى المنهج الحسي، ونجد ذلك واضحًا في مقولات كبار علماء الذين يتخذهم الملحدون مثلا أعلى لهم:

داروين في رسالةٍ إلى عالِم النبات الأمريكي "أسا غراي" كَتَبها عام في ٢٢ آيار عام ١٨٦٠ يقول ما نصُّه: "لا أقدر أن أرى ببساطة كما يفعل الآخرون، وأتمنى أن أقدر، الأدلة على التصميم والنفع في كل ما يحيط بنا. إذ يبدو لي أن هناك بؤسا كثيرا جدا في العالم. لا يمكنني إقناع نفسي بأن خالقا رحيمًا وكُلي القدرة ليصمم زنابير الاكونومنيدا بقصد صريح هو أن تتغذى يرقاتُها داخل الأجساد الحية للجراد، أو أن القطط تلعب بالفئران."

وهنا نرى أن داروين قد أقرَّ أنه لا يستطيع أن يرى الموضوعَ كما يراه الأخرون، هذا تقريبًا نفس ما كتبه ريتشارد داوكنز في الصفحة الأولى من الفصل الأول من كتابه حول الاستلقاء على العشب والتفكر ومن ثم الاستنتاج بوجود إله أو عدم وجوده. في الحقيقة موقف داروين ناتج ببساطة عن عدم فهمه لغاية ما يراه فأتبع المنهج العقلي الذي أوصله إلى أن لا خالق رحيم موجود، على الرغم من أن هناك كلام حول إلحاد أو إيمان داروين ولكن ليس هذا بيت القصيد وإنما المقصود هو كيفية النظر للأمور وهل أن اعتقادنا بعبثية الكون أو تصميمه ناتج عن المنهج الحسي أو العقلي! عدمُ معرفةِ الإجابة على غايةٍ من الغايات لا تلغي التفكيرَ المنطقي الذي سبقه.

داوكنز في كتاب "النهر الخارج من عدن" عام ١٩٩٥ كَتَب ما نصُّه: "للكون الذي نشهده تحديدًا تلك الصفات التي نتوقعها لو كان في قراره لا يشتمل على تصميم، هدف، خير، لاشيء إلا اللامبالاة عديمة الرحمة".

بالطبع لا يوجد منهجٌ علمي يمكنه أن يستدل على وجود الخير من عدمه، وبالتالي النتيجة التي توصل إليها داوكنز معتمدةٌ على المنهج العقلي وليس على المنهج العلمي التجريبي.

ستيفن هاوكنيغ في كتابه "تاريخ موجز للزمن" يقول ما نصُّه: " مادام للكون بداية، يمكننا افتراضُ أن له خالقًا. ولكن إنْ كان الكونُ في الواقع يحتوي ذاتَه بالكامل، دون حدودٍ أو حافات، فلن يكون له بداية ولا نهاية، بل سيكون فحسب. أيُّ مكانٍ إذاً سيتسع لخالقِه؟"

هل يمكن للمنهج العلمي أن يوضح لنا ذات الكون؟ وماهو؟ وكيف يحتوي ذاتَه بالكامل؟ ولماذا لا يتسع لخالقه؟ كل هذا الكلام قائمٌ على المنهج العقلي وليس على المنهج العلمي.

إذاً نلاحِظ أن العلماءَ وعلى الرغم من اعتمادِهم على المنهج العلمي إلا أنهم عندما يتكلمون في موضوع الخالق فإنهم ينتهجون المنهجَ العقلي الذي يعني الكلام الفلسفي، ولذلك لا يمكن تدريسُ الإلحاد في مدارس الدول العلمانية، كما لا يمكن تدريس التصميم الذكي لأنهما يتجاوزانِ حدودَ المنهج العلمي. وكنتيجةٍ لكل ما سبق لا يمكن اعتبارُ أن الإلحادَ علم.

العلماء الملحدون والفلسفة الكلامية :

غالبًا ما يعتمد العلماء الملحدون على الفلسفة الكلامية لإثبات عدم وجود خالق أو عدم الحاجة إلى وجود خالق، وذلك ما استخدمه العالم العالم الفيزيائي "لورانس كراوس" في كتابه"لماذا هناك شيء بدلاً من لاشيء"، حيث استخدم التعابير الكلمانية المؤثرة في عدة مواقع منها:

الأول: عند تعبيره عن اللاشيء، فهولا يقصد اللاشيء فعلاً وإنما يقصد مادة بدون كتلة أو شيئا من هذا القبيل فهو لا يعني اللاشيء المتداول بين الناس كمصطلح فلسفي يعني العدم التام، هو يستخدم المصطلح الفلسفي ولكنه يعطيه بُعدًا آخرَ، ويقع للأسف البعض في هذاالمطب باعتقاده أن الكون أتى من لاشيء ولاحاجة إلى وجود خالق، في حين هذا اللاشيء فينظر لورانس على أنه شيء له صفات ومحددات .

الثاني: عنوان الكتاب: استخدم به لورانس الفلسفة الكلاميةَ أو لنقل اللعب بالكلمات، حيث يقول في الفصل التاسع من كتابه المسمى "اللاشيء هو شيء": "سأفترض المعنى الحقيقي للسؤال هو "كيف هناك شيءبدلاً من لاشي" بسبب أن السؤال الذي يبدأ بكيف هوالشيء الوحيدالذي نستطيع إجابتَه من خلال دراسة الطبيعة، أمَّا الأسئلة التي تبدأ بلماذا فلا نستطيع لأنها تتضمن السؤالَ عن الهدف أو الغاية، وهكذا نجد أنه حتى عنوان كتابه "لماذا هناك شيء بدلاً من لا شي" استخدم فيه نوعًا من الفلسفة الكلامية؛ ليضيف على كتابه هالةً إعلاميةً تؤدي إلى زيادة مبيعات كتابِه، أما حقيقة الأمر فإنه لا يجيب على هذا السؤال وإنما يتكلم في " كيف" .

للأسف يقع الكثيرُ في هذه المطبات حتى عندما تخبره عن استخدام الفلسفة الكلامية يقول هي مصطلحاتٌ يستخدمها العلماءُ، في حين أن الكثيرَ منهامصطلحاتٌ غيرمتفقٍ عليها بين العلماء، أو هي غيرعلمية من الأصل، وإنما مجرد لعبٍ بالكلمات ويستخدمها العالِمُ الملحد ليثبت فكرتَها الإلحادية.

ومِن الدلائل على استخدام الفلسفة الكلامية كلام ريتشارد داوكنز: "كلنا سنموت، وهذا ما يجعلنا الأوفرَ حظًا... أغلبُ الناسِ لن يموتوا أبدًا؛ لأنهم لم يولَدوا أبدًا، إن عددَ الناس الذين كان بإمكانهم أن يكونوا مكاني هنا لكنهم لم يروا ضوءَ النهار، يفوق ذراتِ رمال الصحاري، وبلا شك إن مِن بين أولئك الأشباح الذين لم يولَدوا شعراءَ أعظمَ مِن كيتس وعلماءَ أعظمَ مِن نيوتن! انتهى الاقتباس

وهذا كلامٌ واضح أنه بعيدٌ عن العلم وحتى عن الفلسفة التي تحترم نفسَها فما معنى أغلب الناس لن يموتوا لأنهم لم يولدوا؟! وإذا لم يولَدوا فكيف أصبحوا أُناسًا من الأصل!!؟ وكيف تحول هؤلاء الذين لم يولَدوا بقدرةِ قادرٍ إلى أشباحٍ بينها مَن هو أعظم مِن نيوتن نفسِه، كلامٌ لا يحمل أيَّ قيمةٍ فلسفية أو علمية أو فكرية ولكن ترى الكثير من الملحدين يترجمونه ويكررونه معتقدين بأنه يحمل قيمه علمية أو فلسفية معينة.

القوالب الجاهزة ودورُها في نهضة الأُمم:

الملحد يحاول تغييرَ واقعِه وواقعِ مجتمعِه، ولتحقيق هذا التغيير يحتاج إلى مَثَلٍ أعلى أو قدوةٍ يقتدي بها، ولا يجد أمامَه سوى الدولِ الغربية فيعمل على تقليدها، ولكن بماذا يبدأ؟ هل يبدأ بتقليدِها على المستوى

الصناعي؟ للأسف لا يملك الادواتَ ولا الاطـلاعَ الـلازمَ ليتكلمَ فـي هذا الموضـوع، هل يبدأ علـى المستوى الاقتصـادي؟ للأسف أيضًـا لا يملك المقوماتِ اللازمـةَ ليتكلمَ فـي هذا الموضـوع، هل يتكلم علـى المستوى السياسي؟ للأسف غير مسموحٍ له بذلك ولن يسمعه أحد ولا يعرف من أين يبدأ.

وهكذا ينتقل من مستوى إلى مستوى ويكتشف عجزَه وعجْزَ مجتمعِه عن مواكبة الدول المتقدمة، فلا يبقى أمامَه سوى المستوى الديني نتيجةً لاعتقادِه أن المجتمعاتِ الغربيةَ تركت الدينَ، وخصوصًا أن اطلاعَه على المجتمع الغربي لا يتجاوز الأفلامَ الأمريكية. وقد أخبرَني الكثيرُ من الملحدين العرب أنه يعمل جاهدًا لتنوير الناس وإبعادهم عن الدين الذي دمَّرَ بلاده كما يعتقد، بصراحةٍ لو أن الملحِدَ اطلع بشكل أوسع على أسباب تقدُّمِ الشعوبِ وازدهارِها لَمَا تكلَّم أصلاً في الدين، فالشعوبُ تُدار بالقوانين السياسية والإدارية والاقتصادية ولا يُلتَفتُ إلى اعتقادِ أفرادها، فهذا الملحد الذي يحاول تنويرَ مجتمعِه -كما يدَّعي- بالكلام عن دين أفراده لا عن طريق الكلام عن جامعات بلدِه، ولا عن طريق طرْحِ الحلول الكفيلة لتطوير النظام الاقتصادي والسياسي والإداري الفاسد في مجتمعِه، هو جزءٌ كبير من المشكلة ومساهِمٌ أساسي في إطالة عُمر التخلف، فالتقدم العملي وازدهار المجتمع ينتج عن دراسةِ العلوم وتطبيقِها عن طريق إنشاء معاهدِ بحث علمي فاعلة تستطيع تطبيق البحوث والنتائج في أرض الواقع؛ في المصانعَ والمعاملَ بما يؤهلنا كشعوبٍ لإنتاج المعرفة. هذا هو طريق التنوير.

أمّا دين الأفراد فهذا شأنُهم الخاص، وبالطبع مِن حق الملحد أن يُلحِد ولكن ليعبِّر عن وجهة نظره باحترامٍ ولا يحمِّل الواقعَ الديني كل مشاكل المجتمع، فهذا التحامل دليلٌ على جهل المتكلم وعدم مصداقيتِه. وهذا الكلام لا يعني أن الواقعَ الديني لا شائبةَ تشوبُه، بل إن الواقع يُثبت العكسَ، وهناك الكثير من المشاكل على المؤسسات الدينية أن تعمل وبجديةٍ على معالجتِها ولكنَّ أسبابَ تأخُّرِ مجتمعاتِنا أكبرُ بكثيرٍ من المؤسسات الدينية ودورِها.

المرتدون:

حُكْمُ المرتدِ حُكْمٌ يخالِفُ معظمَ الآيات القرآنية التي تصر على حرية التعبير ولَكُم دينُكم ولي دين، وهو حكمٌ باهتٌ ومختلَفٌ فيه وفي تفاصيله اختلافًا كبيرًا جدًا بين المدارس الفقهية المختلفة. ومما تجب الإشارة إليه أنه لا يمكن اعتبارُ المسلِم بالوراثة مرتدًا إذا أعلنَ إلحادَه؛ لأنه لم يكن في يوم من الأيام مسلِمًا، ولم يتسَنَّ له أن يَطَّلِع على الإسلام ليقتنع به ويُعلن إسلامَه، وكل ما في الموضوع أن أبويْه كانا مسلميْن أيضًا حيث أن إسلام الوراثة لا طعم له ولا معنى،هذه النقطةُ يجب الالتفاتُ إليها. في أمريكا عندما تسأل أحدَهم هل أنت مسيحي؟ يقول لك نعم، أصبحتُ مسيحيًا عندما كان عمري عشرين عامًا، فهو لا يقول إنه أصبح مسيحيًا منذ ولادتِه وإنما عندما اقتنعَ بالفكرة. ولذلك المسلمون بالوراثة ما لم يقتنعوا ويتأكدوا من عقائد الإسلام فلا يمكن وصفُهم بالمسلمين حقًا، وإعلانُ إلحادِهم لا يعني ارتدادَهم، وإنما فقط يعني أنهم لم يقتنعوا بالإسلام الذي وجدوا آبائهم عليه واقتنعوا بما هو دونَه نتيجةً لتقصيرٍ واضح لعلماء المسلمين في عصرنا الحاضر تجاوَز هذا التقصيرُ تشويهَ تعاليمِ الدين إلى التباغُضِ بين المسلمين وإلى أنهارٍ مِن الدماء.

الخاتمة

تبدأ رحلة البحث لدى الإنسان منذ طفولته؛ حيث يسأل ويسأل ويبحث بشغفٍ لامتناهٍ، ويستمر البحث طوال حياته مستخدِمًا أدواتِه العقليةَ والحسيةَ، ولا يمكن كبْحُ جماح هذا الشغف في البحث عن الحقيقة. يُخطئ مَن يظن أنه يروي عطش فطرتَه الباحثةَ عن الخالق عند تحميله الآخَرَ مسؤوليةَ تقديمِ الدليل على وجود الخالق أو انتظار اكتشاف النظرية الحُلم "نظرية كل شيء" أو اعتماد العلم الزائف.

الإلحادُ الجديد ما هو إلا فرقعةٌ انتشرت كردّ فِعلٍ على أوضاع المجتمع المتردية على مختلَف الأصعدة في ظل تصاعد الفكر التكفيري وانحسارِ الفكر الإسلامي نتيجةَ لموازين القوَى والمالِ في العالَم العربي، وفي نفس الوقت نتيجةً لغياب الجهد الإسلامي العربي على الأقل في ترجمةِ الكتب التي تَرُد على كُتُبِ الملحدين وهي كثيرةٌ؛ فنتيجة لهذه الفجوة ظَنَّ الكثيرُ من الشباب العربي أن الغربَ تَقَبَّلَ كلامَ الملحدين وألحَدَ، وهذا غيرُ صحيحٍ، الإلحادُ يبقى أقليةً ضمْن جميعِ المجتمعات، نعم قد يرفض البعضُ الخرافاتِ التي ارتبطتْ بالأديان، ويرفض الأديانَ بناءً على ذلك، ولكنَّ رفْضَ الخالقِ أمرٌ آخر لا سبيل له في عقول الباحثين حتى البسطاء منهم.

المنهجِ الحسي التجريبيّ مهمٌّ طائلَ من ورائها، وإنما يبدأ مِن الجامعاتِ بتطوير مناهجِ التدريس وطُرُقِها، وتفعيلِ البحثِ العلمي لإنتاج المعرفة. جدًا لكبْحِ جماحِ الخيالِ والخرافات، كما أن البحثَ العلمي هو وسيلةُ العالَمِ المتحضّرِ للتطورِ والبناءِ والتقدم، ولا غِنَى عنه لكل الشعوب. فأكثرُ شعوبِ العالَمِ تَحَضُّرًا وتَمَدُّنًا أكثرُها اعتمادًا على العلوم ومعاهدِ البحث العلمي، ولكن يجب إبقاءه ضمْنَ حدودِه، فلا يجوزُ أن نصل في اتِّباع المنهج العلمي لمهزلة مقارنةِ الإيمان بالخالق ومبرراتِه بإناء الشاي الذي يدور حول المريخ. هذا الأمر لا يبدأ بترْكِ الدينِ وإشغال المجتمع في دهاليز العلم النسبي وصراعاتٍ جانبيةٍ لا

فهذه اليابانُ بعدَ الحربِ العالمية الثانية كانت بَضائِعُها ذاتَ جودةٍ رديئة ولاتستطيعُ أن تسوّقَ منتجاتِها حتى أَدْخَلت نظامَ إدارة الجودة الشاملة إلى مصانعها فَتَحقَّقَ لها ما تَحَقَّق، ولم يكن ذلك لا بترْكِ الدينِ ولا بالدعاءِ أيضًا، وإنما بالعملِ والجهد في الاتجاه الصحيح، وإذا اتَّبَعنا هذا الأسلوبَ سنتطورُ بِغَضِّ النظرِ عمَّا أعتقِدُه أنا وما تعتقِدُه أنت، فَلَكَ دِينُك ولي ديني.

في المجتمعِ الإنساني أنا أحترِمُك مهما تكن، وأنت تحترِمُني كما أنا. كما أن عَلَى رَجُلِ الدينِ أن يتوافقَ مع الثوابتِ العلمية، وأن يشتغلَ في الدين ويعمل على دعوةِ الناس بالتي هي أحسن، وليس بتهديدِهم بحدّ الردةِ، ولا بقانون ازدراءِ الأديان كوسيلةٍ لتغطيةِ عجزِه وقِلةِ ثقافتِه، وعليه ألا يتكلمَ خارجَ اختصاصِه فعجيبٌ أن يتكلمَ بعضُ رجال الدين لساعاتٍ في مواضيع طبية مثلاً معتمدين على خرافات القرون السابقة حيث يلصقونه بالدين زُورًا وبهتانًا في حين المفروض وبحكم دراستهم أن يكونوا آخر من يتكلم في الطب. أو يتكلممون في الخَلقِ وعُمرِ الكون نقلاً عن كُتُبِ التراث بلا تفكُّرٍ ولا تحقيق ولا تدقيق وكأنَّ أَمْرَ اللهِ بالسير في الأرضِ والنظرِ حول كيف بدأَ الخلْقُ لا يعنيهم أو نسخ بروايات من القرون السابقة!

لقد حاولَ هذا الكتابُ أن يُبيِّن علاقة الإلحاد بالمنهج العلمي وأن الإلحاد ما هو إلا نتيجة لمنهجٍ فلسفي قديم يعتمد على البرهان العقلي في إثبات وجودِه، فلا علاقة له بالعلم ولا بالمنهج العلمي وإنْ حاولَ العلماءُ

الملحدون أن يتمسَّحوا بالعلم لإثباتِ وجهةِ نظرِهم الإلحادية، هناك الكثيرُ من الكلام الذي مِن الممكن أن يقالَ في هذا المجال، ولكني حاولتُ الاختصارَ قدْرَ الإمكان، تارِكًا البابَ مفتوحًا على مصراعيه أمام الباحثِ المهتَم للإبحار في رحلةِ البحث عن الجواب، وهي رحلةٌ مِن أجمل الرحلات التي تعطي للحياة بُعدًا من أجملِ الأبعاد، ومهما كانت النتيجةُ فما دُمْنَا مُخلِصينَ فنحن على خير ...

تم بحمد الله